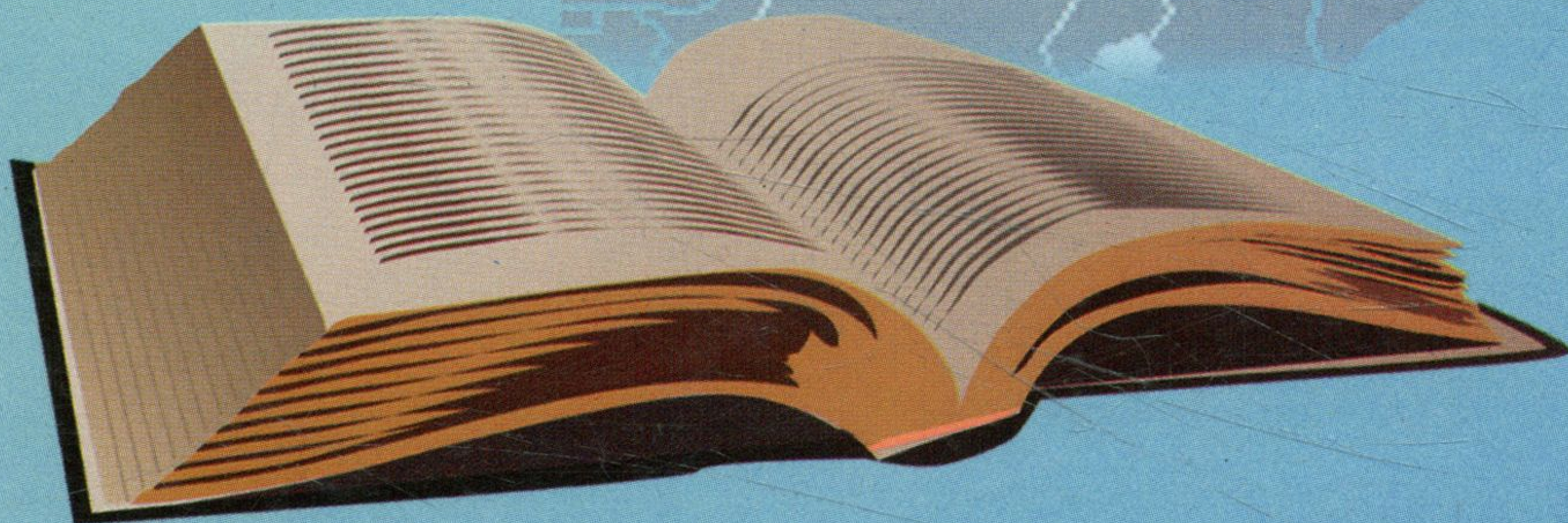
تاريخ المشرق العربى

فى العصر الحديث

(١٥١٦ - ١٩١٦)



الدكتور

أحمد عبد العزيز عيسى

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المساعد

قسم تاريخ كلية الآداب - جامعة دمنهور



تاريخ المشرق العربى
فى العصر الحديث
(١٥١٦-١٩١٦)

تاريخ المشرق العربى
فى العصر الحديث
(١٥١٦-١٩١٦)

إعداد

الدكتور

أحمد عبد العزيز على عيسى

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المساعد

كلية الآداب - جامعة دمنهور





اسم الكتاب: تاريخ المشرق العربى فى العصر الحديث (١٥١٦-١٩١٦)
المؤلف: أحمد عبد العزيز على عيسى

2015

رقم الايداع : ٧٣٤٥ / ٢٠١٤

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 978 977 - 393- 188- 8

الفهرسة ،
بستان المعرفة ٢٠١٥
300 ص ١٧ * ٢٤.٥

تدمك :٨-١٦٨- ٣٩٣ - ٩٧٧ - ٩٧٨

الناشر مكتبة بستان المعرفة

ج.م.ع - كفر الدوار - الحدائق -أمام أبراج الحلوانى

☎: ٠٤٥/٢٢٠٢٦٢٩ & الإسكندرية ٠١٢١١٥١٢٣٧

E-mail: bostan_elma3rafa@yahoo.com

المقدمة

"الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى"

يتناول هذا الكتاب موضوعات مهمة فى تاريخ المشرق العربى فى العصر الحديث، بداية من مطلع العصر العثمانى وحتى الربع الأول من القرن العشرين، ويتألف هذا الكتاب - بالاضافة للمقدمة - من ستة فصول، يتناول الفصل الأول قيام الدولة العثمانية ونظامها الادارى ففيه تم التعرض لأصل الأتراك العثمانيين،والروايات التى قيلت حول نشأتهم،ودور أرطغرل والد عثمان فى وضع اللبنة الأولى للدولة، ثم جهود السلاطين العثمانيين الأول فى تأسيس أركان الدولة وما بذلوه من جهود فى هذا الصدد بداية من عثمان والذى تنسب إليه الدولة العثمانية حتى بايزيد الثانى، وفتوحاتهم فى آسيا وأوربا علاوة على ما تعرضوا له من هزائم والتى كانت حافزاً لهم على مواصلة الفتوحات . أما عن النظام الادارى فيأتى على رأسه السلطان والذى كان من مهامه الرئيسية الحفاظ على أركان الدولة، وقيادة جيوشها، ثم يأتى بعده الصد الأعظم، ثم الديوان الهمايونى وأعضاءه، ثم النظام القضائى فى الدولة والذى كان يسير على أسس الشريعة الاسلامية، يضاف إلى ذلك وضع أهل الذمة،والامتيازات الاجنبية .

أما الفصل الثانى فيدور حول التوسع العثمانى فى المشرق العربى والدوافع التى شجعت العثمانيين على ذلك، وقد بدأ العثمانيون توسعاتهم بالسيطرة على الشام عقب هزيمة المماليك فى مرج دابق ١٥١٦، ثم السيطرة على مصر بهزيمتهم أيضاً فى موقعة الريدانية ١٥١٧،ثم اعدام طومان باى آخر سلاطين المماليك، وأثناء وجود سليم الأول فى مصر خضعت له بلاد الشام سلماً بعد أن أعلن ذلك شريف مكة،وأصبح السلطان العثمانى يحمل لقب خادم الحرمين الشريفين، كما يعالج هذا الفصل أيضاً مسألة انتقال الخلافة إلى آل عثمان، واستمرت توسعات العثمانيين فى

المشرق العربى،فسيطروا على العراق من الصفويين الشيعة عام ١٥٣٤، وأصبحت العراق ولاية عثمانية، ثم خضعت بعدها اليمن بهدف تأمين مدخل البحر الأحمر من الخطر البرتغالى.

والفصل الثالث يتعرض لعوامل ضعف الدولة العثمانية الخارجية والداخلية،وقد ظهرت العوامل الخارجية فى صراع وحروب الدولة العثمانية ضد النمسا وروسيا وفارس والبرتغال، وعقد على غرار ذلك معاهدات هزت صورة الدولة العثمانية،لخسارتها مساحات واسعة من أراضيها،وانهاك قواها الحربية، أما العوامل الداخلية فقد تمثلت فى ضعف مستوى السلاطين، وازدياد نفوذ الصدور العظام،والانكشارية، وتدنى مستوى الحياة الاقتصادية.

وقد أثر ضعف الدولة العثمانية على العالم العربى وهذا ما عالجه الفصل الرابع،فقد ظهر صراعاً عنيفاً على السلطة فى مصر متمثلاً فى البيوتات المملوكية، كما أثر ضعف الدولة العثمانية على سوريا بظهور أسرة آل العظم والتى وإن كانت قد ساندت الوجود العثمانى فى سوريا، إلا أن ذلك يكشف عن مدى ضعفها واعتمادها عليهم فى تنفيذ سياستها، أما فى فلسطين فقد ظهر ظاهر العمر واستفحل نفوذه على حساب الوجود العثمانى، وبعد مقتله ظهرت شخصية أحمد الجزار والذى يظهر من خلال سياسته مدى ضعف الدولة العثمانية لاعتمادها عليه فى تنفيذ سياستها.

ويعالج الفصل الخامس نموذجين لأحوال المشرق العربى مطلع القرن التاسع عشر، وهما الحملة الفرنسية على مصر،والدعوة الوهابية، أما بالنسبة للأولى فكانت أول اعتداء غربى على ولاية عثمانية عربية، وقد تمت معالجة هذ العنصر من خلال أسباب مجئ الحملة، وأحداثها، ونتائجها،. أما الثانى فيتعرض للدعوة الوهابية على يد محمد بن عبد الوهاب بالجزيرة العربية، وفيه تم الحديث عن مؤسس الدعوة، وعومل قيامها،

ومبادئها،وموقف الدولة العثمانية منها.ثم الحملة الإنجليزية على مصر من حيث الأهداف،وكيف تمت مقاومتها.ثم هزيمتها على يد المقاومة فى رشيد.

والفصل السادس والأخير يتعرض للعالم العربى خلال الربع الأول من القرن العشرين،حيث تناول محاور مهمة ساهمت وأثرت فى تاريخ العرب إلى اليوم وهى مرسلات الحسين مكماهون، واتفاقية سايكس بيكو، والصراع بين العرب والصهيونية.

وفى النهاية أرجو من الله أن أكون قد وفقت فى سدة ثغرة من تاريخ عالمنا العربى، والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل.

الفصل الأول

قيام الدولة العثمانية ونظامها الإدارى.

أولاً : قيام الدولة العثمانية .

ثانياً : النظام الإدارى .

الفصل الأول
قيام الدولة العثمانية ونظامها الإدارى

أولاً : قيام الدولة العثمانية

تجمع المصادر القديمة على أن العنصر الذى تنتمى إليه الدولة العثمانية، عنصر غزى أى تركمانى لا يفترق فى ذلك عن أغلبية الترك الذين وفدوا مع السلاجقة .

وأما ما ذهب إليه بعض المؤرخين المحدثين من أن العثمانيين ينتمون إلى بطن آخر من بطون الترك يقال له فانكلى فرأى لا أساس له، وقد سكتت بعض المصادر فلم تذكر إلى أى قبيلة من قبائل الغز المعنونة بـ (تواريخ آل عثمان) وكتاب (بهجة التواريخ) لشكر الله،وكتابا عاشق باشازاده وأوروج بك، فقد اقتصرت هذه الكتب جميعاً على القول بأن العثمانيين ينتمون إلى الغز .

ولكن مصادر أخرى صرحت بإنتماء العثمانيين إلى قبيلة من قبائل الغز هى قبيلة (قايى) . ومن هذه المصادر كتاب (سلجوقنامه) الذى كتبه يازيجى آوغلى فى عهد مراد الثانى وقد أثنت مصادر أخرى على بطن (قايى) وخصته من بين البطون الغزية بالأصالة والشرف ونسبت إليه العثمانيين، ومن هذه المصادر كتب الآنساب ككاب جام جم آيين، وبعض مجموعات الحكايات ككتاب (دده قورقود)، وكتب التواريخ.

وقد قبلت معظم المصادر التى كتبت مؤخراً فى الشرق والغرب القول بانتمائهم إلى قبيلة قايى، والواقع أن انتماءهم إلى الغز لا يتناقض مطلقاً مع انتمائهم إلى قبيلة قايى،وفوق ذلك فإن النص على انتمائهم إلى قايى موجود فى مصادر أقدم من المصادر التى لا تنص على ذلك، وقد كتب بعض هذه

المصادر والتقاليد الغزية لم تمت بعد في الأناضول ولاشك في أن قدم المصادر، ثم اختراع الحكايات عن مناقب قبيلة قايي يرجحان انتماء العثمانيين إليها إذ لولا أن العثمانيين كانوا يعتبرون أنفسهم من قبيلة قايى فما كانت الكتب التى حررت في قصورهم لتجشم نفسها اختراع هذه المناقب .

وربما خطر من أول وهلة أن الحكام العثمانيين ادعوا نسبهم إلى قايى لأهميتها بين قبائل الغز ولكن هذا خطأ فإن الروايات الغزية تقول أن الحكام يخرجون أكثر ما يخرجون من قبيلة سالور أو قبيلة قنق ولو شاء الحكام العثمانيون أن ينتحلوا نسباً لعزوا أنفسهم إلى إحدى هاتين القبيلتين، كما أن التقاليد العشائرية القديمة لم تكن قد نسيت تماماً عندما وضعت رواية قايى فى عهد مراد الثانى ومن العبث أن توضع شجرة نسب كاذبة تتناقض الأفكار التقليدية فى مجتمع البدو وبناء على ذلك يمكن أن نقبل أن عثمان (الذى تسمت باسمه الدولة) وأباه أرطغول كانا على رأس عشيرة ولو صغيرة من عشائر قايى [١].

وقد دخل الأتراك العثمانيون آسيا الصغرى فى الثلث الأول من القرن الثالث عشر الميلادى كقبيلة من القبائل التركية التى كانت، على فترات متباعدة حيناً ومتقاربة حيناً آخر، تنزح من مناطق الإستبس فى وسط آسيا متجهة غرباً نحو آسيا الصغرى أو الأناضول .

وتتدسس فى التاريخ المبكر للعثمانيين روايات أدنى إلى الأساطير منها إلى الحقائق . وعلى الرغم من أن المؤرخين استقوا هذه الروايات من الحوليات العثمانية القديمة، فإنهم لا يزالون على خلاف عميق حول قيمتها التاريخية : منهم من يلقى عليها ظلالاً كثيفة من التشكك فيها .ومنهم من يعتبرها حقائق لاتشوبها شائبة من ارتياب تأسيساً على أنها دونت بمعرفة أناس عاصروا أحداثها .

وتقرر إحدى هذه الروايات أن تلك القبيلة التركية قد أسدت سنة ١٢٣٢، فى أثناء ترحالها فى صحراء الأناضول خدمة جليلة لعلاء الدين الأول (١٢١٩ - ١٢٣٥) سلطان دولة الروم السلاجقة ـ ويطلق عليها أيضاً دولة الأتراك السلاجقة ـ فقد حدث أنها شاهدت جيشين يقتتلان،وأدركت أن أحد الجيشين ليس نداً للجيش الآخر، فانضمت القبيلة إلى جانب الجيش الضعيف الذى كاد يلقى هزيمة محققة . وكان انضمام القبيلة إليها سبباً فى انتصاره . وبعد المعركة كانت مفاجأة سارة للقبيلة التركية حين تبين لها أنها دخلت لنصرة بنى جلدتها،وهم الأتراك السلاجقة الذين كانوا يحاربون فرقة مغولية من جيش الخان أو كطاى ابن جنكيزخان، كان قد عهد إليها استكمال فتح آسيا الصغرى (٢) .

وتقديراً لتدخل القبيلة التركية فى المعركة أقطعها علاء الدين الأول سلطان دولة الأتراك السلاجقة بقعة مترامية من دولته . التى كانت تجتاز دور الاضمحلال .

وتدل هذه القصة على الطابع الحربى الذى اتسم به أفراد القبيلة التركية، فقد خاضوا المعركة لغير مصلحة لهم . وجدير بالذكر أن بعض المؤرخين الألمان يعتبرون هذه القصة من قبيل الأساطير التاريخية، بينما يرى البعض الآخر من المؤرخين الإنجليز أن هذه القصة حقيقية لا مراء فيها،و يضيفون تعليقاً عليها بقولهم إن الدافع الحقيقى الذى دفع السلطان علاء الدين الأول إلى منحهم الأرض أنه لم يرحب فى قرارة نفسه بهذه القبيلة . فقد أثبتت أنها على حظ موفور من الشجاعة والخبرة الحربية والكفاية القتالية،ومن ثم فلم يطمئن إليها، ولذلك لم يرغب فى إدماج هذه القبيلة فى قواته وانتهى تفكيره إلى منحها تلك الأراضى . وبهذا الإجراء يتخلص من هذه القبيلة من ناحية،ويشغلها بالحرب ـ ضد الدولة الرومانية الشرقية ـ الدولة البيزنطية ـ المجاورة لها فى نيقية من ناحية أخرى .

وفى ذات الوقت ظفر رئيس تلك القبيلة التركية واسمه أرطغرل بقلب " أوج بكى" أى محافظ الحدود . وكان منح هذا اللقب أمراً يتمشى مع أحد التقاليد التى درجت عليها الحكومة المركزية فى دولة الأتراك السلاجقة،وهو منح أى رئيس من رؤساء العشائر يعظم أمره، ويلحق به عدد من العشائر الصغيرة لقب محافظ الحدود . وكانت دولة الأتراك السلاجقة تحرص أيضاً حرصاً بالغاً على أن تعين من بين رجالها رئيساً أو عدداً من الرؤساء، يلقب كل منهم لقباً أكثر رفعة هو " أوج أميرى " أى أمير الحدود(٣) .

غير أن أرطغرل رئيس تلك القبيلة التركية كان ذا أطماع سياسية بعيدة، فلم يقتنع بهذه المنطقة التى أقطعها إياه السلطان علاء الدين الأول،ولم يقنع باللقب الذى ظفر به،ولم يقنع بمهمة المحافظة على الحدود، بل شرع يهاجم، باسم السلطان علاء الدين، ممتلكات الدولة الرومانية الشرقية ـ الدول البيزنطية ـ فى الأناضول،ونجح فى سياسة التوسع الإقليمى، فضم إلى المنطقة التى يحكمها مدينة إسكى شهر . وقد مات أرطغرل عن ثلاثة وتسعين عاماً . وكان قد اتخذ سوكود مقراً له ودفن فيها . وخلفه فى حكم المنطقة سنة ١٢٩٩ ابنه عثمان الذى سميت باسمه الأمة والدولة . وسرعان ما تمت هذه الإمارة حتى أصبحت إمبراطورية مترامية الأطراف امتدت أقاليمها وولاياتها فى آسيا وأوروبا وأفريقيا،و غدت من أكبر الدول الإسلامية التى شهدها التاريخ ومن أشدها بأساً وأعزها جنداً (٤).

وعلى عهد الأمير عثمان وفى وقت مبكر تحدد الوضع الدينى والعسكرى والسياسى للاتراك العثمانيين، فقد اعتنق هذا الأمير الدين الإسلامى وتبعه الأتراك العثمانيون . وكانت عقيدتهم الدينية قبل ذلك قبل ذلك غير واضحة تماماً،ويحتمل أنهم كانوا فى حالة تحول من الوثنية أو من عقائد أخرى إلى الإسلام .

هناك رواية مستقاة من الحوليات العثمانية القديمة تشير إلى الملابسات التى أدت إلى اعتناق عثمان الديانة الإسلامية . تقول هذه الرواية أن الأمير عثمان كان يتردد على منزل أحد العلماء المسلمين المتعمقين فى الدراسات الدينية، واسمه الشيخ أده بالى، وتطلق عليه المراجع العربية " أدب عالى "، وكان يقيم هذا العالم فى قرية مجاورة لمدينة إسكى شهر . وفى خلال زياراته كان يلمح ابنة الفقيه واسمها " مال خاتون " فراعه جمالها وطلب يدها من والدها،ولكنه رفض نظراً لما كان هناك من فارق بينه وبين عثمان من الناحية الاجتماعية،ولكن عثمان داوم على زيارة الشيخ لما لمسه فيه من العلم والفضل، أو لأنه كان يجد عزاء وسلوى فى التردد على الدار التى تضم الفتاة التى بلغ حبه لها شغاف قلبه . وكان الشيخ لا يرفض أن يستضيف عثمان كلما نزل فى رحابه،وفى إحدى المرات غفل عثمان فى منزل الفقيه ورأى فى المنام القمر ينبثق هلالاً من صدر هذا الفقيه، ثم نما وكبر فى الحجم حتى اكتمل بدراً، وعندئذ توارى فى ظهره. ثم خرجت من ظهره شجرة ضخمة باسقة وارفة الظلال امتدت أغصانها ذات اليمين وذات اليسار وغطت الفيافى والقفار عبر جبال القوقاز والبلقان وطوروس وأطلس . ومن جذور هذه الشجرة انسابت المياه فى أنهار الدجلة والفرات والنيل والدانوب . ثم هبت فجأة ريح قوية حولت أوراق الشجر إلى نصل سيف باتر، وكان على مقبضه خاتم مرصع بالياقوت والزمرد، وقد أمسك عثمان بهما معاً عندما استيقظ من هذا الإغفاء،ولما قص على مضيفه هذه الرؤيا ـــ وكان عالماً بتأويل الأحلام ـــ بشره بأن أسرة عثمان ستحكم العالم، ووافق على أن يزوجه ابنته . وقام تلميذ للشيخ بعقد قرآن عثمان . وعندما أصبح عثمان أمير قبيلته شيد تكية لهذا أوقف عليها اوقافاً عظيمة من القرى والأرض الزراعية [٥].

وتوجد رواية أخرى سابقة عليها ولكنها قريبة منها ومستقاة أيضاً من الحوليات العثمانية القديمة تقول أن أرطغرل ـ والد عثمان ـ قضى ليلة فى دار أحد الزهاد المسلمين . وقبل أن يأوى إلى فراشه جاء الزاهد بكتاب ووضعه على رف، فسأله عثمان عن هذا الكتاب فأجابه بأنه القرآن الكريم، واستفسر منه عن محتواه، فقال له صاحب الدار إنه كلام الله أنزله للناس على لسان محمد صلوات الله عليه . وحمل أرطغرل الكتاب وأخذ يقرأه واقفاً حتى الصباح، ثم نام فرأى فيما يرى النائم كأن ملاكاً يبشره بأنه وذريته سيعلو قدرهم جيلاً بعد جيل على مدى القرون والأدهار لقاء احترامه القرآن.

ويرى جيزة ـ وهو أحد المؤرخين الألمان المتخصصين فى الدراسات التركية ـ أو ما يطلق عليها التركيات ـ أن هاتين الروايتين محاولتان لدعم مشروعية حكم العثمانيين لسائر القبائل التركية بآسيا الصغرى بتدخل إلهى . وقد حمل المؤرخ التركى المعاصر الأستاذ محمد فؤاد كوبريلى حملة عنيفة على هاتين الروايتين .

ومهما يكن من أمر، فإن صلاتهم الوثيقة بدولة الأتراك السلاجقة فى الأناضول ـ وهى دولة إسلامية ـ كانت عاملاً هاماً ساعد على اعتناقهم الدين الإسلامى فى سرعة وسهولة . وعلى ذلك فقد تحدد الإسلام عقيدة دينية رسمية للاتراك العثمانيين من عهد الأمير عثمان،وسار عثمان فى حكمه على هدى وإيمان عميق وبساطة فى الدين،و كان متحمساً لعقيدته الدينية،وأخضع حكمه لمشورة الفقهاء المسلمين . وكانت العدالة أبرز ما تميز تصرفاته فى عصر كان ينضج بالجور والعنف . وكان للإسلام أثر كبير فى مستقبل العثمانيين لا يقل عن الأثر الذى تركه الإسلام فى عرب شبه الجزيرة العربية قبل العثمانيين بسبعة قرون عندما بعث محمد صلوات الله عليه، فقد هيأ الإسلام للأتراك العثمانيين وحدة العقيدة وعبأهم بشعور دينى دافق جعلهم جد متحمسين للإسلام . واجتمعت إلى هذه العاطفة الدينية المتأججة روح

عسكرية طاغية بحيث غدت سمة بارزة فى الأتراك العثمانيين . وقد استمدوا هذه الروح العسكرية من بيئتهم الأصلية فى سهول آسيا، ثم عمل السلاطين على تعميقها فى نفوسهم، فلازمتهم طوال تاريخهم الحافل عبر القرون والأدهار (٦).

ومن ناحية ثانية أظهر الأمير عثمان مقدرة فائقة على وضع النظم الإدارية لإمارته بحيث قطع العثمانيون على عهده شوطًا بعيدًا على طريق التحول من نظام القبيلة المتجولة إلى نظام الإدارة المستقرة مما ساعدها على توطيد مركزها وتطورها تطورًا سريعًا إلى دولة كبرى وإعدادها للدور الضخم الذي قامت به بعد ذلك . ومن ناحية ثالثة فإن أهم دولتين كانتا في آسيا الصغرى، وهما الدولة البيزنطية ودولة الأتراك السلاجقة، كانتا قد وصلتا إلى حالة إعياء شديد نتيجة الصراع الطويل الذي خاضته كل منهما ضد الأخرى، ونتيجة تعرض الدولة البيزنطية للغزو اللاتيني، ونتيجة تعرض دولة الأتراك السلاجقة للغزو المغولي . فكان في شبه جزيرة الأناضول فراغ سياسي، وكانت الأوضاع السياسية مهيأة لظهور دولة تملأ هذا الفراغ السياسي على أنقاض الدولتين المتداعيتين، ومن ناحية رابعة فإن نشأة الإمارة العثمانية في الشمال الغربي للأناضول على حافة العالم المسيحي ـ وهو ما يسمى دار الحرب ـ وعلى حافة العالم الإسلامي ـ وهو ما يسمى دار الإسلام ـ قد فرضت عليها سياسة حربية معينة، ذلك أن هذه الإمارة كانت على الحدود . والثابت في تاريخ الأناضول أن الإمارات التي نشأت على الحدود كانت أوفر نسبيًا في عوامل النمو والتطور من إمارات الداخل، وأنه لم يكن في استطاعة هذه الإمارات الداخلية أن تتطور وتتمو بنفس السرعة التي تطورت ونمت بها إمارات الحدود. واستطاع الأمير عثمان أن يحرز انتصارات عسكرية على البيزنطيين، وقد أبدى علاء الدين كيقباذ الثالث سلطان دولة الأتراك السلاجقة تقديرة العميق لخدمات عثمان

فمنحه لقب "عثمان غازي ناري مرزبان عاليجاه عثمان شاة " أي " حضره عثمان الغازي، حارس الحدود، العالي الجاه، عثمان شاه"(٧).

وكان من حظ عثمان أن أغار المغول سنة ١٣٠٠ على دولة الروم السلاجقة في آسيا الصغرى، وحدث ما كان متوقعًا إذ زالت دولة الأتراك السلاجقة وتوفى السلطان علاء الدين كيقباذ الثالث سنة ١٣٠٧، وأعلن عثمان استقلاله مقتديًا بغيره من الأمراء الذين بلغ عددهم ثلاثة عشر أميرًا أسس كل منهم حكومة مستقلة على أنقاض دولة الروم السلاجقة أو الأتراك السلاجقة. وأبدى عثمان اهتمامًا عميقًا بدعم الجيش وتنظيم الحكومة، وتمتع بشهرة عريضة بين معاصريه من الأمراء واعتبر عثمان المؤسس الأول للدولة العثمانية . وقد نسبت الدولة والأمة إليه فسميتا باسمه، ويقال إنه اتخذ لنفسه لقب سلطان، بينما يرى البعض أن ابنه أورخان كان أول من تلقب بهذا اللقب (٨).

وأيقن عثمان أن عشيرته التركية بتعدادها القليل لن تستطيع بمفردها تأسيس الدولة التي يتطلع إلى تكوينها ممتدة الأطراف مهيبة الجانب . فرسم سياسته على أساس مصاهرة الدول أو الكيانات السياسية المجاورة أو المتاخمة، واستقدام الرقيق بمختلف الوسائل من شتى البلدان، واستخدام المغامرين الذين تستهويهم الشهرة والمغانم الكثيرة في ميادين القتال، فاختار عثمان لنفسه زوجة مسيحية من قيلقيا، ورشح سيدة يونانية مسيحية رائعة الجمال زوجة لابنه أورخان . وهكذا نرى أن اقتران السلاطين بالأجنبيات رافق نشوء الإمارة ثم السلطنة .

وقد حمل بعض الباحثين على زواج سلاطين الدولة العثمانية من الأجنبيات، واعتبروا هذه الزيجات من أسباب اضمحلال الدولة العثمانية وضعفها. والواقع أن الزوجة الأجنبية لم تنس قط وطنها الأصلي أيًا كان :

الروسيا أو جمهورية البندقية أو غيرهما، ولم تنس قوميتها السابقة، فاستغلت وضعها في القصر السلطاني بصفتها باش قادين، أو كـازكي، أو كـازكي قادين، واهتمت اهتمامًا عميقًا بخدمة مصلحة وطنها الأصلي علـى حساب مصلحة الدولة العثمانية(٩).

اتخذ عثمان من ميخائيل ذى اللحية المفرجنة ـ وهو بيزنطى مرتد عن المسيحية ـ نائباً له فى ميادين الحرب . ومضى عثمان يوسع رقعة بلاده . وكان مسرح نشاطه الحربى مقصوراً على مقاطعة بثينيا إذ أغرته أطرافهـا الخالية من وسائل الدفاع الإمبراطوري على شن الإغارات الخاطفـة علـى أراضى الدولة البيزنطية . وقد قام بهذه العمليات الحربية بصفته أميراً فـى خدمة السلطان السلجوقى المسلم علاء الدين كيقباذ الثالث، ثم بصفته ـ بعـد سنة ١٣٠٧ م ـ أميراً مستقلاً بهذه الإمارة عام الاستقلال ثم سلطاناً عليهـا، وعلى هذا النحو مضى عثمان يوسع رقعة بلاده . وفى سـنة ١٣٠٨ وبعـد وفاة السلطان علاء الـدين الثالـث اسـتولى عثمـان علـى قلعـة عـك حصار،وباستيلائه عليها أطل العثمانيون على البوسفور، لأن هذه القلعة كانت آخر حاجز أمام زحف العثمانيين فى شبه الجزيرة الضيقة التى تمتـد بـين نيقوميديا والبحر الأسود والتى تكون الركن الشمالى الغربى من شبه جزيرة الأناضول . وفى نفس السنة سيطر العثمانيون على الطريق المائى الموصل بين القسطنطينية وبروسة بعد أن استولوا على جزيرة كالوليمنى التى تقع فى بحر مرمرة على مقربة من خليج مودانيا . وسقطت فى أيـدى العثمـانيين أيضاً قلعة تريكوكا ويطلق عليها العثمانيون هودج حصار،وكانت هذه القلعة تشرف على المواصلات بين نيقيا ونيقوميديا (١٠).

وسمع عثمان وهو على فراش الموت سنة ١٣٢٦ بفتح مدينة بروسـة وكان ابنه أورخان على رأس القوات التى زحفت عليها، وأوصى عثمان بان تنقل رفاته إلى بروسة فـى كنيسـة القصـر التـى حولـت فـوراً إلـى

مسجد،وأصبحت بروسة عاصمة جديدة للأتـراك العثمـانيين فـى سلسـلة العواصم التى انتقلوا إليها عبر تاريخهم . وشيد السلاطين العثمانيون الأوائل فى هذه المدينة عدداً من المساجد الرائعة، منها على سـبيل المثـال ثلاثـة مساجد، هى : يشيل جامع، أولو جامع، بيلدرم .

نخلص من هذا كله إلى أن التحركات الحربية التى قام بها العثمانيون فى هذه المرحلة الأولى من تاريخهم كانت نتاج عدة عوامل، هى : الروح الدينية الجياشة، والطبيعة العسكرية الصارمة،والموقع الجغرافى لإمارتهم،والأوضاع السياسية فى المنطقة المحيطة بهم . وكانت هذه التحركات الحربيـة بدايـة لسياسة حربية نشيطة حرصوا على الالتزام بها،وانفسحوا فى بقـاع آسـيا وأوروبا وأفريقيا غزاة فاتحين (١١).

ولقد كانت هذه التحركات التى قام بها العثمانين فى هذه المرحلة المبكرة من تاريخهم بداية لسياسة حربية نشيطة حرصوا على الالتزام بها، فقـاموا بالتوسع فى آسيا وأوروبا وأفريقيا . وقد قام أورخان بن عثمـان(١٣٣٦ – ١٣٦٠) ببعض العمليات العسكرية الهامة مما أدى إلى الاستيلاء على إزنك الحالية (نيقية) فى عام ١٣٣٠ ــ وهى من أمهات المدن فى الإمبراطورية البيزنطية،وامتصاص كل ما تبقى من الأناضول البيزنطى تقريباً . ومن هذا المركز القوى، عبر العثمانيون المضايق إلى أوروبا، كحلفـاء لكانتـاكوزين Cantacuzene أحد المطالبين بالعرش البيزنطى فى أول الأمر . واستطاع كانتاكوزين أن ينتصر على خصمه ويحصل علـى عـرش الإمبراطوريـة بفضل مساعدة العثمانيين . ولكن حلفاء الأمس انقلبوا إلى خصـوم ألـداء، فرفض العثمانيون العودة من أوروبا إلى آسيا الصغرى . وأصـبحت شـبه جزيرة غاليبولى قاعدة لزحف جديد إلى جنوب شرقى أوروبا، أو روميليـا (روم ــ إيلى)، كما كانت تسمى فى ذلك الوقت . وكان أعـداء العثمـانيين الرئيسيون هم الصرب والبلغار وليسوا البيزنطيين الذين فقدوا فى هذا الوقت

كل شئ تقريباً ما عدا اسم الإمبراطورية، ولم يسيطروا إلا على عاصمتهم العظيمة(١٢).

وعندما خلف مراد الأول (١٣٦٠ ــ ١٣٨٩) أباه أورخان على العرش، قام بمهاجمة أملاك الدولة البيزنطية فى أوروبا، ففى عام ١٣٦٠ استولى على مدينة إدرنة، وهى ثانى مدينة فى الإمبراطورية بعد القسطنطينية . كما غزا مراد مناطق أخرى طوقت القسطنطينية من الشمال، ولكنه واجه بالتالى تحالفاً أوروبياً صليبياً مكوناً من الصرب وبلغاريا . وزحف مراد بقوته الرهيبة لملاقاة لازار Lazare ملك الضرب على أساس أنه رأس التحالف البلقانى، وانتصر مراد على خصمه على أرض كوسوفو (أى ميدان الطيور السوداء) فى يونيه عام ١٣٨٩ بعد أن حل الدمار بقوة الصرب التى فقدت استقلالها حتى القرن التاسع عشر . وقد تمكنت القوات العثمانية من إحراز هذا النصر على الرغم من أن مراد نفسه قتل خلال المعركة،ولكن ذلك لم يؤد إلى وقف الزحف العثمانى الذى استمر فى عهد بايزيد بن مراد . وقد قوبل هذا التهديد الجديد للمسيحية بحملة دولية صليبية، كانت تعتبر من أكبر التكتلات الصليبية التى واجهها العثمانيون فى القرن الرابع عشر . وتقدمت الحملة وسط أوروبا ولكنها لقيت نهايتها عند مدينة نيكوبوليس على نهر الدانوب فى سبتمبر عام ١٣٩٦ . ويطلق المؤرخون على هذه المعركة اسم معركة نيكوبوليس، بينما يسميها المؤرخون العرب صليبية نيكوبوليس . وكان من أهم نتائج هذه الموقعة توطيد أقدام العثمانيين فى البلقان (١٣).

وهكذا بدأ المنتصر فى نيكوبوليس وهو السلطان بايزيد الأول [(١٣٨٩ ـ ١٤٠٢) ــ الذى سماه الاتراك يلدرم أى الصاعقة ــ بدأ عصره ببعض التوسعات الحربية الهامة . فإلى جانب الفتوحات التى تمت فى روم إيلى، أخذ الحكام العثمانيون يوسعون ممتلكاتهم فى الأناضول بالتدريج على حساب

الإمارات السلجوقية التركية الاخرى . ففى عام ١٣٥٤ استولى أورخان على أنقرة، عاصمة جمهورية تركيا الآن . وقد أضاف مراد إلى أراضيه ممتلكات أخرى عن طريق الحرب والمصاهرة وشراء الأراضى . وببداية القرن الخامس عشر،وقع كل الأناضول تقريباً فى أيدى العثمانيين بما فى ذلك إمارة قره مان الكبرى التى اعتبرت نفسها ـ بعاصمتها فى قونية ـ وريثة سلاجقة الروم . ورغماً عن أن الإمارة العثمانية كانت لا تزال تمارس مسألة الجهاد فإنها قامت ببعض الوسعات الإقليمية التى أدت إلى قيام الإمبراطورية . وفى سبيل تحقيق ذلك استباح العثمانيون لأنفسهم مقاتلة إخوانهم فى الدين (الأتراك السلاجقة) والاستعانة على محاربتهم بعناصر مسيحية . فالفتوحات التى قام بها مراد الأول وبايزيد الأول لم تتم كنتيجة لنشاط المجاهدين الأتراك، بقدر ما تمت بوساطة سياسية امبريالية قام بتنفيذها جهاز حرب عالى التنظيم . وبذلك تحول الأساس العسكرى الذى قامت على أكتافه الإمارة العثمانية من المحاربين المسلمين الأحرار إلى قوات من العبيد أدخلت فى الإسلام، وجمعت فى البداية من أسرى الحرب فى حملات البلقان، ومن ثم حصلت فرقة المشاة من الانكشارية،و هى إحدى قوات العبيد ـ على شهرتها العظيمة (١٤).

وعلى كل حال، فقد توقف تطور الإمارة العثمانية التدريجى من إمارة حدود إلى إمبراطورية عالمية عند هذه المرحلة، إذ عاصر عهد بايزيد يلدرم تلك الفترة التى كان يبنى فيها تيمورلنك إمبراطوريته فى وسط وغرب آسيا، وكان تيمورلنك لا يحتمل وجود ملكية عسكرية قوية من العثمانيين على حدوده الغربية . ولما فشل تيمورلينك فى إرغام بايزيد على الاستسلام له، هاجمه وقام بتخريب سورية أولاً ليمنع أى تدخل من جانب سلطنة المماليك. ولما كان بايزيد منهمكاً فى تجهيز خططه للاستيلاء على القسطنطينية، فإنه سمح لتيمور بالتقدم حتى انقره قبل أن يشتبك معه فى القتال . وكانت الحرب

التى تلت ذلك مدمرة بالنسبة للعثمانيين . إذ لجأ كثير من قواتهم إلى العدو، بينما وقع بايزيد نفسه فى الأسر ولم يلبث أن انتحر . وأعاد تيمورلنك إمارات الأناضول القديمة إلى ما كانت عليه ثم انسحب بعد أن شعر بانه قد انقذ إمبراطوريته من التهديد العثمانى، ليس بتأسيس حاجز من إمارات الحدود فى الأناضول فحسب، بل بالقضاء على زعيم الأسرة أيضاً،و خاصة منذ أن بدأ بالصراع بين أولاد بايزيد على بقية الإمارة العثمانية . وكان من نتائج هذا الهجوم أن تأخر فتح القسطنطينية خمسين سنة .

وفى الحقيقة، لا يمكن أن يكون هناك تناقض أكبر من التناقض الذى نلمسه بين التصدع السريع فى إمبراطورية تيمور بعد وفاته فى عام ١٤٠٥ وذلك التماسك الذى استطاعت به الصفوة العثمانية الحاكمة من أن تحافظ على نفسها وتجمع شمل الإمارة . فلقد تبع معركة أنقره وانسحاب تيمور عائداً إلى سمرقند صراع دام عشر سوات (١٤٠٣ ــ ١٤١٣) بين أبناء السلطان على العرش، وقد انتهى هذا الصراع فى أخر الأمر باعتلاء السلطان محمد الأول (١٤١٣ ــ ١٤٢١) الذى أصبح الحاكم الأوحد المعترف به . لم تكن له فتوحات حربية، ولكنه أسدى إلى الدولة خدمة جليلة، إذ أزال آثار هزيمة معركة أنقرة،وعمل على تنظيم الإمارة بحيث مهد الطريق أمام خلفائه السلاطين ليتابعوا سياسة التوسع الإقليمى من جديد . فاتخذت أراضى الروم إيلى كقاعدة حصينة يمكن القيام منها بعملية إعادة بناء الإمارة،و حلت إدرنه بالذات محل بروسه كعاصمة [١٥].

وتولى بعد ذلك مراد الثانى (١٤٢١ ــ ١٤٥١)، وعرف عنه أنه حكيماً وأديباً،وكان بوسعه التخلص من المصاعب بلباقة وكما كان بوسعه كسب الحب والاحترام، خاصة من جانب الإنكشارية . وكذلك من جانب المعادين له، فهل من المحتمل أنه حين أراد التنازل عن العرش لابنه، كان قد فقد الرغبة فى السلطة ؟ لقد مارسها على أية حال متجنباً الصدامات وأثبت

على مدار ثلاثين سنة أنه رجل المواقف، واستطاع توحيد الأراضي والمحافظة عليها ؛ إذ سعت الدولة في عهده إلى حل المشاكل المعلقة منذ أيام محمد جلبي في الأناضول . وكانت سلطنته بمثابة البعث الجديد للدولة العثمانية .وواجهته عدة صعاب اعتراف منها الجيش في روملي بسلطنة السلطان مصطفى إلى أدرنة وجلس على العرش في ٣٠ أغسطس عام ١٤٢١ .ولم يبق أمامه إلا أن يحتل الأناضول وينحى ابن أخيه . اجتاز بوغاز جنا قلعة من غاليبولي وصعد إلى البر من لا تسكي في ٢٠ يناير ١٤٢٢ . وسار نحو بروسه حيث السلطان مراد، وتقابل الجيشان في ساحل نهر أولوباد، ولم تكن لدى الطرفين رغبة في القتال، وبعد حوار ونقاش، رجحت كفة الطرف الذي يساند مراد، عندئذ هرب مصطفى إلى غاليبولي، ومنها إلى أدرنة، طارده ابن أخيه، وقبض عليه في شمال أدرنة بدعوى أنه منتحل للشخصية الحقيقية لمصطفى (١٦).

وبعد أن انتهى مراد الثاني من هذه الفتنة أراد أن ينتقم من محركها الأمبراطور البيزنطي مانويل الثاني ..فقام بمحاصرة القسطنينية في ٢٤ أغسطس ١٤٢٢ . وتشديد الحصار حولها، وأمام هذا الخطر الذي لا قبل لمانويل به فكر في إثناء السلطان أو وزيره إبراهيم باشا عن عزمه بالإغراءات،ولكن مساعيه باءت بالفشل . ففكر في حيلة أخرى يجبر بها خصمه على فك الحصار، وهي أنه حرض الاخ الأصغر للسلطان ويدعى مصطفى جلبي . فاضطر السلطان لفك الحصار عن القسطنطينية بعد أن استمر شهرين تقريباً، وتوجه بسرعة لإخماد الفتنة، التي اتسع نطاقها بانضمام بعض أمراء الأناضول إليها،وتمكن من القبض على أخيه وقتله،وعقد الصلح مع البيزنط شرط دفعهم ٣٠٠٠٠٠ أقجة سنوية، وحاصر بعد ذلك سالانيك عام ١٤٢٣، لكنه لم يتمكن من أخذها، بعد أن وافق البيزنط على دفع ١٠٠٠٠٠ أقجة سنوية في السنة، ثم وجه حملته بعد ذلك إلى

الأناضول على الإمارات التى تمردت أثناء انشغاله مع البيزنط،وتوجه إلـــى إمارة جاندار وقلص حدودها، لكنه ترك جاندار أوغلــو اســفندرياربك فـــى منصبه لاعتبارات خاصة، فقد كان اسفندياريك من بنى عثمان من جهة الأم، وزوج ابنته من مراد الثانى، كما تزوج ابنا اسنفديار أوغلوا باختى الباديشاه. ومن ناحية أخرى كـــان البيزنطيـــون وإمـــارة الصـــرب وإمـــارة الـــروم الاستبداديتين فى جزيرة المورة وإمارة الأفلاق قد استغلوا الفوضى فى الرد على محققى بعض التقدم واستعادوا قسماً من الأراضى التى فقدوها . وكـــان العثمانيون مضطرين للتصرف بحذر من حين لآخر، خوفاً من ظهور تحالف صليبى جديد ضدهم، فلما استولى على سلانيك عام ١٤٣٠، وعقدوا معاهدة مع البندقية حركوا سياسة الفتح،وكان هدفهم المجر، لاسيما وأن موت ملكها سجسموند ١٤٣٧ قد دفعهم لذلك . فانتعشت من جديد غـــارات المجاهـــدين، حتى استطاعوا تحطيم نفوذ المجر على صربيا والأفلاق، كما وجهت ضربة إلى إمارة الصرب عام ١٤٣٩،وحوصرت بلغراد مفتاح وسط أوروبا، غير أن الهزيمة التى تعرض لها العثمانيون هناك عام ١٤٤٠ زعزعزت موقفهم فى البلقان حتى وجدوا أنفسهم فى حرب دفاعية ضد الغارات المباغتة التـــى يقوم بها المجريون (١٧).

وفى المجر تنظم المقاومة نفسها بقيادة هونيادى، وشن غارات ونجح فى ذلك ضد العثمانيين،وفى بداية عام ١٤٤٢ أرسلت حملة إلى المجر بـــأوامر من مزيد باشا وبعد نجاحات أولى يتعرض الاتراك للهزيمة . وعندئذ يكلـــف مراد شهاب الدين باشا الذى عمل قائداً للجيش للثأر لمقتل مزيد باشا، ولكـــن الجيش العثمانى يهزم للمرة الثانية نتيجة لتشجيع البابا يوجين الرابع وجورج برانكوفيتش الذى جرده مراد من إمارته الاستبدادية،وانضم إليهم لادســـلاس ملك بولندا والمجر،ويكلف هونيادى بتنظيم ما ســـمى " بالحملـــة الطويلـــة " (١٤٤٣ – ١٤٤٤) . والتقت بالقوات العثمانية التى كان الســـلطان يقودهـــا

بنفسه عند نهر إيزلادى . وانهزمت القوات العثمانية للمرة الثانية، ثم للمرة الثالثة عند بالوج . فانسحب السلطان إلى أدرنة،وطلب الصلح فقبله لادسلاس فى ١٢ يونيو ١٤٤٤ . ثم تنازل بعدها عن الحكم لابنه محمد متأثراً بكثرة هزائمه . ولكن كبار رجال الدولة أقنعوه بالعودة لصغر سن ابنه البالغ اثنتى عشرة سنة ولقلة تجاربه وإحاطة الدولة بالأخطار الصليبية .

لم يمض على معاهدة أدرنة أكثر من ستة أشهر حتى نقضها الصليبيون وقامت الحرب بين القوتين عند وارنة فى ١٠ نوفمبر ١٤٤٤ . وقد تمكن السلطان بصعوبة بالغة من التصدى لهذه القوات،وسقط فى المعركة لادسلاس والكاردينال جسارينى، فخارت قوى الصليبيين،وتمكن مراد من إلحاق الهزيمة بهم . وتعتبر هذه المعركة آخر المحاولات الصليبية لإنقاذ القسطنطينية . وعندما استتبت الأمور ترك السلطان العرش لابنه ثانية،ولكن كبار رجال الدولة أثاروا عليه عساكر الإنكشارية فعاد السلطان للعرش مرة أخرى فى عام ١٤٤٥،ولكنه تخلى مرة أخرى عن العرش بعد ١١ شهر فى ١٤٤٥ . ثم قبل مضى ٥ أشهر وبإصرار من رجال الدولة اعتلى العرش للمرة الثالثة فى ٥ مايو ١٤٤٦ . وفى غضون هذه المدة اعتلى ابنه محمد العرش وتخلى عنه مرتين (١٨) .

وكان مراد الثانى قد قام بحمتله الأولى على مورا فى ١٤٣٩ـ ١٤٤٠، وقام بحملته الثانية عليها فى ١٤٤٦ ـ ١٤٤٧ وحاصر قلعة كورينشوس واستولى عليها، ودخل شبه الجزيرة واحتل باتراس . واصطحب فى ربيع عام ١٤٤٧ ابنه محمد الثانى البالغ عمره خمس عشرة سنة وخرج فى حملة إلى ألبانيا،وكان السبب فى قيام هذه الحملة عصيان إسكندر بك فى ألبانيا بمساندة الدول الأوروبية وخاصة ملك نابولى (إسكندر بك هو أحد الامراء الألبان، ارتد عن الدين الإسلامى وتنصر) . كانت الحملة الأولى لمراد الثانى على ألبانيا فى عام ١٤٢٣ . وبعد فارنا بأربع سنوات أراد

هونيادى تجربة حظه، فجهز الحملة الصليبية السادسة ضد العثمانيين، اتحدت فى هذه الحملة ــ المجر، ألمانيا، بولونيا، صقلية، نابولى، البابوية ومولدافيا. وتقابل الجيشان فى كوسوفا وانتصر مراد الثانى وهــرب هونيــادى،وتحول الصليبيون من موقف المهاجم إلى موقف المدافع . وتوقفت أوروبا بعد واقعة كوسوفا لعصور طويلة عن التفكير فى إخراج العثمانيين من جنوب الطونة . وفى صيف ١٤٤٩، استصحب السلطان مراد الثانى ابنه محمد الثانى الــذى تجاوز السبعة عشر عاماً وسار مرة أخرى على ألبانيا،لكنه لم يــتمكن مــن العثور على إسكندر بك،و زوج مراد بك الثانى ابنه محمد الثانى بابنة دلقادر أوغلو مكرمة خاتون فى أذرنة فى ١٥ ديسمبر عام ١٤٤٩،ووضع ابنه على عرش صاروخان (مانيسا) التى يتقلد ولايتها (سنجق بك)، وكــان هــذا لقاءه الاخير مع ابنه الذى أحبه كثيراً .

وفى ٣ فبراير ١٤٥١ توفى مراد الثانى فى سراى أدرنة بعد مرض دام أربعة أيام، ونقل جثمانه إلى بورصة ودفن فى قبره المفتوح . كــان مــراد عالماً شاعراً موسيقياً . حمى الفن والعلم بكل ما فى الكلمــة مــن معنــى، وأصبح المبشر بالنهضة العثمانية (١٩).

السلطان محمد الثانى (١٤٥١ ــ ١٤٨١)، هو ابن الســلطان مــراد، وحال جلوسه وضع نصب عينيه تنفيذ وصية والده القاضــية عليــه بفــتح القسطنطينية، فشرع فى بناء القلاع على شاطئ بوغاز القسطنطينية وإعــداد جميع ما يلزم من مهمات الحرب، ولما بلغ ملك القسطنطينية ذلك هاله الأمر، وبعث رسله على الفور إلى السلطان محمد خان يستجلى منه حقيقة نوايــاه، ولما لم يكترث السلطان به أو يلتفت إلى رسله طلــب الإمــداد مــن دول الإفرنج، ووعدهم مكافأة لهم بضم الكنيسة الرومية إلى الكنيسة الرومانيــة، فأرسل البابا وملك نابولى ومشيخة جينوا عدداً عظيماً من الجنود لينضــموا إلى عساكره فى ساحات القتال، غير أن اليونان لما عرفوا بأن مساعدة دول

الإفرنج لهم مبنية على ضم كنيستهم إلى الكنيسة الرومانية استاؤوا كثيـراً، وكمنوا البغضة فى قلوبهم لملكهم قسطنطين دراغاريس ابن الملك عمانويل، لأنه سيكون السبب بضم الكنيستين،وكانوا يزعمون أن الله سـوف يخـرب القسطنطينية حتى يصيرها قاعاً صفصفاً،و أن المدافعة عنها تعد منهم مـن باب الكفر والإلحاد،و كان أحد وزرائهم المدعو نوتاراس ينادى فى شـوارع المدينة قائلاً : أود من سويداء القلب أن أشاهد فى القسطنطينية تاج السلطان محمد من أن أرى بها إكليل باباً وقلنسوة كردينال،وبناء عليه، تألف اليونـان قلباً وقالباً واتحدوا على إخلاء المدينة، فخلوها،ولم يبق فيها من يدافع عنهـا إلا جنود الإفرنج . وفى أول شهر إبريل لعام ١٤٥٣ زحف السلطان محمـد إلى القسنطينية بجيش كثيف يبلغ مئة وخمسين ألفاً،وسير عدة مراكب حربية إلى أمام البوغاز، لكنها لم تتمكن من الدخول فيه لوجـود سلسـلة حديديـة منيعة، فبسط ألواحاً ودهنها بالشحم، ثم وضعها فوق السلسلة،وسحب ثمانين مركباً فى ليلة واحدة مسافة ميلين، ولما نظرها أهالى المدينة فى اليوم التالى تولاهم العجب من دخول تلك المراكب إلى الميناء،وقد تقدم القبطان ليحرقها فأطلقت عليه كله أصابت مركبه فأغرقته بجميع من فيه، وحينئذ أمر السلطان محمد ببناء جسر من البراميل تضم إلى بعضها بشناكل من حديد،ويوضـع فوقها ألواح مسمرة حتى يشدد بواسطته الحصار على المدينة،وبعد حصـار خمسين يوماً وهدم أربعة أبراج وتخريب سور مار رومانس ؛أرسل السلطان لملك القسطنطينية يقول : إن سلم يسلم . فلم يقبل بـذلك، فـأمر السـلطان بالهجوم دفعة واحدة على المدينة من البر والبحر فى اليوم التاسع والعشرين من شهر مايو . بيد أن الملك قسطنطين جمع جنوده فى عشية ذلـك اليـوم وأخذ يخاطبهم بكلام محزن متأسفاً على انقراض الدولة الروميـة،و صـار يحرضهم ويحثهم على الكفاح والقتال بعبارات محزنة يرق لها الجماد،وبعـد حديث طويل أخذوا بالبكاء والعويل،وطفق يقبل بعضهم بعضاً قبلات الوداع،

ثم ذهبوا نحو الأسوار، وذهب الملك إلى كنيسة أيا صوفيا يزورها حتى يكون مستعداً للموت [٢٠].

أما جنود السلطان محمد خان فقد أوقدوا الأنوار في تلك الليلة المعهودة،و ضجوا بالتهليل والتكبير، وقبل أن يبادروا إلى الهجوم بلغهم حضور نجدة من المجر وإيطاليا فتوقفوا،وبعد ذلك بيومين استأنفوا التضييق على المدينة، فدخلها منهم نحو خمسين نفراً من أحد الأبواب، ثم اقتفاهم بعض الجنود، فانكسر من أمامهم الأهلون،وأغلق الحراس الأبواب،وألقوا مفاتيحها في البحر، أما الملك قسطنطين الذى كان يحارب على السور بنفسه، فلما شاهد شمل عساكره تمزق، غاب عن رشده وصوابه،وعندما يئس من الفوز تجرد من أسلحته المذهبة خوفاً من الأسر، واخترق صفوف الإنكشارية فقتلوه،وبموته لم تقم للأروام قائمة، ولم تصدر عنهم مقاومة،ومن ذلك الوقت أصبحت المدينة عرضة للنهب والسلب والحريق،ولما دخلها السلطان محمد أمر بقطع رأس الملك قسطنطين، فقطعوه،وطافوا به في جميع بلاده، ثم أمر بقتل أولاد الملك ما عدا صغيرهم مع قتل كثيرين من أمراء المدينة وأشرافها،وبعد ثلاثة أيام من ذلك العهد دقت طبول الاجتماع، فردعت الجنود عن السلب والنهب، ومنحت الأهالى الأمان على أرزاقهم وأعناقهم،وسمح لهم ببعض الكنائس، ثم ولى السلطان على الأروام بطريركا، وقلده بنفسه عصا البطريركية وختمها،وكان ذلك في اليوم التاسع والعشرين من شهر مايو سنة ١٤٥٣[٢١].

ويظهر من حصانة القسطنطينية مدى الجهد العظيم الذى بذله محمد الفاتح أثناء محاصرتها فقد كانت مناعة أسوار استانبول تأتي في المرتبة الأولى في العالم، فقد كان إرتفاع الشرفات ١٧م وما بين الشرفات ١٥متراً، ويبلغ السمك في الذروة ٤م وفي القاعدة أكثر بكثير، وكان عرض الخندق الموجد أمام الأسوار ١٨.٥ متر وعمقه ٩أمتار وكان مليئاً بالماء، وكان

للأسوار المكونة من طوابق عديدة ٣٠ برجاً مكسياً بالرصاص. وكان المعروف أن المدينة لا يمكن إسقاطها إلا بحصار محكم يتمكن من إجاعتها لمدة ست سنوات، ومن البديهى أن الدول الأوروبية سوف تأتى خلال هذه المدة، ومن ثم فإنه سوف يتعذر عملياً إستمرار الحصار[٢٢].

وقد قال الإنجليز : إن مدينة القسطنطينية قد حوصرت تسعاً وعشرين مرة من بنائها من الملك قسطنطين الأكبر إلى عهد إفتتاحها من السلطان محمد الفاتح الذى ضمّها إلى سلطته؛ وأعلم بذلك سلطان مصر وشريف مكة وشاه العجم، ثم زحف على الصرب فنكبها نكبة عظيمة، وعاد إلى القسطنطينية، وشرع فى بناء جامع الشيخ أيوب شمس الدين، ولما أتمّ بناءه أقام فيه الصلوات، فقلده شيخ الإسلام سيفاً بيده، ومن ذلك الوقت جرت العادة أن السلطان الذى يجلس على تخت الملك يذهب إلى ذاك الجامع ويتقلد بالسيف، وفى ذاك الجامع صخرة كبيرة فوقها بيرق ملفوف بغشاء أخضر رمزاً عن وظيفة أيوب عند الرسول (ص) .

وبعد فتوحات عديدة حاصر قلعة بلغراد بمئة وخمسين ألف مقاتل وثلاث مئة مدفع، ففقد من عساكره عدداً عظيماً وجملة مدافع، وإنجرح فى فخذه، فرجع عنها وذهب إلى أدرنه. وبعد أخذ القسطنطينية بسبع سنين فتح مدينة أثينا عاصمة بلاد اليونان، وفى سنة ١٤٦١م فتح إيالة طرابزون، وولاية سينوب، على جزيرة نسيوسه، وإقليم بوسنه، ثم جهّز عمارة بحرية بمئة ألف مقاتل لفتح جزيرة رودس، فحاصرها ثلاثة أشهر، ثم ظعن عنها، وأخذ فى إعداد تجريدتين، الأولى لفتح جزيرة قبرص، والثانية لمحاربة شاه العجم، وبينما هو كذلك إعتراه مرض عضال، فمات فى مدينة أزنكميد فى جمادى الأولى سنة ٨٨٦هـ، ودفن بجوار جامعة الشريف فى ضريح مخصوص.

كانت مدة ملكه ٣١ سنة، وعاش ثلاثة وخمسين سنة، وفى مدة مُلكه إفتتح مملكتين، و١٢ ولاية، وإستولى على أكثر من مئتى مدينة، وبنى عدة جوامع ومدارس، وكان يعتبر العلماء، ويحب رجال الأدب، وهو طويل القامة ضخم الوجه كثيف اللحية، أشقرها، وقد أعقب ولدين، يسمى أكبرهما بايزيد، والآخر جم[٢٣].

أما بايزيد الثانى (١٤٨١ – ١٥١٢) فلم يتحل بايزيد الثانى – ابن الفاتح – بهمة والده أو بطموحه، وإن يكن قد إدعى أنه ((أشرف السلاطين)). وقد ذهب أحد جامعى التواريخ فى عهده إلى أن أى حاكم مسلم آخر، بإستثناء الرسول ذاته الخلفاء الأربعة، لم يقم بأعمال تفوق فى أهميتها ما أنجزه آل عثمان . والسبب فى ذلك هو أن العثمانيين قد اشتبكوا فى قتال مع مماليك مصر حكام سوريا بسبب جنوبى الأناضول، مما جعلهم يسعون إلى أن يبدوا أعلى مقاماً من خصومهم فى كل مجال . فقد شن سلاطين المماليك الحرب على الأتراك فى آسيا لمدة خمس سنوات فى الوقت الذى نشبت فيه الثورة فى قرمان ومناطق أخرى ازدادت فيها أعداد أنصار المذهب الشيعى ــ الذى اعتنقه متصوفة إيران ــ وشهدت تمرد الأمراء الساخطين من أحفاد السلاجقة.

وسبب الصراع المملوكى العثمانى هو تجاوز الدولتين منذ أن ضم محمد الفاتح إمارة ذى القادر الواقعة فى كيليكيا (وكانت تضم مدينتى مرعش وإلبستان) وحين حاول المماليك إزاحة علاء الدولة حاكم ذى القادر رغبة منهم فى تولى أمير موال لهم، ساند حاكم قيسرية العثمانى علاء الدولة وغزا الأراضى المملوكية، مما أدى إلى نشوب أول حرب مملوكية ــ عثمانية (٤٨٥ ــ ٩١) لم تتعد كونهاسلسلة من المناوشات التى انتصر فيها المماليك فى البداية وإن لم يتمكنوا من مواصلة انتصاراتهم بسبب مشاكلهم الاقتصادية والسياسية . وفى النهاية عقد الصلح وعادت الحدود إلى ما كانت

عليه في السابق . وساد السلام بين الطرفين (١٤٩١ ــ ١٥١٦) برغم أن مصادر النزاع القديمة ظلت تعكر علاقاتهما إلى أن قضى سليم الأول على دولة المماليك [٢٤].

ورغم استيلاء العثمانيين على ليانو ومودون فى بلاد اليونان (١٥٠٠) وبناء قلعتين بهدف السيطرة على خليج بتراس، فإنهم فقدوا أوترانتو ــ فقد اسمرت الحرب بين الدولة العثمانية وبين البندقية وكان النصر خلالها حليف العثمانيين الذين ظهرت دولتهم بمظهر الدولة البحرية الكبرى فى البحر المتوسط . وكانت المواقع التى جرى احتلالها من البندقية تشكل مراكز تساعد على مزيد من التقدم ليس فقط فى شرقى البحر المتوسط . وكانت المواقع التى جرى احتلالها من البندقية تشكل مراكز تساعد على مزيد من التقدم ليس فقط فى شرقى البحر المتوسط، بل أيضاً فى حوضه الغربى . ويتضح من الصلح الذى تم التوصل إليه بين الطرفين فى عام ١٥٠٣ أن العثمانيين بدأوا يهتمون بغربى البحر المتوسط . فمنذ عام ١٤٨٢ كان حكام غرناطة المسلمون قد طلبوا مساعدة دولة " الغزاة " الوحيدة ضد أراجونه وقشتاله . وقد قنع بايزيد ــ الذى كان غير واثق تماماً من قوته البحرية ــ بإبداء اهتمامه وعطفه، تاركاً للمسلمين فى شمالى إفريقيا أن يقدموا المساعدة الفعلية . وحين سقطت غرناطة فى عام ١٤٩٢، وبدأت الدول الإسلامية فى شمالى إفريقيا تواجه احتمالات الغزو المسيحى تزايد الضغط على العثمانيين طلباً لمزيد من المساعدة،وإن تكن مشاكل بايزيد الشرقية قد حالت دون تقديمه المعونة لإخوته المسلمين، ولو أن كثيراً من " غزاة " البحر العثمانيين ــ الذين أطلق عليهم الغربيون اسم القراصنة ــ قد التحقوا بخدمة العثمانيين وبخاصة بعد أن عززوا قوتهم البحرية، وحثوهم على القيام بنشاط بحرى فى المغرب الإسلامى، وإن تكن الخلافات الأسرية قد شلت نشاط بايزيد،

وبخاصة ما يتعلق منها بمصير أخيه جم الذى كان محوراً لتآمر الدول المسيحية ضد الدولة العثمانية (٢٥).

كان جم أحق بالعرش من أخيه وذلك بسبب كفاءته . وحين علم بوفاة والده توجه إلى بروسة وأعلن نفسه سلطاناً على الأناضول واقترح تقسيم الإمبراطورية على أن يتولى بايزيد الحكم فى أوروبا وحدها . وكان بايزيد قد سبق أخاه فى دخول الآستانة وبذلك ضمن مساندة الإنكشارية الذين أغدق عليهم الهبات . وما لبثت الحرب الأهلية أن نشبت بين الأخوين واستمرت عاماً إلى أن هزم جم الذى لجأ إلى الدولة المملوكية التى ساعدته على تكوين قوة صغيرة فى حلب حيث انضم إليه عدد من أمراء التركمان الفارين وبعض شاغلى إقطاعات الأناضول الذين جردهم بايزيد من إقطاعاتهم . وحين دخلت قوات جم إلى كيليكيا (مايو ١٤٨٢) لم يجد كثيراً من الأنصار، فآثر الهرب إلى جزيرة رودس واحتمى بفرسان القديس يوحنا الذين وعدوه بالتوسط لكسب الأنصار فى أوروبا ضد أخيه . وقد اتصل مقدم رودس ببايزيد الذى وعد بمنح أخيه موارد إمارة قرمان دون أن يتولى حكمها بشرط أن يعتزل ويعيش فى سلام فى القدس . إلا أن جم أصر على أن يتولى حكم قرمان التى سبق أن كان حاكماً عليها . ورفض بايزيد هذا العرض ووعد المقدم بأن يمنحه بعض المال سنوياً فى مقابل مراقبته لجم، ثم أقنعه بإبعاد جم عن رودس بسبب قربها من الدولة العثمانية . وفى عام ١٤٨٢ تم نقل جم إلى نيس فى جنوبى فرنسا (وكان لا يزال تحت حماية فرسان القديس يوحنا) وهو لا يدرك أبعاد المؤامرات التى تحاك حوله . وعلى حين أبدى جم رغبته فى التوجه إلى المجر حيث يمكنه أن يثير أنصاره جرت مفاوضات بين فرسان القديس يوحنا وبين عدد من الدول الأوروبية التى كانت لا تزال تأمل فى استغلال جم لإثارة المتاعب فى وجه بايزيد — وكان حكامها على استعداد لدفع مبلغ طائلة فى مقابل ذلك . وكان

مقدم فرسان القديس يوحنا يطلب الأموال ويقبضها من كل جانب بما فى ذلك زوجة جم المقيمة فى مصر، على حين زار ملوك أوروبا جم خلال السنوات الثلاث عشرة التى استغرقها أسرة وتعرض خلالها السلطان بايزيد لابتزاز مستمر . وفى نهاية الأمر تقرر فى عام ١٤٨٦ إرسال جم إلى البابا إنوسنت الثامن الذى كان يفكر فى إثارة حملة صليبية . وحين غزا شارل الثامن ملك فرنسا إيطاليا واحتل روما، تم أسر جم (١٤٩٥) وجرى إرساله إلى فرنسا . إلا أن جم مرض فى الطريق وتوفى فى نابولى (فبراير ١٤٩٥) ربما من آثار سم أعطى له تنفيذاً لأوامر أخي بايزيد[٢٦].

ثانياً : النظام الإدارى

وقبل التعرض لتفاصيل نظام الحكم العثمانى تجب الإشارة إلى أن الدولة العثمانية قد نشأت على أطراف ما تبقى من الدولة البيزنطية وأنها كانت دولة أوروبية قبل أن تصبح دولة آسيوية لهذا لم تتوفر للدولة على الإطلاق نظم واحدة بحيث أن نظام الحكم فى الأناضول كان يختلف عنه فى كل من البلقان والعالم العربى وقد جرت وراثة الملامح الأساسية الهيئة الحاكمة العثمانية عن النظام الفارسى الذى أخذ به السلاجقة بعد أن كان " تترك " بالفعل بعض الشئ،وهو النظام الذى ورثه الغزنويون عن العباسيين ثم لحقته بعض التعديلات إلا أن النظام العثمانى كانت له ملامح خاصة يبدو أنها مرتبطة بموقع الدولة الجغرافى فى أوائل عهدها، بما فى ذلك اقتباسها بعض ملامح النظام البيزنطى ولما كانت تحيط بالدولة بعد قيامها – سواء داخل حدود دار الإسلام او خارجها – بلاد تمر بحالة اضطراب عام، فإنها اصطبغت بصفة عسكرية واتجهت إلى التوسع باعتباره أحسن وسائل الدفاع، ومن ثم إعلان السلاطين " الجهاد " ضد دار الحرب بصفة مستمرة . وقد ترتب على الاتجاه الذى اتخذه هذا التوسع ليس فقط أن تأثرت الدولة منذ البداية بمؤثرات

بيزنطية، بل ــ أهم من هذا ــ أنها حافظت على طابعها العسكرى حتى النهاية . هذا إلى أن هذا التوسع كان من السرعة بحيث حال دون إدماج الرعايا غير المسلمين ممن دخلوا فى نطاق الدولة الجديدة، ما أدى إلى استمرار الحكومة العسكرية .

كان السلطان العثمانى يتربع على قمة التنظيم الإدارى والعسكرى، وكان بمثابة السلطة المسيطرة على تلك النظم . ولقد تعاقب على عرش الإمبراطورية حكام أقوياء، وذلك بدءاً بعثمان، مؤسس الأسرة، إلى سليمان القانونى فى القرن السادس عشر . وقد أخذ العثمانيون بتقليدين أديا إلى سلامة الحاكم وإتصافه بالكفاءة . أما التقليد الأول، فكان من عادة السلطان أن يعين أبناءه كحكام للولايات فى الإمبراطوزية، فتهيأ للأمراء بذلك معرفة وخبرة فائقتان تمهيداً لاعتلاء أحدهم العرش . ولكن بدلاً من أن يؤدى هذا الإجراء إلى إشباع أطماع الأمراء، نجده يشجعهم على التطلع إلى ولاية العرش برفع راية الثورة، حتى لم يعد السلاطين آمنين على أنفسهم من خطط أبنائهم، دع عنك الإخوة وأبناء الأعمام . وأما التقليد الثانى ــ الذى نشر رسمياً فى مرسوم أصدره السلطان محمد الثانى ــ فقد منح السلطان الجديد الحق فى قتل إخوته الباقين حتى لا ينازعه أحد منهم على العرش فى المستقبل، فجعل بذلك قتل الإخوة سنة مشروعة . وبرر محمد الثانى هذا التقليد أمام نفسه وأمام الناس بأن غرضه منه هو " سلام الدنيا والعالم "، فوجود الإخوة، كما فهم هو من التاريخ العثمانى، من العوامل التى تثير الفتنة بين المسلمين، فقتلهم أهون فى نظره من إثارتها . وقد أقر رجال الفتوى هذا القانون وأعلنوا بأنه غير متعارض مع أحكام الشريعةالإسلامية . وهكذا انعدم وجود طبقة أرستقراطية تتصارع على العرش من أمراء البيت العثمانى، كما لم تتعرض الإمبراطورية العثمانية لأخطار التقسيم الناجمة عن قوانين الوارثة والتى أدت إلى انهيار بعض الإمبراطوريات السابقة مثل السلاجقة

والبيزنطيين . ومن ناحية أخرى، أدى هذا الصراع الذى ينشب فى أعقــاب وفاة السلطان إلى إبقاء الأقوى والأشد ذكاء ودهاء ومقدرة علــى اســتمالة الإنكشارية ورجال الحاشية [٢٧].

فمنذ ذلك الوقت أصبح كل الأمراء ــ عدا أبنــاء الســلطان الحــاكم ــ يحسبون فى مقاصير خاصة فى القصر ويحرم عليهم كل اتصـــال بالعــالم الخارجى،و كانوا يقضون حياتهم فى صحبة عــدد قليــل مــن الخصــيان والجوارى والحشم، هم الذين كانوا يزودونهم بكل ما كانوا يستطيعون استقاءه من معلومات عن العالم الخارجى . حقيقة أنهم كــانوا يــزودون بــالمعلمين أحياناً، إلا أنهم لم يكونوا يلقنونهم سوى دراسات معينة كالقرآن واليازرجة (التنجيم) ومنشئات الدواوين،وعلى العموم فإنهم أخذوا عنهم ــ بالإضافة إلى ذلك ــ اتجاهاً ممعناً فى روح المحافظة واحتقاراً ــ يقوم علــى الخــوف ــ لكل ما هو غير إسلامى . ثم إن الأطفال الذين يولودون لهم من الجوارى ــ ممن كن بوجه عام فوق سن الحمل ــ لم يكن يسمح لهم بالاســتمرار فــى الحياة، سواء أكانوا ذكوراً أم إناثاً، مما ترتب عليه أن الأمراء الباقين علــى قيد الحياة كانوا من أبناء السلطان الحاكم أو من أبناء أسلافه .

ومن بداية القرن الرابع عشر إلى بداية القرن الســابع عشــر انتقلــت السلطنة من الأب إلى الابن فى ثلاثة عشر جيلاً . ولكن حين تــوفى أحمــد الأول فى عام ١٦١٧ لم يكن أحد من أبنائه قد بلغ سن الرشد بعد،ولم يكــن أى قاصر قد تولى الحكم من قبل . لهذا قدم مصطفى الأول أخو أحمد علــى أولاده، لأنه تخطى سن الرشد برغم كونه مجنوناً . وفى نفس الوقت صــدر قانون نظم وراثة العرش فى المستقبل، وهو القانون الذى أكد مــن الوجهــة الملية وجوب إمضاء كل سلطان جزءاً من حياته فى العزلة المــدمرة التــى وصفناها، فلقد نص فى ذلك الوقت على وجوب انتقال العرش حين يخلو إلى أكبر الأحياء من الذكور من آل عثمان . ولقد أدى هذا بالفعل، خلال القــرن

ونصف القرن التاليين، إلى اعتلاء الإخوة والاعمام وأولاد العم (الذين كانوا محبوسين فى " أقفاصهم " بمقتضى القانون الآخر)،وإلى الاستبعاد المباشر للأبناء (الذين لم يكونوا محبوسين)، باستثناء حالة واحدة[٢٨].

وكان محمد الرابع الذى خلف أباه إبراهيم فى عام ١٦٤٨ فى سن السابعة هو الاستثناء الوحيد، لأنه كان الأمير العثمانى الوحيد الباقى على قيد الحياة " . وهذه الحالة جديرة بالاهتمام : إذ ترتب عليها أن كل السلاطين الذين اعتلوا العرش من بعده كانوا من نسل إبراهيم الذى، إن لم يكن مجنوناً بالفعل، فعلى الأقل كان من الشذوذ بدرجة قرب من الجنون . وإذا كان سقوط الأسرة العثمانية قد فتح المجال ــ بل شجع ــ على إلقاء اللوم على السلاطين عن الكثير من الويلات التى أصابت الإمبراطورية فقد استغلت فى هذا الشأن الحقيقة الخاصة بأن الإمبراطورية قد يحكمها سلاطين من نسل إبراهيم لمدة تزيد على قرن ونصف قرن . على أن الجنون الفعلى لم يظهر إلا فى واحد منهم . وحين وضع حد لنظام إبقاء الأمراء فى معزل عن العالم توالى علي العرش عدد من الأمراء الجديرين بالتقدير،وإذا كان بعض هؤلاء الأمراء قد تعرضوا فى بعض المناسبات لإبداء بعض مظاهر الهوس، فإن ثمة ظروفاً أخرى كثيرة تفسرها .

وبرغم أن سلاطين المرحلة الثانية لم يكن لهم من الأمر شئ فى بعض الأحيان فقد بقوا حكاماً مطلقى السلطان،وذلك لأنهم لم يتعرضوا لمنافسة قوية تهدد سلطانهم . ولكن من الناحية العملية كان سلطانهم المطلق تحد منه أحكام الشرع نظرياً، وتعرضهم عملياً . وفى هذا الشأن يمكن توضيح مدى ضعف سلطة السلاطين خلال المرحلة الثانية بعقد مقارنة . فعلى حين أجبر سلطان واحد فقط، فى خلال المرحلة الأولى، على التنازل عن العرش (وهذا تم على يد ابنه وخليفته) نجد فى المرحلة الثانية أن ستة سلاطين على الأقل إما تخلوا عن العرش أو خلعوا،و أن اثنين منهم قد قتلا كذلك . بل إن خلفاءهم

لم يكونوا مسئولين عن ذا الخلع الذى تم فى أكثر الحالات على يـد حـامي العاصمة .

لذا كان كثير من هؤلاء السلاطين ضحايا لهزائم جيوشهم فـى ميـادين القتال،وحقاً أنهم كانوا أبرياء من كل ما لا يزيد فى العادة على الإهمال، إلا أن اثنين منهم أثارا بمسلكهما روح المقاومة،وهما يستحقان الاهتمام، بحكم أن مصيرهما كان نذيراً بأشياء حدثت فيما بعد . فعثمان الثانى خلع ثم قتل فـى عام ١٦٢٢ لأنه فكر بوجه خاص فى القضاء على الانكشارية (وهو الامر الذى كانت الحاجة ماسة إليه، برغم أنه لم يتم قبل مرور مائتى سنة أخرى)، وأحمد الثالث الذى أرغم على التنازل عن العرش فى عام ١٧٣٠ نتيجة لما يمكن أن يوصف ــ من ناحية ــ بأنه ثورة اجتماعية أذكاها إمعان بلاطه فى البذخ وزاد فى كراهية رعاياه له هذا اللون الطفيف من الحضارة الأوروبية الذى تأثر الذى تأثر به هذا البلاط .

وهكذا بقى السلاطين ــ برغم أن نفراً منهم لم يلعبوا سوى دور ثانوى فى شئون الحكم ــ مركز الثقل فى الإمبراطورية التى كانت مصائرها وديعة فى أيديهم . ولكن بقى القيدان اللذان كانا يحدان من إرادتهـم : فقـد كـان ينتظرهم فى المستقبل ذلك التحدى الشاق، تحدى المواءمة بين ألوان التجديد التى يجدونها أمراً لازماً وبين أحكام الشرع المقررة، كما كـان علـيهم أن يكبحوا جماح أولئك الذين يتطلعون لسلبهم عروشهم [٢٩].

والألقاب التى استخدمها السلاطين لأنفسهم والأماكن التى استخدمت فيها تلك الألقاب مهمة من حيث أنها تكشف عن مفهوم السيادة العثمانية . وتقسم خليل هذه الألقاب إلى قسمين : شرعى وعرفى، واستخدمت فـى الوثـائق الرسمية بدقة وعناية . وهى ألقاب مثل : بك، خان، خاقـان، خداونـدكار، غازى، قيزر، سلطان، أمير، خليفة، بادشاه . ولقب سلطان هو لقـب كثـر

ذكره فى القرآن والحديث، فهو أكثر الألقاب ذات الصفة الإسلامية التى استخدمها الحكام العثمانيون، أما لقب خليفة فهو أكثر الألقاب التى طال الجدل والنقاش حولها،و المعروف أن الحكام الأوائل استخدموا هذا اللقب، إلا أن انتقاله إلى العثمانيين رسمياً قد حدث بعد دخول السلطان سليم الأول مصر عام ١٥١٧ م، ومنذ ذلك التاريخ أخذ السلاطين يستخدمون بين الحين والأخر لقب الخلافة، أما مسألة استخدامه بشكل فعال وتصدره للألقاب الأخرى فقد حدث اعتباراً من أواخر القرن الثامن عشر، وزاد استعماله، لاسيما فى عهد السلطان عبد الحميد الثانى، فكان هو أكثر السلاطين العثمانيين استخداماً لمؤسسة الخلاف بشكل فعال . وقد فصل بين فكرة الجامعة الإسلامية والخلافة ولأنه كان يرى فى الجامعة الإسلامية مفهوماً يشمل مسلمى العالم خارج نطاق الإمبراطورية وأمراً يصعب تحقيقه والسيطرة عليه فقد استخدمه بشكل فعال فى الخارج بوجه خاص . ولاشك أن الذين ادعوا أن استخدام السلطان عبد الحميد مقام الخلافة ضد الدول الكبرى ولاسيما انجلترا لم يكن إلا نوعاً من الخداع لم يفهموا الطبيعة السياسية لذلك المقام السياسى . وقد أكدت الوثائق والنصوص القضائية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر مكانة الخلافة بوجه خاص .

وكانت لبعض المراسم الثابتة عند العثمانيين مكانة مهمة عند انتقال السلطنة من سلطان لآخر . ويأتى فى مقدمتها مراسم البيعة والجلوس [على كرسى العرش] وتمنطق السيف . وقد وقع انتقال السلطنة من بداية الدولة العثمانية وحتى عام ١٦١٧ م أى مع الأربعة عشر سلطاناً الأوائل من الأب إلى الابن فيما عرف باسم " عمود النسب " . وبينما كان يرى الأتراك القدامى أن الدولة ملك مشترك بين أفراد الأسرة الحاكمة رأى العثمانيون مفهوماً مختلفاً لذلك ولاسيما فى عهد السلطان الفاتح، فقد جاء فى " قانوننامة الفاتح " حكم كثر الجدل يسر يسر أمر انتقال السلطنة من كانت تجرى باسم

السلطان . وإعتماداً على ذلك يمكننا القول إن السلطان كان يفوض الصدور العظام فى استخدام صلاحياته الدنيوية، أما صلاحياته الدينية فكان يفوض عليها قضاة العسكر فى البداية ثم فوض فيها شيخ الإسلام فيما بعد . فالمعروف أن عمليات التعيين والعزل التى تجرى لهذين المنصبين كانت من صلاحيات السلطان المطلقة . كما أن كافة القرارات الصادرة عن الديوان الهمايونى وتقديمها عقب اجتماعاته لتصديق السلطان عن طريق العرض عليه إنما يؤكد أن السلطان كان المرجع النهائى فى كل الأمور . ولكن يجب الإشارة إلى وجود عناصر مختلفة كانت تحد من صلاحيات السلاطين العثمانيين الذين اعتقدنا أنهم أصحاب صلاحيات مطلقة . لأن أقوى السلاطين العثمانيين أنفسهم مثل سليم الأول وسليمان القانونى قد أدركوا من خلال حوادث كثيرة كيف أن سلطاتهم محددة . ويأتى على رأس هذه التحديات قواعد التشريع الإسلامى،وهو الأمر الذى تعرض له المفتى المشهور أبو السعود أفندى فى بعض فتاواه المتعلقة بإدارة الدولة بقوله : " لا يصح الأمر السلطانى فيما لا يقره الشرع . كما رأينا أيضاً أن القواعد العرفية الثابتة قوانينها القديمة كانت من العوامل التى حدت من تصرفات السلاطين . ورأينا من ناحية أخرى أن آداب البلاط الثابتة والضغوط القادمة من المجتمع كانت تحول دون تحقيق العديد من رغبات السلاطين، لا سيما فى الحياة اليومية(٣٠).

وكان للسلاطين دخول يبلغ مجوعها مبالغ ضخمة تأتيهم من مصادر جد متنوعة، كانت تصب فى خزانة الأندرون المعروفة فى البلاط باسم " الخزانة الداخلية " . وأهم هذه الدخول كان يأتى من الاقطاعات المعروفة باسم (مالكانه) و(خاص) ومن الحدائق السلطانية، ومن ريع الغابات المعروفة فى التركية باسم (بلطه لق) و (جايرلق) و (أورمانلق)، ثم من "إرسالية" مصر، أى خراجها السنوى الذى كان يبلغ حتى عام ١٥٨٧م

٥٠.٠٠٠ آلتون أى دينار ذهبى، ثم زاد بعد ذلك التاريخ وبلغ ٦٠٠.٠٠٠ آلتون،والدخول القادمة من الأفلاق والبغدان ودوبرقنيك وأردل،ونصيب من أموال الغنائم،والهدايا التى يقدمها رجال الدولة كل عام للسلطان .

وقد قام السلاطين فى العديد من أنحاء الإمبراطورية وعلى رأسها استانبول بتشييد المجمعات الضخمة التى عرفت باسم مشترك هو " أوقاف السلاطين "،وخصصوا للصرف عيها مصادر غنية من الأراضى والخانات والحمامات والدكاكين والدور والأسواق وغيرها . وهذه العمائر الكبيرة كان لها زوائد دخل تعرف باسم " زوائد الأوقاف "، ونفهم من سجلات ودفاتر المحاسبات أنها كانت تمنح كموارد لفئات عديدة .

لقد اعتلى عرش الدولة العثمانية ستة وثلاثون سلطاناً،وكان لشخصية كل واحد منهم ما أضفى على جهاز السلطنة العثمانية أبعاداً جديدة سلباً أو إيجاباً، رأيناها فى أشكال اعتلائهم العرش وفى أعمالهم وانجازاتهم وعلاقاتهم برجال الدولة، وفى حياة البلاط والحريم السلطانى [٣١].

ولما اتسعت الدولة اتساعاً إقليمياً سريعاً ومذهلاً، ازدادت أهمية مركز الوزير،وتصاعدت اختصاصاته،وسيطر على إدارات الحكومة،وأنشئ منصب الوزير الأول أى الصدر الاعظم، ولما جمعت قوانين الدولة على عهد السلطان محمد الفاتح وأدخلت عليها تعديلات وإضافات شئ أصبح مجموعها شكل القانون الأساسى للدولة والمعروف باسم قانون نامه . وقد حددت فى هذا القانون مراكز موظفى الدولة المختلفين واختصاصاتهم تحديداً دقيقاً، فأشير إلى الوزير الأول على أنه " الوكيل المطلق " وهو مصطلح مقتبس من اللغة العربية بمعنى " الوكيل المطلق " أو الممثل المطلق للسلطان . وأبطل استخدام لفظة بيرفان أو بيرفانجى، ثم استبدلت الدولة بهذا اللفظ مصطلحاً جديداً هو " آولو وزير " أى الوزير الأول أو " وزيرى أعظم " أى الوزير

الأعظم . وبذلك عادت الدولة العثمانية إلى التقليد الإسلامى باستخدام لفظة الوزير،ولكنها أضافت كلمة أعظم تمييزاً له عن اللقب الذى كانت الدولة قد منحته بالفعل لعدد من الأفراد على أساس أن لقب وزير كان شعاراً لرتبة . وكان هؤلاء الأفراد الأخيرون الذين يحملون لقب وزير هم فى العادة حكام الولايات الكبرى مثل مصر . فكان السلطان يمنحهم اللقب ويخولهم سلطات واسعة يستطيعون بمقتضاها إصدار فرمانات " محلية " لها قوة القانون دون الحاجة إلى الرجوع إلى استانبول لاستصدار فرمانات سلطانية إلا فى المسائل التى تقتضى طبيعتها ؛ عرضها على السلطان أو الوزير الأول الذى أصبح لقبه فى عهد سلاطين الفترة الثانية الصدر الأعظم،ومعنى هذا المصطلح التاريخى أعظم كبار الموظفين .

وقد رفع السلطان محمد الفاتح الوزير الأول – أو الصدر الأعظم كما لقب فيما بعد – مقاماً علياً فى الدولة . فقد جاء فى القانون الأساسى للدولة العثمانية والمسمى قانون نامه ما نصه " لتعلم اولاً أن الصدر الأعظم هو رئيس الوزراء والأمراء . إنه أعظمهم جميعاً وصاحب الصلاحية المطلقة فى إدارة شئون الدولة . أما القيم على أملاكى فهو الدفتر دار . غير أن الصدر الأعظم هو رئيسه . وللصدر الأعظم فى حركاته وسكناته،وفى قيامه وقعوده، حق التقدم على جميع موظفى الدولة " فكان هذا القانون قد وضع الصدر الأعظم فى المكان الثانى بعد السلطان مباشرة، أو كما يقول المؤرخ الفرنسى رامبو غدا الصدر الأعظم نائب السلطان أو نائب الإمبراطور . أما المستشرق الألمانى بروكلمان فيقول إن قانون نامة قد جعل الصدر الأعظم وصياً فعلياً على الإمبراطورية، مطلق الصلاحية، يسيطر على فروع الإدارة كلها، ويفصل فى جميع شئون الدولة، وفى مسائل الموت والحياة أيضاً، منفرداً مطلق السلطة (٣٢).

على أن أعظم امتياز ظفر به الصدر الأعظم كان فى الواقع الحق الذى خوله له سلاطين الدولة فى حمل الخاتم السلطانى رمزاً لثقتهم العميقة فيه، إذ كان الصدر الأعظم يوقع بهذا الخاتم على الفرمانات السلطانية، كما كانـــت تختم به المخازن الهامة وهى : مخزن السجلات المالية (مالية دفتر خانـــة سى)،والخزانة الخارجية للسراى (ديش خزينة)،والمخزن العام للمحفوظـــات (الدفتر خانة)، والحقيبة اليومية (روزنامة كيسه سى) . وكان المؤرخـــون العثمانيون فى تعليقهم على تسلم الصدر الأعظم الخاتم السلطانى يقولون إنه حصل على شعار عاهل العالم " نائل مهر شهر يارى جهان أو لمشـــرى ". وكان الصدر الأعظم فى العهد الأول يضع خاتم التوقيـــع الســـلطانى فـــى أصبعه، أما فى العهد اللاحق فكان يضعه فى جيبه فى حافظة مـــن القمـــاش المذهب . وكان السلطان فى العهد الأول يبعث خاتمه إلى الصدر الأعظم فى مسكنه يحمله إليه أحد موظفى البلاط، ثم تغير هذا التقليد منذ عهد الســـلطان أحمد الاول (١٦٠٣ ــ ١٦١٧)، إذ كان السلطان يتولى شخصـــياً تقـــديم خاتمه إلى الصدر الأعظم . وكان سحب الخاتم من الصدر الأعظـــم بمثابـــة أمر سلطانى بإقالته من منصبه . وكان السلطان يوفد أحد مـــوظفى الـــبلاط لسحب الخاتم منه . وكان يتعين على الصدر الأعظم فى هذه الحالة مغـــادرة العاصمة فوراً .

امتدت سلطات الصدر الأعظم إلى الإدارة المركزية فى الدولـــة وإلـــى إدارة الولايات . كان الصدر الأعظم هو رئيس الديوان ــ وكـــان الصـــدر الأعظم يهيمن أيضاً على شئون الجيش وكان يقود المعارك الحربيـــة حـــين تدعو الضرورة . وفى هذه الحالة كان له الحق فى حمل البيرق النبـــوى ــ راية النبى صلوات الله وسلامه عليه ــ إلى ساحة القتال . وهو حـــق كـــان ينفرد به السلطان دون سواه . وكان يرأس المحكمة العليا ويشترك معه قضاة الشريعة الإسلامية . وكان الصدر الأعظم يقوم بجولات في العاصمة ويتفقد

أسواقها ويرافقه فـي هـذه الحـولات قاضـي القضاة،والمشـرف علـى الأسواق،وكان يسمى " احتساب آغاسي " بمعنى الرقيب ويقابل هذا المصطلح العثماني المصطلح العربى " المحتسب "،ورئيس الفيالق الإنكشارية، ورئيس شرطة المدينة (٣٣).

أما الديوان الهمايونى فكان بمثابة مجلس وزراء موسع . كان سـلاطين الفترة الأولى يحضرون جلساته ويرأسون اجتماعاته . وكان يطلـق عليـه الديوان الهمايونى واستمر هذا التقليد متبعاً حتى عهـد السـلطان سـليمان المشرع الذى تخلف عن حضور جلساته وتخلى عن رياسة الديوان للصـدر الأعظم . فأصبح الديوان فى وضعه الجديد يتكون ــ فضـلاً عـن رئيسـه الصدر الأعظم ــ من الوزراء وعدد من كبار موظفى الدولة كـان يطلـق عليهم باللغة التركية " أركان دولت " أى أركان الدولة يمارسـون عضـوية الديوان بحكم وانتقلت إلى الديوان اختصاصات المحكمة العليـا التـى كـان يرأسها السلطان من قبل، لأن الصدر الأعظم كان قد حصل علـى تفـويض عام من السلطان بحكم تقلد الأخير وظيفة الإمامة . وتأسيسـاً علـى هـذا التفويض كان الصدر الأعظم يتولى القضاء بالمحكمة العليا بمساعدة قضـاة الشريعة بعد أن تم تطعيم الديوان بأكبر العناصر القضائية التى تمثل الشريعة الإسلامية . وكانت الكلمة العليا فى هذا المجال لهؤلاء القضاة الكبار بحكـم ثقافتهم وتعمقهم فى مسائل الشريعة، أو وفقاً للمصطلح الحديث لأنهم كـانوا من أهل الخبرة . ولكن لما كان الصدر الأعظم أعلى من القضاة فى السـلم الوظيفى بحكم منصبه، كانت الأحكام والتصرف فى القضايا تصدر عنه من الناحية الشكلية . وهكذا أصبح من اختصاصات الديوان النظر فى المسـائل القضائية، أى تطبيق القانون من ناحية، والنظر فى المسائل الإداريـة مـن ناحية أخرى . ويبرر المؤرخ الأمريكى ليبير اختصاصات الديوان فيقول إنه طالما كان القانون فى الدولة العثمانية موضوعاً ومحـدداً،وطالما كـان أى

تشريع يصدر عن الدولة يرتكز حول شخص واحد هو السلطان، فإن مجال المناقشات وتبادل الآراء يكون مقصوراً على المسائل الإدارية والقضائية . وهذا التبرير لا يصور الحقيقة كلها فيما يتصل باختصاصات الديوان ودوره في حكم الدولة . وبعد ذلك أعطى للديوان أبعاده الحقيقية سواء من ناحية اختصاصاته أو دوره الفعال في إيجاد رقابة دقيقة ومحكمة على أعمال الحكومة سواء في الإدارة المركزية أو في الولايات العثمانية .

لم يكن الديوان هيئة تشريعية تضع التشريعات للدولة،ولكنه كان هيئة تجمع بين سمات الوزارة ومحكمة عليا ويقول أحد رجال القانون –وهو هايدبورن – في تقييمه لذلك الديوان إنه كان نوعاً من مجلس الدولة نوقشت فيه المسائل السياسية الهامة،وفي ذات الوقت كان بمثابة محكمة عليا خولت الحق في أن تنقل أمامها كل قضية وأن تنظر في القضايا بين العثمانيين والأجانب والتي تزيد قيمة المبالغ المتنازع عليها على ثلاثة آلاف أسبر[٣٤].

وعلى الرغم من أن هذا الديوان يجمع بين اختصاصات الوزارة والمحكمة العليا إلا إنه لم تكن هناك أوجه للشبه بين الديوان وهاتين الهيئتين . كان رئيس الديوان هو الصدر الأعظم،وهو معين بفرمان سلطاني . وكانت موافقة السلطان على قرارات الديوان أمراً ضرورياً حتى تكتسب القرارات الصبغة القانونية وتأخذ طريقها إلى التنفيذ . ولا يحضر السلطان جلسات الديوان . وكل عضو فيه مسئول أمام السلطان. ولم تكن هذه المسئولية محصورة في تصرفات العضو فحسب، بل في حسن سلوكه وإلا كان جزاؤه الإعدام . وفي ذات الوقت كان الديوان أعلى محكمة في الإمبراطورية كلها، وهي محكمة من طراز فريد . فليست لها اختصاصات محكمة الاستئناف أو حتى محكمة أول درجة، أي المحاكم الابتدائية . وكان لا يدخل في اختصاصات محكمة الديوان مناقشة شرعية القوانين،ومع ذلك فإن الديوان كمحكمة تشمل ولايته القضائية جميع القضايا المدنية والجنائية التي ترفع إليه

من أى جزء من أجزاء الإمبراطورية،ونجم عن ذلك أن سلطته القضائية لـم تكن مقيدة . ولكن من ناحية أخرى لا تصبح أحكامه القضائية نهائية إلا بعد موافقة السلطان عليها . ويمضى ذلك المؤرخ الأمريكى فى تعليقه فيقول إنه على الرغم من أوجه القصور التى تؤخذ على نظامه واختصاصاته، فقد كان الديوان ذا فائدة كبرى للحكومة العثمانية . كان الديوان أدنـى درجـة مـن السلطان . ولكنه كان يعلو جميع الهيئات فى الدولة . سواء الهيئة الحاكمـة من طبقة العبيد ــ القولار ــ أو الهيئة الإسلامية . وكان يربط بينهما بحكـم وجود أعضاء فيه يمثلون هاتين الهيئتين . ويلتقى بهما فى شخص السـلطان الذى هو رأس الهيئتين . وكان الديوان بمثابة المحور الذى تدور حوله كـل الوحدات المتنوعة فى الحكومة العثمانية،و هى حكومة ذات حكـم مطلـق . وفى رحاب الديوان كان يجتمع أكثر رجال الدولة كفاية ومقدرة وخبرة [٣٥].

ويقع الاختيار على كل عضو فيه بعد عملية دقيقة تمر فى عدة مراحل وأعطت الدولة كلا منهم مسئوليات ضخمة ومنحتهم سلطات واسـعة كـى ينفذوا بدون إبطاء، فى النطاق المحدد لكل منهم، القرارات التى تصدر عـن الديوان ويوافق عليها السلطان . فالديوان كان يساير ويدعم بطريقة بارعـة وممتازة النظام العثمانى العام للإدارة المركزية فى الدولة . وبفضل الديوان كان فى استطاعة الحاكم بأقل جهد ممكن أن تكون رقابته على كل جزء فى الإمبراطورية رقابة دقيقة ومحكمة عن طريق حكام على قدر كبير من الذكاء والمقدرة،وكانت تربطهم بالسلطان روابط وثيقة هى مزيج من المشاعر التى تتمثل فى العرفان بالجميل والمصلحة الذاتية والتطلع إلى مزيد من الترقيات والخوف من بطشه . وفضلاً عن ذلك كان الديوان بمثابة مدرسة تدرب فيها القضاة ورجال الإدارة ورجال الحكم، كما كان مجالاً لتنمية معلوماتهم وزيادة تجاربهم،وكلما كانت حصيلتهم من هذه وتلك كبيرة أتيحت لهم عديد الفرص للترقية إلى وظائف أعلى . فالصدر الأعظم بصفته رئيس الديوان يتصل بهم

اتصالاً مباشراً ومستمراً أربع مرات فى الأسبوع .والسلطان على مقربة منهم يتابع نواحى نشاطهم . وفى يد الاثنين : السلطان والصدر الأعظم سلطة ترقيتهم . وفوق هذا كله، لم يكن الديوان مجرداً من أى نفوذ على التشريع . فالقوانين كانت تصدر بإسم السلطان وبعد موافقته النهائية عليها .ولكن المادة القانونيةالتى تضمنتها هذه القوانين قد اشترك فى إعدادها أعضاء الديوان، وهم الذين قاموا بمعاونة مساعديهم بوضع الصياغة القانونية لهذه القوانين . ولكل هذه الاختصاصات والأسباب وغيرها كان الديوان، برياسة الصدر الأعظم،وهو يراقب الإدارة ويفصل فى القضايا الهامة ويترك بصماته فى مجال التشريع، ويحكم الدولة العثمانية نيابة عن السلطان ومن أجله ولمصلحته .

نخلص من هذه الآراء السياسية والقانونية أنه إذا كانت السلطات السياسية والعسكرية والإدارية فى الدولة قد تركزت فى يد السلطان، فإن إنشاء الديوان الهمايونى أو الإمبراطورى لا يعنى أن هذا الجهاز قد سلب اختصاصات السلطان أو جزءاً منها، إذ لم يكن للديوان سلطة قطعية فى المسائل التى تعرض عليه أو فى القرارات التى تصدر عنه، لأن موافقة السلطان عليها كانت شرطاً أساسياً لتنفيذها . ولم يكن أعضاء الديوان سوى موظفين اقتصرت مهمتهم على بحث المسائل أولاً، ثم تحضير القرارات ثانياً، ثم تنفيذها ثالثاً إذا أقرها السلطان . وكان إنشاء الديوان ضرورة أملاها اتساع الدولة، وتزاحم المشكلات بشتى أنواعها،والتوسع فى إنشاء مناصب جديدة وعدد من أجهزة الحكم، سواء فى العاصمة أو فى الأقاليم التى فتحت،وما استتبع ذلك من زيادة عدد الهيئات الحكومية وازدياد عدد الموظفين [٣٦]، وكان أعضاء الديوان الصدر الأعظم،والوزراء،والجاويش باشى،والنشانجى باشى، كاخيابك، الباش دفتردار، الدفتر أمينى .

أما عن النظام القضائى فكانت الإمبراطوزية العثمانية إمبراطورية محافظة فى سياستها الإدارية، وكان من أبرز ما تصدى له السلطان تقنين العرف السائد فى مختلف ولايات الإمبراطورية . واتخذت الشرائع من هذا النوع صفة القوانين،ولكن إصدارها لم يكن عملاً تشريعياً بالمعنى المفهوم طالما أن القانون لم يضف إضافات جديدة ن بل أكد فقط العرف السائد المتبع. حقيقة أن السلاطين كانوا يسنون القوانين بالفرمانات، غير أن مجموعة قوانينهم كانت تعتبر، مبدئياً، إما واقعة ضمن نطاق الشريعة أو سليمة فى نظرها . وكان السلطان يصدرها، لا بحكم سلطته السياسية المستقلة، بل بحكم صلاحية الاجتهاد التى أسندتها الشريعة للحاكم المدنى . وبينما أخذت الدولة العثمانية فى الاتساع حاملة لواء الإسلام، ظهر السلاطين أنفسهم على أنهم حماة الإسلام ومؤيديه إلى أن حكموا الجزء الغربى من العالم الإسلامى وملأوا استانبول والمدن الإسلامية الأخرى بالمساجد الفاخرة والمؤسسات الإسلامية الأخرى . ومع أنه كان للسلطان ولكبير وزرائه وحكامه فى الولايات دواوينهم لقضاة العدل، فالقضاة الوحيدون المعترف بهم رسمياً إنما كانوا قضاة الشرع . وفى الواقع، كان العثمانيون أول من أعطى المحاكم الشرعية شكلها النظامى،وأخضع موظفيها لتنظيم رسمى . فالقضاة الذين يقضون بالشرع،والمفتون الذين يفسرونه،والأساتذة الذين يدرسونه فى المدارس،وحتى موظفو الجوامع كانوا كلهم منتظمين فى هيئة رسمية لها رتبها المعروفة ونظامها التدريجى .

وكانت هذه الهيئة ــ التى ساعد السلاطين على قيامها ــ تشكل بالفعل جزءاً جوهرياً من جهاز الحكم، إلى جانب الجهاز الإدارى والعسكرى . وكان أفرادها يقومون، فى الواقع بدور ضرورى، كصلة معنوية، وإلى حد ما كصلة إدارية، بين السلطان ورعاياه، خاصة فى الولايات الإسلامية العربية فبواسطتهم كان السلطان يعلن أعماله وأحكامه على الشعب، كما كان

بواسطتهم وحدهم يؤثر فى " الرأى العام " المسلم . إلا أن هؤلاء كانوا، هم بدورهم، الناطقين باسم الرأى العام، لا يبلغون السلطان شكاوى مختلف فئات الأهالى فحسب، بل يسمعونه أيضاً صوت ضمير أهل السنة والجماعة . وكانوا يشتركون فى النشاط السياسى فى العاصمة وفى عواصم الولايات، كأن يفتوا مثلاً بما يبرر خلع الحكام، إلا أنهم لم يكونوا ليسهموا فى الحركات الشعبية ضد السلطان، بل كانوا موالين له، يستدرون له ولاء الشعب(٣٧).

ولقد كان لكل من ولايتى الروملى والأناضول قاضى قضاتها أو قاضى عسكر أفندى، الذى لم تكن سلطته مقصورة على الشؤون العسكرية، بل كان يقوم بتعيين جميع الموظفين القضائيين والقضاة ونوابهم . وكانت ولايات شمال أفريقيا تتبع قاضى عسكر الروملى، بينما ارتبطت مصر وجميع الولايات العربية فى آسيا قضائياً بقاضى عسكر الأناضول . وكان يتلو قضاة العسكر فى الترتيب العلماء الكبار وهم قضاة العاصمة وعواصم الولايات، ثم العلماء الصغار الذين كانوا يتولون منصب القضاء فى مدن الإمبراطورية المختلفة . أما قضاة الدرجة الثانية فانقسموا إلى فئات ثلاث : المفتشين والقضاة الصغار ثم نواب القضاة . وكان القاضى هو صاحب السلطة القضائية العليا فى منطقته، إذ كان يقضى فى غياب المدعى العام فى القضايا المدنية والجنائية وفقاً لمبادئ الشرع المستمدة من القرآن الكريم والسنة الشريفة . وهكذا نشأ القانون العثمانى فى بادئ الأمر على أساس عسكرى، إلى أن جاء السلطان سليمان القانونى وأخضع الجهاز الإسلامى كله لسلطة مفتى استانبول الذى لقب بشيخ الإسلام.

وكان الدور الذى قام به شيخ الإسلام ذا أهمية عظيمة، إذ كان السلطان يرجع إليه فى إعداد القانون لكى يتأكد من أن نصوصه لا تتعارض مع مبادئ الشريعة الإسلامية . وكانت للمفتى هيمنة على جميع أفراد الجهاز الإسلامى، كما كانت الدولة لا تقدم على حرب دون صدور فتوى منه يقرر

فيها أن أهداف هذه الحرب لا تتعارض مع الدين . وكانت أحكام المفتى نهائية لا معقب عليها،وكانت تحت تصرفه إدارة أطلق عليها " فتوة خانة " أى دار الإفتاء . وكان الجهاز الإسلامى يضم أيضاً الأشراف وهم الذين ينحدرون من أسرة النبى (ص)، وهؤلاء يمثلون أحد نظامين وراثيين وحيدين فى الدولة العثمانية . والنظام الوراثى العثمانى هو وراثة السلطنة، وهى فى أسرة آل عثمان . وكان للأشراف وحدهم الحق فى ارتداء العمامة الخضراء،وكان رئيسهم الذى يطلق عليه نقيب الأشراف يحتل مكانة عالية فى المجتمع العثمانى وله اختصاصات وسلطات واسعة على سائر الأشراف.

هكذا لم يفرض السلطان على الإمبراطورية حكماً واحداً، بل رتب مختلف الطبقات والعناصر فيها ونظمها بشكل يضمن لها العيش بسلام، ويسمح لكل منها بالإسهام كما ينبغى فى استقرار المجموع وازدهاره . وكان الحكم، قد وضع إطار النظام، بينما أقامت الشريعة جهاز الحقوق والواجبات. فكانت كل جماعة حرة، ضمن ذلك الإطار، تعيش وفقاً لمعتقداتها وعاداتها الخاصة بها،ومن ثم لم تكن الإمبراطورية جماعة واحدة بقدر ما كانت مجموعة من الجماعات، تفرض كل منها على أعضائها واجب الولاء المباشر لها . وكانت هذه الجماعات إقليمية أو دينية أو مهنية أو ـ إلى حد ما ـ خليطاً من الثلاث . غير أن الانقسام السياسى،وقد يجوز القول، الانقسام الكيانى، فيما بينها، إنما كان انقساماً بين العسكر والرعايا، أى انقساماً بين الحكام والمحكومين، كما كان انقاسماً بين المسلم وغير المسلم . وكانت الدولة العثمانية، قبل كل شئ، دولة إسلامية سنية . وكان جميع المسلمين السنيين، دون سواهم، ينتمون إنتماءاً تاماً إلى جسم الجماعة السياسى، وذلك بصرف النظر عن العرق أو اللغة[٣٨] .

أما عن وضع أهل الذمة فبعد فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣ . أعلن السلطان محمد الفاتح الحرية الكاملة لممارسة الحياة الدينية واليومية بشكل

حر، وفتح المجال أمام العائدين للعودة، وللمختبئين بالظهور، وحرية التجول مكفولة بالكامل أمام كل المدنيين ومن كل الطوائف والأديان . فعاد الجميع إلى ممارسة الحياة الطبيعية،وأنعم على الروم بالبقاء فى المدينة،ووطن أسراه على سواحل الخليج،وأحسن معاملة كل الطوائف الدينية . وإن خص الذين كانوا يعارضون اتحاد الكنيستين بشئ من التفضيل، وعقب صلاة أول جمعة أقامها الفاتح فى جامع آيا صوفيا، أعطى إشارة البدء فى إعمار المدينة، وقد تحولت — فى ظل الحكم الجديد — بعض الأديرة والكنائس بمحض إرادة أصحابها إلى مساجد وجوامع،وإن جرت وفقاً لخطة إعمار المدينة،وإنشاء الأحياء التى يقطن بها المسلمون،ولم يبعد السلطان محمد الفاتح الأهالى المسيحيين عن دائرة اهتمامه، فقد ترك لهم العديد من كنائسهم ذات الطابع الخاص،وأمرهم باختيار وانتخاب من يحل محل البطريك أنسطاسيوس الثانى الذى استقال من البطرياركية، وقد أراد الفاتح بهذا التصرف، أن يخلق نوعاً من التفاهم بين المسلمين والمسيحيين من ناحية،وأن يجذب الروم للحياة بها، بل ويحبب إليهم الإقامة فى ربوعها . فاجتمع الأساقفة والرهبان والأهالى وانتخبوا بطريكاً لهم . وعقب الاختيار دعاه السلطان إلى مائدته، وألبسه تاج البطرياركية، وعند انصرافه رافقه السلطان وودعه حتى الباب .وخصص له كنيسة الحواريين لتكون مقراً له .

وحافظ المسيحيون على عقيدتهم وعاداتهم بشرط أن يدفعوا الجزية . ولم يقتصر أمر البطريك على رئاسة الكنيسة الأرثوذكسية بل أنه تزعم كل المسيحيين الذين يدفعون الجزية وأصبح ممثلاً للأمة اليونانية ووسيطاً بينها وبين الدولة العثمانية . وبالتدريج اتسع نطاق سلطته لتشمل كل المسائل المدنية، فسمح لهم بجباية العشور من رعاياه وبأن يكون له حراس مسلحون. ولم يشعر بوطأة الحكم العثمانى سوى المسيحيين من سكان الريف، بما فى ذلك قساوسة الأقاليم، على حين لم يلحق كثير من الظلم بطبقاتهم العليا

ورهبان الأديرة . ووجد كبار رجال الدين أنفسهم وقد استحوذوا على سلطة ونفوذ لم يعهدوهما من قبل، على حين أن نفور العثمانيين من ممارسة الأعمال التجارية وتحصيل النقود قد أتاح لليونانيين وغيرهم — وبخاصة فى العاصمة — أن يحصلوا على ثروات طائلة، فقد استقر عدد كبير من اليونانيين حول البطريركية التى كانت تقوم على الساحل الغربى للقرن الذهبى فى حى الفنارية وبفضل ثروتهم التى حصلوا عليها من التجار وبراعتهم التى جعلت السلطات العثمانية تعتمد عليهم فيما بعد فى الاتصال بالدول الغربية، نجدهم يتبوأون مركزاً رفيعاً فى الدولة . وهكذا استحوذ الفناريون (سكان حى الفنار) على قسط كبير من إدارة الدولة باعتبارهم وسطاء مما زاد فى فسادهم . على أن الكنيسة كانت خلال السنوات التى تلت فتح القسطنطينية موضع حظوة العثمانيين مما جعلها تثرى على حساب رعاياها، الأمر الذى أغرى رجال الدين بعدم التردد فى حث الناس على الطاعة وإقرار الدوشرمة . ونخلص من ذلك إلى أن الحكم العثمانى كان أحسن من سابقيه بالنسبة إلى اليونايين .

أما اليهود فقد كان عددهم لدى البيزنط قليلاً،والقسم الأكبر من يهود استانبول هم أولئك اليهود البالغ عددهم ٦٠٠٠٠ تقريباً الذين طردوا من أسبانيا والبرتغال نحو عام ١٥٠٠ ولم يقبلهم أى قطر فى أوروبا، ثم الذين وافقت الحكومة العثمانية على طلب لجوئهم ومنحتهم حق المواطنة ؛ وأسكن القسم الأكبر منهم فى استانبول والباقى فى مناطق أخرى كأزمير وسلانيك . وهؤلاء هم يهود اشكنازى الذين يتكلمون إحدى لهجات اللغة الأسبانية وكانوا أصحاب نفوذ فى استانبول [٣٩].

وهناك صلة وثيقة بين المصالح التجارية وبين الدبلوماسية، فقد كان للامتيازات الأجنبية قوتها المؤثرة دائماً على الدبلوماسية الدولية . وقد لوحظ أن المصالح الاقتصادية والتجارية التى كانت تأتى فى المقام الأول فى تشكيل

الدبلوماسية الأوربية وتوجيهها،وعلى الرغم من صعوبة القول بأن هذا الأمر كان هو المحرك " بنفس القدر " فى توجيه سياسة الدولة العثمانية الخارجيـة إلا أنها كانت تعرف هذا الاتجاه الأوربى،ومن ثم سعت للاسـتفادة منـه،و تشكيل ديبلوماسية بما يجاريه . وهذه الامتيازات قد منحتها الدولة فى البداية لفرنسا عام ١٥٣٦ م، ثم أعقبتها انجلترا عام ١٥٨٠ م، ثـم هولانـدا عـام ١٦١٢ م، والنمسا عام ١٦١٦ م،وبعد قرن أو يزيد من الزمان حصلت عليها فى القرن الثامن عشر السويد وصقلية والدنمارك وبروسيا وأسبانيا، ويجـب علينا أن نتناول النوعين الأولين من تلك الامتيازات بشكل آخر فى المجـال الديبلوماسى ؛ فقد منحت الامتيازات لفرنسا عام ١٥٣٦ م على أيام السلطان سليمان القانونى، وكان القصد من ورائها عرقلة قيام حلف مقدس يعقده العالم الكاثوليكى الأوربى ضد الدولة العثمانية ذات السياسة الإسـلامية، فحصـل عليها فرانسوا الأول ملك فرنسا الذى هزم أما آل هابسبورغ عام ١٥٢٥ م، وكان فى أشد الحاجة إلى المعاونة،والحق أنها حققت القصد منها، واسـتطاع القانونى أن يجد بذلك دولة حليفة وتابعة له ضمناً بـين أسـبانيا وألمانيـا . واستمرت هذه الصداقة التى بدأت بين الدولة العثمانية وفرنسا سنين طويلـة دون أن تتزعزع مع استثناء بعض التجاوزات الطفيفة، حتى جاءت الحملـة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ م فى زمن السلطان سليم الثالـث، فكانـت أولى الضربات فى الصيم لهذه الصداقة .

والحق أن هذا التحالف والتقارب كان ذا أهمية عظيمـة فـى تـاريخ الديبلوماسية، فقد اعترفت الدولة العثمانية لفرنسـا بالأفضـلية فـى كافـة المجالات تقريباً،واستمر ذلك حتى حصلت انجلترا على امتيازات مشابهة عام ١٥٨٠ م . ففى ذلك التاريخ استطاع هاربورن سفير الملكة إليزابيث ملكـة إنجلترا أن يحصل على الامتيازات لتتقدم بها انجلترا فى بعض المجـالات . ومن المحتمل أن رغبة الدولة العثمانية فى إقامة علاقات صداقة مع انجلترا

صاحبة القوة البحرية القوية ضد أسبانيا والبرتغال،وتفكيرها فى شراء بعض الأسلحة من انجلترا بدلاً من فرنسا هو الذى كان له الأثر الأكبر فى ذلـــك . وهذه الامتيازات التى أشعلت التنافس بين انجلترا وفرنسا كانت العامل المؤثر من الدرجة الاولى على الدبلوماسية العثمانية . وكانت الدولة وهى تمنح تلك الامتيازات التجارية تسعى نحو هدف معين،ولاسيما حرصها على المصـــالح السياسية والعسكرية للبلاد، وعلى سبيل المثال فإن الجنويين الـــذين قطعــت علاقاتهم التجارية مع الدولة العثمانية قد طلبوا بعد معاهدة قارلوفجة علاقات تجارية جديدة وإرسال سفير دائم إلى استانبول،وضمنوا فى هذا الأمر وساطة الإمبراطور الألمانى نفسه . وفى عام ١٧١١ شاعوا إرسال ســفيرهم إلـــى استانبول ليتفاوض فى الأمر، ووصلها فى شهر ديسمبر من نفس العام حاملاً رسالة وهدايا قيمة، ثم استقر فى سفارته فى حى غلطـــة . غيــر أن إقــدام الجنويين على مساعدة البندقية بالمال والسلاح أثناء حربها مع العثمانيين كان السبب فى طرد السفير الجنوى خارج الــبلاد عـــام ١٧١٥ م . وســـاعدت الامتيازات الأجنبية فى البداية على فتح آفاق جديدة وإتاحة فرصـــة الخيـــار أمام السياسة الخارجية العثمانية، ثم لم تلبث أكبر الموانع ابتداءاً من القـــرن السابع عشر أن أخذت تتشكل أمام الدبلوماسية التركية، حتى أصبحت حجر عثرة يعرقل حركة الدولة بين الحين والآخر [٤٠].

الهوامش

(١) محمد فؤاد كوبريلى : قيام الدولة العثمانية، ترجمة / أحمد السعيد سليمان، الألف كتاب الثانى (١١٩) الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣، ص١١٦، ١١٧ .

(٢) عبد العزيز محمد الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، الجزء الاول، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٠، ص٣٣، ٣٤ .

(٣) نفسه : ص٣٤ .

(٤) نفسه : ص٣٥ .

(٥) نفسه : ص٣٦، ٣٧ .

(٦) نفسه : ص٣٧، ٣٨ .

(٧) نفسه : ص٣٨، ٣٩ .

(٨) نفسه : ص٣٩، ٤٠ .

(٩) نفسه : ص ٤٠، ٤١ .

(١٠) نفسه : ص٤١، ٤٢ .

(١١) نفسه : ص٤٢، ٤٣ .

(١٢) عمر عبد العزيز عمر : تاريخ المشرق العربى (١٥١٦ ــ ١٩٢٢) دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، ١٩٩٦، ص٣٩ .

(١٣) نفسه : ص٤٠ .

(١٤) نفسه : ص٤١ .

(١٥) نفسه : ص٤١، ٤٢ .

(١٦) صلاح أحمدهريدى : دراسات فى تاريخ العرب الحديث، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠٨، ص٦٨ .

(١٧) نفسه : ص٦٩ .

(١٨) نفسه : ص٦٩، ٧٠ .

(١٩) نفسه : ص٧٠، ٧١ .
(٢٠) يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابى، دار البصائر، دمشق، ١٩٨٥، ص٥٦، ٥٨ .
(٢١) نفسه : صـ٦٠ .
(٢٢) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة / عدنان محمود سلمان، مراجعة محمود الأنصارى، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، تركيا، إستانبول، ١٩٨٧٨، صـ١٣٢، ١٣٣.
(٢٣) يوسف أصاف : المرجع السابق، صـ٦١، ٦٢.
(٢٤) أحمد عبد الرحيم مصطفى : فى أصول التاريخ العثمانى، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٣، ص٧٣ .
(٢٥) نفسه : ص٧٤ .
(٢٦) نفسه : ص٧٥ .
(٢٧) عمر عبد العزيز عمر : المشرق العربى، ٥٠، ٥١ .
(٢٨) جب، وبوون : المجتمع الإسلامى والغرب جـ١، ترجمة / أحمد عبد الرحيم مصطفى، مراجعة / أحمد عزت عبد الكريم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٠، ص٥٥، ٥٦ .
(٢٩) نفسه : ص٥٧ .
(٣٠) محمد ايشيرلى : نظم الدولة العثمانية، ضمن كتاب الدولةالعثمانية تاريخ وحضارته، جـ١، إشراف وتقديم / أكمل الدين إحسان أوغلى، نقله للعربية صالح سعداوى، استانبول، ١٩٩٩، ص١٤٩، ١٥٠ .
(٣١) نفسه : ص١٥١، ١٥٢ .
(٣٢) عبد العزيز محمد الشناوى، المرجع السابق، جـ١، ص٣٥٩، ٣٦٠ .
(٣٣) نفسه : ص٣٦٠، ٣٦١ .

---

(٣٤) نفسه : ص٣٩١ ــ ٣٩٢ .

(٣٥) نفسه : ص٣٩٣ .

(٣٦) نفسه : ص٣٩٣، ٣٩٥ .

(٣٧) عمر عبد العزيز عمر : المشرق العربى، ص٥٧، ٥٨ .

(٣٨) نفسه : ص٥٨، ٥٩ .

(٣٩) صلاح أحمد هريدى : دراسات فى تاريخ العرب، ص١٠٩، ١١١ .

(٤٠) محمد ايشيرلى : المرجع السابق، جـ١، ص٢٢٦، ٢٢٨ .

الفصل الثانى

التوسع العثمانى فى المشرق العربى

أولاً : ضم الشام ومصر والحجاز .

ثانيًا : العراق .

ثالثاً : اليمن .

الفصل الثانى
التوسع العثمانى فى المشرق العربى

أولاً- السيطرة العثمانية على الشام و مصر.

فى عهد السلطان قانصوه الغورى (٩٠٦- ٩٢٢هـ/ ١٥٠١- ١٥١٦م) اتجه العثمانيون بفتوحاتهم نحو الشرق، فقد كان الشرق محل اهتمام السلطان سليم منذ أن كان واليًا فى طرابزون، فقد شغله امتداد المذهب الشيعى لمنطقة الأناضول، لذا ركز سليم فى حروبه على محاربة القزلباش[١] فيها، كذلك اتجه إلى فارس، وهزم الصفويين فى موقعة جالديران فى (٩٢٠هـ/ ١٥١٤م)، واستولى على عاصمتهم تبريز[٢].

وعلى أثر ذلك تميزت العلاقة بين السلطان الغورى، والسلطان سليم بالود أحيانًا، والوعيد أحيانًا أخرى، ويرجع ذلك إلى طبيعة الخطر الصفوى، وممالأة السلطان الغورى للصفويين، فى الوقت الذى كانت فيه مراسلات سرية بين السلطان سليم، وخاير بك نائب الغورى فى حلب اتسمت بالصداقة، وقد حذر سيباى نائب دمشق الغورى من ذلك، وأطلعه على مراسلات خاير بك مع السلطان سليم، ولكن الغورى لم يتخذ أى إجراء ضد خايربك[٣]، وربما يرجع ذلك إلى الثقة التى أولاها الغورى لخايربك، وعدم توقع الأول أى اعتداء من قبل السلطان سليم فى يوم من الأيام.

ولكن العلاقة بين الغورى وسليم ازدادت سوءًا؛ بسبب التنافس على إمارة ذى القدر أو "ذلغادر" فى أعالى الشام، وقيام سليم بالاستيلاء عليها، وقتل حاكمها علاء الدولة عام (٩٢١هـ/ ١٥١٥م) لأنه كان مواليًا للمماليك، ويحظى بتأييدهم[٤] فما كان من الغورى ردًا على سليم إلا أن أوى الفارين

من الأخير، وعلى رأسهم الأمير قاسم أحد أبناء الأمير أحمد أخي السلطان سليم، والذى قتله الأخير بسبب الصراع على العرش، واتخذه أداة للتهديد[٥]، فما كان من السلطان سليم إلا أن رد عليه بإغلاق أسواق الرقيق التى كانت بمثابة المدد الطبيعى لقوة المماليك[٦] ومما تجدر الإشارة إليه أنه حتى ذلك الوقت لم تكن هناك حالة حرب بين الدولتين المملوكية والعثمانية.

ولكن سرعان ما لاحت فى الأفق بوادر الصدام بين المماليك والعثمانيين، فقد قام السلطان سليم بتجهيز حملة جديدة ضد أحد الأقاليم الصفوية عام ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م، فما كان من السلطان الغورى، إلا أن خرج قاصدًا البلاد الشامية والحلبية فى ١٣ ربيع آخر ٩٢٢هـ/ ١٦ مايو ١٥١٦م، وجعل طومان باى نائبًا عنه بالقاهرة إلى حين حضوره، واصطحب السلطان الغورى معه فى حملته هذه الخليفة العباسى المتوكل على الله، وقضاة المذاهب السنية الأربعة، وفى ٣ جماد أول ٩٢٢هـ/ ٤ يونيو ١٥١٦م، وصل الغورى فى تقدمه إلى غزة، ثم رحل بعد ذلك إلى دمشق، وتوجه بعدها إلى حمص، ثم وصل إلى حلب فى ٣٠ جماد أول ٩٢٢هـ/ أول يوليو ١٥١٦م[٧].

وقد وصلت أنباء تحركات السلطان الغورى إلى السلطان سليم، فدارت بينهما المراسلات لتجنب القتال، ولكن لم يكتب لها النجاح، فكان القتال بين الطرفين، ففى ٢٥ رجب ٩٢٢هـ/ ٢٤ أغسطس ١٥١٦م، التقى الجيشان المملوكى والعثمانى فى مرج دابق، وهزم المماليك فى هذه الموقعة بعد أن حققوا نصرًا أوليًا[٨]، وتوفى السلطان الغورى أثناء القتال[٩].

ويعود انتصار العثمانيين فى هذه الموقعة إلى تفوقهم العسكرى، واستخدام الأسلحة النارية التى كان يحتقرها المماليك، علاوة على الخيانة التى دبت فى صفوف المماليك، فقد كان خايربك يعمل علنًا لصالح

العثمانيين، فقد أشاع في المعركة أن السلطان الغوري قد مات، علاوة على خيانة جان بردي الغزالي نائب حماه من قبل السلطان الغوري، والذي ظهر أنه كان متواطئًا مع العثمانيين(١٠).

وبينما كان السلطان سليم يدعم سيطرته على كافة أجزاء الشام، اجتمع الأمراء المماليك العائدون من القتال، واتفقوا على اختيار طومان باي سلطانًا على البلاد؛ حتى يتمكن من تدعيم قوة المماليك الدفاعية لمواجهة العثمانيين، ولكنه رفض في بداية الأمر بحجة أن الجنود لن تقدر جسامة المسئولية، وستظل منقسمة إلى فئات متصارعة لا يهمها سوى المطالبة بالمزيد من الأموال في الوقت الذي تعاني في البلاد ضيقًا اقتصاديًا، وأنه لن يتمكن مع مرتبات الجند، ورغم ذلك أصر أمراء المماليك على تنصيبه سلطانًا خلفًا للأشراف قانصوه الغوري، فما كان منه إلا أن وافق مرغما بعد أن حلفوا له على المصحف ألا يخونوه ولا يثيروا ضده الفتن، وكان ذلك في ١٤ رمضان ٩٢٢هـ/ ١١ أكتوبر ١٥١٦م. وصار يلقب باسم أبو النصر طومان باي قانصوه الناصري(١١).

وفي ١٥ شوال ٩٢٢هـ/ ١٠ نوفمبر ١٥١٦ أثناء مقام سليم في دمشق أرسل لطومان باي خطابًا يعرض عليه الصلح شريطة أن يعترف الأخير بتبعيته للأول، فيقوم بدفع الخراج كل عام، وأن تكون الخطبة والسكة باسم السلطان العثماني أيضًا، وإذا وافق طومان باي على ذلك فسيكون نائب السلطان سليم في مصر، وتكون منطقة نفوذه من غزة إلى مصر، وفي حالة عدم موافقته فإن السلطان سليم سيدخل مصر، ويقتل جميع ما بها من المماليك، حتى الأجنة في بطون الحوامل، ولما قرئ هذا الخطاب على طومان باي بكى وأمر بقتل حامل هذا الخطاب(١٢).

كان من الطبيعى ألا يقبل طومان باى هذه الشروط، وألا يتراجع سليم عن التقدم نحو مصر، لأنه كان يعلم علم اليقين أن قاعدة المماليك الأساسية مصر وليست الشام، فلو أنه عاد إلى استانبول دون أن يغزو مصر، فمن المؤكد أن المماليك سيحاولون تجميع قواهم، والتحول من موقف الدفاع إلى موقف الهجوم، واستعادة الشام مرة أخرى[١٣]، كما أن غرض سليم من عرض الصلح على طومان باى كشف رد فعله، والذى سوف يتحدد عليه الخطوة القادمة.

وعلى ما سبق قرر سليم الزحف على مصر، والقضاء على نفوذ المماليك الجراكسة وشجعه على ذلك خايربك[١٤]، حتى لا ينتقم المماليك منه لدوره المتخاذل ضدهم فى مرج دابق، وحتى يستجلب رضا القوة العثمانية، عليه ويفوز بمنصب كبير، وخاصة بعد أفول قوة المماليك، وفى سبيل تحقيق ذلك أرسل كتبًا إلى أمراء مصر ومشاريخ العربان يرغبهم، فيها بالدخول فى طاعة السلطان سليم، وأن من يدخل فى طاعته فسوف يظل على وظائفه وأرزاقه[١٥]*.

وعلى هذا الأساس تحرك السلطان سليم من دمشق فى شهر ذى الحجة ٩٢٢هـ/ يناير ١٥١٧م، ثم وصل إلى يافا، ومنها إلى غزة ثم تقدم إلى العريش، ولما علم سليم بتجمع بعض قوات طومان باى عند الصالحية تجنبها وانحرف جنوبًا، واخترق صحراء سيناء، ثم وصل إلى بلبيس، فما كان من طومان باى إلا أن تحصن فى الريدانية، فحفر خندقًا على طول الخطوط الأمامية، وأعد أسلحته، ورغم هذه الاستعدادات فقد جبن المماليك – كعادتهم – حتى إن بعضهم كان لا يقيم بالريدانية إلا خلال النهار كى يراهم السلطان، ثم يعودون إلى القاهرة حيث يبيتون فى منازلهم، وهذا يفسر بالطبع مدى ما لقيه طومان باى من عنت فى سبيل إعداد جيشه لحرب العثمانيين[١٦]، وكان ذلك من أسباب هزيمة المماليك فى المعركة القادمة، وهناك سبب آخر: وهو

حينما علم السلطان طومان باى وهو فى الريدانية بتقدم العثمـانيين أراد أن يهاجمهم فى الصالحية، وهم فى حالة إعياء بعد عبـور الصـحراء، ولكـن الأمراء المماليك غلبوه على أمره، وأصروا أن يكون القتال فـي الريدانيـة؛ ظنًا منهم بأن الخندق الذى أعدوه كفيل بحمايتهم، ولو أنهـم عملـوا بـرأى طومان باى ربما تغير الموقف لصالحهم[١٧].

وفى ٢٩ ذو الحجة ٩٢٢هـــ/ ٢٣ ينـاير ١٥١٧م تلاقـى الجيشـان المملوكى والعثمانى فى أوائل الريدانية، ودارت بينهما معركة عنيفة، وقتـل من الطرفين أعداد كبيرة، وقصد السلطان طومان باى صنجق السلطان سليم يريد قتله، ولكنه قتل الصدر الأعظم[١٨] سنان باشا ظنًا أنـه سـليم، ودارت رحى المعركة بين الطرفين، وفى النهاية رجحت كفة العثمانيين لأنهم جاءوا أفواجًا، ثم انقسموا فرقتين: فرقة جاءت من تحت الجبـل الأحمـر، وفرقـة جاءت للعسكر عند الوطاق[١٩]، بالريدانية وضربوهم بالأسلحة النارية، وقتل عدد لا يحصى من المماليك، أما السلطان طومان باى فظل يقاتل بنفسه ومعه قليل من جنوده، فقتلوا عددًا كبيرًا من العثمانيين، ولكن لما تكـاثرت عليـه الجنود العثمانيين، ورأى أن جنوده قد قلوا من حوله طوى الصنجق السلطانى وتوجه إلى طرة حتى لا يقع فى الأسر[٢٠].

وبعد هزيمة المماليك فى الريدانية دخل العثمانيون القاهرة فـى ٣٠ ذى الحجة ٩٢٢هـ/ ٢٣ يناير ١٥١٧م، ودخل الخليفة المتوكل على الله المدينة فى صحبة وزراء سليم، وخايربك، وقضاة المذاهب السنية الأربعة الذين قـد أسرهم سليم فى مرج دابق، ونودى بالأمان بهدف إسباغ الشرعية على الحكم العثمانى، وتهيئة الجو لدخول السلطان سليم القاهرة، وفى الثالث من محـرم ٩٢٣هـ/ ٢٦ يناير ١٥١٧م دخل سليم القاهرة فى موكب عسكرى مهيـب، واتجه بموكبه إلى معسكره الجديد فى بولاق بعد أن نقل من الريدانية[٢١].

على الرغم من هزيمة طومان باى فإنه لم ييأس من تحقيق أدنى انتصار، فباغت السلطان سليم فى بولاق ليلة ٥ محرم ٩٢٣هـ/ ٢٩ يناير ١٥١٧م، وضيق عليه الخناق، وأعمل السيف فى الجنود العثمانيين، وأخذ وجنوده يرجمون وطاق سليم بالمقاليع، واستمروا على ذلك حتى مطلع النهار، ولما أحس الأمراء المماليك المختفين بتفوق طومان باى على العثمانيين خرجوا من مخابئهم وانضموا إليه، ووقعت معركة عنيفة، انتهت بانتصار طومان باى، واستيلائه على بعض أجزاء من القاهرة[٢٢]؛ ونتيجة لذلك قويت الروح المعنوية عند المماليك، وأخذوا يبحثون فى المنازل والحارات عن العثمانيين، ومن ظفروا به قتلوه، وحث السلطان طومان باى العوام على مداهمة العثمانيين أينما وجدوا، واتخذ من مسجد شيخو مركزًا لعملياته الحربية، وما كاد يحل يوم الجمعة ٧ محرم ٩٢٣هـ/ ٣٠ يناير ١٥١٧م حتى كانت الخطبة فى مساجد القاهرة للسلطان طومان باى[٢٣].

ولكن بعد فترة اشتد القتال فلم يتحمل المماليك الجراكسة ذلك، فما كان منهم إلا أن اختفوا فى بعض المساجد، والمنازل والاصطبلات خوفًا على أنفسهم من سطوة العثمانيين، ومن ثم تمكن العثمانيون من استعادة بولاق مرة أخرى، ووجد طومان باى نفسه يقاتل فى نفر قليل فأدرك استحالة النصر فهرب إلى البهنسا[٢٤]، وعلى ذلك واصلت القوات العثمانية عمليات التصفية للمماليك خشية أن توجد قوات للمقاومة، فهاجموا المساجد والحارات والبيوت، والمدارس، والمزارات، وقبضوا على حوالى ثمانمائة من المماليك فضربت أعناقهم جميعًا أمام السلطان سليم، وفى النهاية خضعت القاهرة للعثمانيين بعد قتال مرير استمر قرابة ثمانية أيام أريقت فيه الكثير من الدماء من الطرفين[٢٥].

وفى محاولة يائسة من طومان باى لكسب المؤيدين أعلن إلغاء ضريبة الخراج لمدة ثلاث سنوات؛ فهرع لتأييده عدد من الفلاحين والعربان، ولكن

الخيانة أخذت تدب فى صفوف طومان باى؛ فهرب الغزالى ومعه عدد من أمراء المماليك وانضم إلى العثمانيين طمعًا المكافأة، وانضم إلى العثمانيين جانم السيفى كاشف الفيوم بعد أن وعده السلطان سليم بإعطائه الفيوم إقطاعًا له، مما تسبب ذلك فى إضعاف جبهة طومان باى(٢٦).

وكان السلطان قد عرض على طومان باى حكم الصعيد تحت السيادة العثمانية؛ كى يبعده عن مركز الأحداث فى القاهرة، ولكن سليم لم يكن صادقًا فى ذلك؛ لأن هدفه كان كسب الوقت، خاصة وأنه وعد خايربك بحكم مصر كمكافأة له على خيانته للمماليك، كما كان سليم يعلم جيدًا أنه لو فعل ذلك فسوف يشق طومان باى عليه عصا الطاعة، كما سيسبب العديد من الاضطرابات لوالى مصر لبعد الصعيد عن السلطات الحاكمة فى القاهرة، وكان طومان باى قد رفض هذا العرض من قبل(٢٧).

ولما استبد به الحزن والأسى لكثرة ما لقى من متاعب أرسل إلى سليم يفاوضه فى الصلح، وبعث له بكتاب مع قاضى البهنسا جاء فيه "إن كنت تروم أن أجعل الخطبة والسكة باسمك وأكون نائبًا عنك بمصر حسبما يقع الاتفاق عليه بيننا من المال الذى أحمله لك كل سنة، فارحل عن مصر أنت وعسكرك إلى الصالحية، وصون دماء المسلمين بيننا ولا تدخل فى خطيئة أهل مصر من كبار وصغار، وشيوخ، وصبيان، نساء، وإن كنت ما ترضى بذلك، فاخرج ولا قينى عند بر الجيزة ويعطى الله النصر لمن يشاء"(٢٨).

وافق السلطان سليم على الصلح وكتب اتفاقًا بذلك وقع عليه الخليفة والقضاة الأربعة، وذهب الوفد المرسل من قبل السلطان سليم، ما عدا الخليفة أرسل دواداره(٢٩)، ولكن حدث ما عرقل تنفيذ هذا الاتفاق، إذ خرجت جماعة من أنصار طومان باى، وقتلوهم ما عدا دوادار الخليفة، من هنا أيقن سليم أن

طومان باى لم يكن جادًا فى طلب الصلح، وانتقم لمقتل الوفد بأن أخراج أمراء المماليك المسجونين بالقلعة، وقتلهم واستعد للحرب(٣٠).

وبناء على ما سبق بانت نية الطرفين مواصلة القتال، ففى ٦ ربيع أول ٩٢٣هـ/ ٢٩ مارس ١٥١٧م عبر سليم نهر النيل إلى الجيزة للقاء طومان باى، ومكث العثمانيون أربعة أيام فى الجيزة، ثم زحفوا بعدها للقاء المماليك، وعند وردان التقى الجيشان، ودارت بينهما معركة عنيفة انتهت بانتصار العثمانيين على المماليك، بفضل استخدام الأسلحة النارية، وعلى أثر ذلك فر طومان باى هاربًا مع ما بقى من قواته إلى تروجه بالبحيرة فلاقاه حسن بن مرعى وابن عمه شكر شيوخ عرب محارب بالبحيرة فى ضيعة تسمى البوطة، وأخرج طومان باى مصحفًا وحلفهما عليه ألا يخوناه بعدها طاب قلب طومان باى، ووافق على الإقامة عندهما(٣١).

وعندما تدبر ابن مرعى الأمر تراءى له خطور إيواء طومان باى، وأيقن أنه يقف إلى جانب الكفة الخاسرة، وحدثته نفسه بالخيانة وشجعه على ذلك ابن عمه شكر، فما كان من ابن مرعى ألا أن أرسل للسلطان سليم يعلمه بوجود طومان باى لديه، فأرسل إليه جماعة من عسكره قبضوا عليه، وتوجهوا به إلى السلطان سليم، وأما الأمراء الذين كانوا مع طومان باى فقد تفرقوا فى البلاد(٣٢).

دخل طومان باى على سليم، فقام له الأخير ورحب به، ودار بينهما حوار طويل، عاتب فيه سليم طومان باى على قتله الوفد الذى أرسله لمفاوضته فى الصلح، ولكن طومان باى نفى هذه التهمة وأخذ يمجد فى نفسه، وأوضح للسلطان سليم أنه لولا الخيانة ما تمكن هو وغيره من انتزاع بلاد الشام ومصر من المماليك(٣٣)، وإزاء ذلك أعجب سليم بشجاعة طومان

باى وتردد فى اتخاذ أى قرار بشأنه، ووضعه فى السجن داخل معسكره بإمبابة[٣٤]*.

ولكن إيقاء سليم على حياة طومان باى كان من شأنه أن يهدد وجود جان بردى الغزالى، وخايربك، وعليه فقد أخذا على عاتقهما اقناع سليم أنه ما دام طومان باى على قيد الحياة، فلا بقاء لملكه بمصر والشام، وأخيرًا وافق على إعدامه فى ١١ ربيع أول ٩٢٣هـ/ ٢٣ أبريل ١٥١٧، على باب زويلة[٣٥].

أما الموقف بالنسبة لحسن بن مرعى وابن عمه شكر، فنجد أن إينال طراباى كاشف الغربية، وجانم السيفى كاشف البهنسا والفيوم، قد قبضا عليهما لأنهما أبلغا سليم عن مكان وجود طومان باى، وسلماه إليه ليقتله، فثأرا منهما وشربا من دمهما[٣٦].

بعد أن خضعت مصر بصورة نهائية للسلطان سليم، قرر العودة إلى استانبول لمباشرة أحوال دولته داخليًا وخارجيًا[٣٧]، ولكن قبل مغادرته كان له موقف من المماليك، فلم يكن هدفه القضاء عليهم نهائيًا، وذلك تمشيًا مع سياسة الدولة العثمانية فى حكم الشعوب التى خضعت لها، فهى لم تغير كثيرًا من نظم البلاد المفتوحة، لأن المماليك كانوا أدرى بشئون البلاد من العثمانيين، ورأى سليم ومن بعده سليمان (٩٢٧- ٩٧٣هـ/ ١٥٢٠- ١٥٦٦م) أن بقاء المماليك للاشتراك فى حكم البلاد سوف يكون عنصر موازنة بين الباشا ورجال الحامية العسكرية[٣٨].

وعلى هذا الأساس قام السلطان سليم بعزل يونس باش من نيابة السلطنة بمصر، وولى حكم مصر خايربك المملوكى بدلاً منه، وذلك فى ١٣ شعبان ٩٢٣هـ/ ٣١ أغسطس ١٥١٧[٣٩]، وظل يحكم مصر حتى وفاته سنة ٩٢٨هـ/ ١٥٢٢م ولم تمنح مصر إقطاعًا له كما ذكر بعض المؤرخين[٤٠]؛

لأن خايربك كان يتلقى أمرًا سنويًا من السلطان سليم باستمرار نيابته على مصر وكذلك فى عهد السلطان سليمان المشرع[٤١].

أما الموقف بين خاير بك والمماليك فكان وديًا، بدليل أن السلطان سليم استجاب لاقتراح خاير بك بإعلان عفو عام عن المماليك[٤٢]، وسمح لهم بركوب الخيل وشراء السلاح والتزى بزى المماليك لا العثمانيين[٤٣]، ويقول ابن إياس "نادى خايربك فى القاهرة بأن المماليك الجراكسة تظهر وعليهم أمان الله تعالى، فظهر منهم الجم الغفير، وهم فى أسوأ حال فى زى الفلاحين وعليهم زموط قرع وبرد سود، وقمصان بأكمام كبار، فإذا رأهم أحد لا يفرق بينهم وبين الفلاحين"[٤٤]. ومن وصف ابن إياس للمماليك، نجد أن أرزاقهم ومرتباتهم قد انقطعت، فما كان من خايربك إلا أن عين لكل منهم علوفات[٤٥] وأرزاق حسب درجاتهم كل شهر، ولكنها بدأت تتأخر فيما بعد حيث شرع فى توزيع العلوفات والأرزاق كل شهرين أو ثلاثة، وكان خايربك يهدف من وراء ذلك إبقاء المماليك فى حاجة دائمة وتحت سيطرته دائمًا[٤٦].

ومن ناحية أخرى فقد خصص لجميع الأمراء المماليك – عدا المقدمين[٤٧]، علوفات وتعيينات شهرية، حيث عين لكل أمير من أمراء الطبلخانة[٤٨] (٤٠٠) دينار[٤٩]، ولكل من أمراء العشروات[٥٠] (٢٥٠) دينار، علاوة على منحهم بدل مقاطعة وبدل لحوم، وعليق نقدًا، أما الأمراء المقدمون الذين لم يستبعدوا إلى استانبول وبقوا فى مصر، فقد عينوا على كشوفيات مصر المختلفة، أو كلفوا بمعاونة خايربك فى تسيير شئون الولاية، كما خصص خايربك معاش تقاعد للمسنين والضعفاء من بقايا المماليك[٥١]، كما سمح باستمرار أوقافهم التى كانوا قد أوقفوها على المساجد[٥٢].

وعلى هذا الأساس ظهر المماليك مرة أخرى، فقد استعان بهم خايربك فى قمع الانكشارية، والسباهية الذين تمردوا على أوامر السلطان سليم

القاضية بإعادتهم إلى الأناضول؛ لإثارتهم المتاعب للسلطة فى مصر، وتم إرسالهم بالفعل، كما انضم المماليك إلى الحامية العثمانية، فكون العثمانيون أوجاق الجراكسة من المماليك الذين أظهروا خضوعًا للسيادة العثمانية، كما أن المماليك كانوا عصب أوجاق المتفرقة الذى كونه العثمانيون عام ٩٦٢هـ/ ١٥٥٤م(٥٣) .

وقد ازداد وضع المماليك أهمية فى عهد خايربك، فقد تولوا المناصب المهمة كالكشوفيات(٥٤) وفى عام ٩٢٤هـ/ ١٥١٨م عين الزينى بركات بن موسى المحتسب(٥٥) أميراً للحج، وفى عام ٩٢٥هـ/ ١٥١٩م عين برسباى أحد مماليك خايربك أميرًا للحج لتأمين سلامة الحجاج ورد اعتداء البدو عنهم، وقد عين فى السنوات الثلاث التالية (٩٢٦- ٩٢٧- ٩٢٨هـ/ ١٥٢٠- ١٥٢١- ١٥٢٢م) الأمير جانم السيفى كاشف البهنسا والفيوم فى عهد السلطنة المملوكية وفى عهد خايربك، أميرًا للحج، أما الإدارة المالية فقد استمر موظفو العهد المملوكى السابق من أسرة أولاد الجيعان يشرفون على تسيير الأمور بها(٥٦).

لم يقم المماليك فى مصر برفع راية العصيان ضد الإدارة العثمانية أثناء فترة ولاية خايربك؛ لأن الأخير كانت لديه الخبرة والدراية فى التعامل معهم، وعرف كيف يتمكن من تحجيم نفوذهم، ولكن بعد وفاته عام ٩٢٨هـ/ ١٥٢٢م، وتعيين مصطفى باشا واليًا على مصر (٩٢٨- ٩٢٩هـ/ ١٥٢٢- ١٥٢٣م) لم يقبل الأمراء المماليك تعيين والى عثمانى، فرفعوا راية العصيان، فكانت أول الحركات الثورية ضد الإدارة العثمانية بزعامة قانصوه بك.

بعدما وصل الوزير الثانى مصطفى باشا إلى مصر قادمًا من جزيرة رودس، بدأت عناصر من الجراكسة تفكر فى إعادة دولة المماليك إلى سابق

عهدها، بزعامة قانصوه بك أمير آخور[٥٧] خايربك، وأمين الخزينة دار، وقائد فرقة التوفكجية، وكان هدف هذه الحركة التى قادها قانصوه بك قتل ممثل السلطان فى مصر، وإعلان تشكيل السلطنة المملوكية مرة أخرى، كما كان مخططًا لها تعيين إدارى الجراكسة القدامى كل فى منصبه حسب النظم المملوكية القديمة، ولكن الإدارة العثمانية فى مصر بمجرد وصولها الأخبار المؤكدة عن هذه الحركة حاصرتها، وتمكنت من القضاء عليها وإعدام العصاه[٥٨].

وبعد القضاء على حركة قانصوه بك، قامت جماعة من الأمراء المماليك يتزعمهم جانم السيفى أمير الحج، وكاشف البهنسا والفيوم فى نفس الوقت، وإينال كاشف الغربية، بجمع قوة تقدر بنحو عشرين ألفًا، وأعلنت عصيانها[٥٩]، فى نفس الوقت شرع الثوار فى جذب طوائف المجتمع الأخرى للانضمام إلى هذه الحركة بشتى الطرق، فأرسلوا الخطابات لمشايخ العربان، والأعيان وأهالى مصر أعلنوا فيها إعفاءهم من خراج عام كامل، وأنهم سوف يخفضون الضرائب التى ستجبى فيما بعد بمقدار النصف، وبذلك استطاع العصاة كسب قطاع كبير من المستفيدين والاتباع[٦٠].

ومما شجع جانم السيفى على العصيان أنه قد وصل إلى ما يرمى إليه من رفعة المقام لدى الأستانة، حيث عين كاشفًا على البهنسا والفيوم مدى الحياة، كما تولى إمارة الحج لعدة أعوام متتالية، فجمع ثروة عظيمة، وأصبح صاحب نفوذ كبير فى فترة وجيزة[٦١]، ومما شجع كل من جانم وإينال على العصيان أيضًا، وفاة السلطان سليم، وتولى السلطان سليمان الصغير السن، فكيف يتسنى لهما أن يطيعاه؟[٦٢].

وفى محاولة لتجنب القتال قام الزينى بركات المحتسب بالتوسط بين مصطفى باشا والمماليك الثائرين، وحصل من الأخير على كتاب بالأمان لهم،

إذا ما عادوا إلى الطاعة، ولكن إينال السيفى إتهم الزينى بركات بخيانة المماليك، وتأييده للعثمانيين فقتله[٦٣].

ونتيجة لذلك قرر مصطفى باشا القضاء على الثائرين، وكانت أولى الخطوات التى اتخذها، هى إرسال الرسل إلى الأمراء الجراكسة، ومشايخ العربان؛ يدعوهم لمناصرته ويخطرهم بأنه قرر تخفيض الضرائب على الأهالى، فأحدث هذا القرار رد فعل ضد الثائرين[٦٤].

أما الخطوة الثانية التى اتخذها مصطفى باشا، فهى قيامة بتجهيز جيش بقيادة أغا الانكشارية[٦٥]، للقضاء على الثائرين الذين تجمعوا فى الشرقية بعد أن تلقوا وعودًا من بعض أمراء المماليك فى القاهرة وخارجها بتأييدهم، ولكن يبعد عدة أيام من الانتظار تبين للثائرين كذب وعودهم، وقد استفاد مصطفى باشا من هذا الانتظار، فنظم الحملة ضد الثائرين، وخرج أغا التفكجية مع أغا الانكشارية، ودعمت الحملة بالأسلحة النارية، ودارت المعركة فى الشرقية، وقتل جانم، وأرسلت رأسه إلى السلطان، أما إينال فقد فر إلى غزة، علاوة، على فرار بعض العناصر الأخرى البارزة[٦٦].

ولم تتوقف محاولات الأمراء المماليك عند هذا الحد، فقد كان لهم دور واضح فى ثورة أحمد باشا (٩٣٠- ٩٣١هـ/ ١٥٢٤- ١٥٢٥م) المعروف بالخائن[٦٧]، الذى كان معاديًا لإبراهيم باشا لتوليه منصب الصدارة العظمى، ونتيجة لذلك ازدادت حدة الشقاق بينهما، فأخذ إبراهيم باشا يدبر المؤامرات ضده، فبعث برسالة إلى الأمراء المحافظين فى مصر للقضاء على أحمد باشا، وتعيين قائمقام[٦٨] إلى أن يتم تعيين والى جديد مكانه، ولكن هذه الرسالة وقعت فى يد أحمد باشا قبل أن تصل إلى الأمراء المحافظين؛ فكانت ثورته[٦٩].

وتمثلت تلك الثورة فى أنه عمل على إعادة العناصر المملوكية إلى سابق عهدها، وبذل أقصى ما فى وسعه كى يوحد جهوده مع بقايا العناصر المملوكية، وأرغم الخليفة العباسى والقضاة الأربعة على المبايعة له بالسلطنة، ثم أعلن نفسه سلطاناً على مصر، وأمر أن تكون الخطبة والسكة باسمه(٧٠).

وكان على رأس المعارضين لأحمد باشا من المماليك جانم الحمزاوى ومحمود بك، فقام أحمد باشا بحبسهما فى القلعة كى يتخلص منهما، ولكنه أخرهما لأجل غير مسمى، ولما نما إلى علمهما دخول أحمد باشا الحمام، هربا من الحبس، ثم نصبا صنجقًا سلطانيًا، ونا‌ديا من أطاع الله ورسوله والسلطان فليقف تحت هذا الصنجق، فتجمع تحت هذا الصنجق عدد كبير، وسار سردارهم (قائدهم) جانم الحمزاوى، ومحمود بك، فتوجها بالعسكر إلى الحمام، فهجم عليه فيه، فما كان منه إلا أن فر هاربًا، فنهبوا جميع ما عنده ثم تتبعوه فأدركوه بمنية جناج فقتلوه، وقطعوا رأسه وأرسلوها إلى استانبول(٧١).

وبعد القضاء على أحمد باشا الخائن قدم الصدر الأعظم إبراهيم باشا إلى مصر فى سنة ٩٣١هـ/ ١٥٢٤م، لينظم أمورها ويوطد السلطة العثمانية فيها، بإصدار قانون نامه مصر(٧٢)، وعن طريق إصدار هذا القانون تمتعت مصر بفترة من الاستقرار.

وقد تلقى السلطان سليم وهو فى مصر وفداً أرسله الشريف بركات شريف مكة، الذى قدم إليه الخضوع، فأقره سليم فى شرافته وحرّضه على قتل حاكم جدة المملوكى. وأبقى سليم على نظام الشرافة كما كان من قبل مع إنشاء صنجقية عثمانية فى جدة أطلق عليها العثمانيون اسم ولاية الحبش. وعين عليها حاكماً عثمانياً يدعى حسين الرومى وكان مرتبطاً بوالى مصر

خاير بك. وهكذا ظهر العثمانيون فى البحر الأحمر وأخذوا يعملون على إنقاذ هذا البحر من الخطر البرتغالى الزاحف من المحيط الهندى. ولما كان هدف السياسة العثمانية فى البحر قائماً – كما يرى بعض المؤرخين المحدثين – على أساس إحياء تجارة الشرق فى البحر الأحمر ومصر. وصنع سليم كما فعل فى دمشق كسوة للمحمل الشريف، مما أكسبه عطف المسلمين. وقد ترك من عسكره الذى خاير بك نحو خمسة آلاف فارس ونحو خمسمائة رام بالبندق، وعين أميراً عثمانياً هو خير الدين باشا نائباً على قلعة القاهرة. ثم غادر سليم مصر فى ٢٣ شعبان عام ٩٢٣هـ / ١٠ سبتمبر ١٥١٧م متجهاً إلى دمشق. وكان قد خرج قبل ذلك إلى إستنابول الخليفة العباسى محمد المتوكل على الله بناء على أوامر سليم . ويبدو أن إخراج الخليفة من مصر قصد منه عدم تمكين أي تأثير محلي من استغلال سلطته الدينية ضد العثمانيين . كما أن إقامة الخليفة في استانبول يضفي عليها مجدًا دينيًا كمركز لزعيم المسلمين. ولم تذكر المصادر المحلية بعد ذلك، ما حل بالخليفة العباسي أو بخلفائه.

وفي الطريق أعدم وزيره الأعظم يونس باشا . ويقال أن يونس تأثر كثيرًا بعد عزله من ولاية مصر ولم يتمكن من كتم غيظه فخاطب السلطان قائلاً : " إن نصف الجيش دفن في رمال الصحراء ثم تم فتح مصر، ولو كان عبيدك يعرفون أن مصر ستعهد إلى مملوك خائن لما تبعوك " . ولم يكن السلطان يتوقع هذا الكلام الذي جعله يفقد أعصابه فأوقف فرسه وأمر الجلاد بإعدامه قرب الخان الذي بناه للمسافرين السلطان المملوكي خليل بن قلاوون على الحدود المصرية الحجازية. ودفن يونس داخل الخان الذي عرف منذ ذلك الوقت بـ (خان يونس) .

وبقى السلطان العثماني وحده زعيم المسلمين، رغم أنه لم يتخذ لقب خليفة، بشكل جدي حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وذلك في عهد

السلطان عبد الحميد الثاني، وباستيلاء العثمانيين على مصر ورثوا السلطنة المملوكية ومسئولياتها في حماية الحرمين الشريفين، وأصبحت بذلك زعيمة المسلمين السنيين (٧٣).

وهناك مسألة ترتبط بالفتح العثماني لمصر هى ما يقال من أن المتوكل أخر الخلفاء العباسيين في القاهرة قد تنازل لسليم عن الخلافة. ورغم وجود أسطورة قديمة، تساندها إشارات في الحوليات المعاصرة، إلى كل من استانبول وأدرنة باعتبارهما قاعدة "الخلافة"، إلا أن المصادر المعاصرة لا تشير إلى مسألة نقل الخلافة إلى آل عثمان الذين لا ينتسبون إلى الرسول . على أن أمراء مسلمين كانوا قد ادعوا قبل ذلك بالخلافة، وكان بعضهم معاصرين لبعضهم الآخر . وحينئذ كان لقب الخلافة قد اتخذ معنى جديدًا : فلم يعد يتطلب الانتماء إلى آل العباس، ولا الادعاء بالانتساب لقريش ـ إذ أصبح العاهل المسلم حينئذ يستمد سلطته من الله مباشرة لا من كونه خليفة لرسول الله . وهكذا ادعى مراد الأول بالخلافة، وكذلك الحال بالنسبة إلى مراد الثاني . ورغم أن محمد الفاتح لم يستعمل اللقب في رسائله الخاصة سواء للملوك المعاصرين أو لرعاياه، فإن سليم الأول أطلق على نفسه لقب " خليفة الله في طول الأرض وعرضها" منذ عام ١٥١٤ ـ أى قبل فتحه للشام ومصر وإعلان الحجاز خضوعه لآل عثمان. فسليم وأجداده كانوا قد أحرزوا مكانة تلائم إستعمال لقب الخلافة فى الوقت الذى كان فيه مركز الخليفة فى القاهرة لا يعتد به. وهم قد أحرزوا عظمتهم بالسيف والجهاد، كما أن فتوح سليم جعلته أقوى حاكم مسلم معاصرة فقد شملت إمبراطوريته بلاداً لم يسبق لأى خليفة أن مارس فيها سلطة فعلية، كما أعلى مكانته دخول مكة والمدينة ضمن ممتلكاته، خاصة وأن قوة الدولة العثمانية فى عهده جعلت مسلمى العالم يتطلعون إلى مساعدته بعد أن تعدى البرتغاليون على الموانئ الإسلامية فى شرقى إفريقيا وفى البحار الجنوبية، وتعقب الأسبان المسلمين الأندلسيين

الفارين إلى شمالى إفريقيا، وكان يخشى أن ملك البرتغال ينوى هدم المدينة المنورة ونبش قبر الرسول. وملخص القول أن السلطان سليم لم يكترث بلقب الخلافة الذى فقد أهميته، ولم يحاول أحد فى ديوان دولته أن يقيم له وزناً. أما الخليفة المتوكل العباسى فقد إنتقل إلى الآستانة ثم ما لبث أن عاد منها إلى القاهرة بعد وفاة سليم، ومارس صلاحياته بصفته ((خليفة)) : ففى عام ١٥٢٣ عين سلطاناً لمصر – كما فعل أجداده من قبل – عندما ثار الوالى أحمد باشا ضد السلطان سليم وإستقل لفترة قصيرة. وهذا آخر عمل سجل عن المتوكل وإن يكن قد ظل يقيم فى القاهرة حتى وفاته عام ١٥٤٣.

على أن سلاطين آل عثمان لم يهتموا بلقب الخلافة إهتماماً جدياً إلا بعد أن أصاب دولتهم الضعف الواضح منذ أوائل القرن الثامن عشر، وبخاصة بعد عقد معاهدة كوجوك قينارجه التى سمحت فيها روسيا للسلطان بالإبقاء على بعض الصلاحيات الدينية فى شبه جزيرة القرم – التى إحتلتها روسيا – بإعتباره خليفة للمسلمين، وهو إدعاء أقره الروس وإن لم يقره الفقهاء المسلمون(٧٤).

ثانياً : العراق

كان السلطان سليم الأول قد إستولى بعد إنتصاره على الشاه إسماعيل الصفوى فى موقعة جالديران عام ١٥١٤ على مناطق الأكراد فى شمالى العراق وعلى مدينة الموصل الهامة. وبقى وسط جنوب العراق بمدنه الهامة مثل بغداد والبصرة فى يد الصفويين حتى وفاة الشاه إسماعيل عام ١٥٢٤. ووضعت إدارة بغداد تحت إشراف واحد من إلقزل باش الذى عينه الشاه فى ذلك الوقت، بينما كان يحكم ميناء البصرة البعيد رؤساء القبائل العربية.

وفى ١٥٢٤ مات الشاه إسماعيل، تاركاً خليفة له طفلاً فى العاشرة من العمر، وهو ابنه البكر طهماسب. وسرعان ما يدخل زعماء قبيلة القزلباش فى نزاع فيما بينهم سعياً إلى ممارسة السلطة باسم الشاه الجديد. وهكذا تجد إيران نفسها غارقة فى فترة من القلاقل الداخلية ليس من شأنها إلا أن تدخل السرور على أفئدة العثمانيين المتحررين من أى قلق فى هذه الناحية فى الوقت نفسه، وكانوا يؤكدون عدم إستعدادهم لعقد أى إتفاق مع الصفويين، وسخروا منهم، ووضح ذلك فى الرسالة التى أرسلها السلطان سليمان القانونى ١٥٢٥م إلى طهماسب الذى تولى بعد وفاة والده، وعرض عليه أن ينزع التاج عن رأسه ويرتدى ثوب الدراويش كما فعل أسلافه.

وفى عام ١٥٢٩ حدث تمرد ضد الصفويين في العراق الأوسط بقيادة ذو الفقار بك وهو أحد أعيان بدو لورستان الرحل وإستطاع أن ينتصر على الصفويين فى إحدى المعارك الجبلية ودخل بغداد، وأعلن قطع علاقاته مع الصفويين، وذلك بتأييد الأهالى له، وأرسل مفتاح بغداد إلى السلطان سليمان، وأمر له بالدعاء فى المساجد، ونقش اسمه على النقود العراقية، وطلب مساعدته وحمايته، ولكن أرسل طهماسب جيشاً صفوياً فى عام ١٥٣٠م، فحاصروه وقتلوه عن طريق أحد أشقائه الذى خانه، وعينوا بدلاً منه والٍ جديد، وفى عام ١٥٣١ ينتقل الوالى الصفوى على أذربيجان الذى خابت طموحاته، إلى الأراضى العثمانية، ويمثل أمام الباب العالى حيث يتمكن من إغراء إبراهيم باشا، وكان الكره الذى يكنه لشريف بك أمير بدليس، قد جر إلى ضياع هذا الأخير – الذى سوف يطلب مدفوعاً بضغط الظروف – عون الشاه للدفاع عن إمارته. ولم يكن طهماسب حكيماً فى تورطه فى هذه المسألة التى إنتهت نهاية شديدة السوء بالنسبة لشريف بك[٧٥].

أما فى الجنوب، فكان الحنين إلى العثمانيين يتخذ مظهراً أقوى، فقد إنتظرهم الناس كمنقذين لهم من نهب ((الفرنجة)) وإغتصابهم وخاصة بعد أن

قصف البرتغاليين مدينة البصرة فى عام ١٥٢٩ وأحرقوا الكثير من القرى العراقية : بعد إنهيار السلطنة المملوكية فى مصر أصبح العثمانيون هم الأمل الوحيد لإنقاذهم. وخاصة بعد أن أثبتت الأحداث أن هناك إتفاقاً بين البرتغاليين والصفويين وبدأ الحكام المحليون يبعثون بالرسائل والوفود إلى السلطان سليمان طالبين منه المساعدة.

ولهذا فإن كل الأسباب كانت تدعو سليمان إلى القيام بحملة ضد الشاه فدامت هذه الحرب المسماة ((حرب العراقين)) سنتين. ولم ينتج عنها لا هزيمة الصفويين. ولا إنقراضهم، ولكنها ستمنح العثمانيين ممالك شاسعة سيحافظون عليها طيلة أربعة قرون.

ووجد العثمانيون أسباب مزدوجة لإعلان الحرب : وهى خيانة ((شرف خان)) باى بدليس لحساب الشاه، وإغتيال الوالى الصفوى الذى كان قد تخلى عن الشاه والذى بعث إلى سليمان مفاتيح المدينة، وإعتبر السلطان أنه بصفته المالك بهذه المفاتيح، فهو المالك الوحيد للمدينة، وأن إحتلال طهماسب لها مرة أخرى بعد مقاومته لسليمان جبراً لبغداد على الإرتماء فى أحضان البدعة الشيعية. وفى خريف عام ١٥٣٣م، وبعد إستعدادات طويلة خرج إبراهيم باشا بصفته سر عسكر (قائد عام للجيش) نحو بدليس، وأذربيجان الإيرانى، ووجد الجند عبر الأناضول وأذربيجان صعوبات جمة، سببها قسوة المناخ، والتضاريس الجبلية الوعرة. ولكنهم لم يقاتلوا إلا قليلاً. ولم يصل إبراهيم بعد إلى قونية حتى وصله رأس بدليس الثائر، بعث به إليه والى أذربيجان الذى طهماسب، وبعد ذلك أعلن قواد القلاع الصفوية فى جهة بحيرة فان وأنهم خاضعون للسلطان. وعند ذلك إتجه إبراهيم ووحداته نحو حلب حيث قضوا فصل الشتاء ولو أراد الزحف على بغداد لكان فى إمكانه الإستحواذ عليها. وكان العثمانيون قد وصلوا كركوك والموصل ومن العجب أنهم لم يبادروا بتحقيق حلمهم القديم المتمثل فى الإستيلاء على عاصمة العباسيين. فهل إقتنع

إبراهيم بتنفيذ هذه الخطة بسبب مناورات خصمه إسكندر جلبى وزير المالية الذى ربما دفعه إلى تحقيق هذه الخطة المفضية إلى الكارثة ؟ أو أنه خضع لضغوط المنشقين الصفويين الذين تحصلوا مسبقاً على ولايات ببلاد فارس ؟ ثم ألم ير أنه في إمكانه أن يستولى من دون صعوبات كبيرة على قم وقاشان والرى وبعد ذلك الإستحواذ على بغداد ؟(٧٦).

وفى الواقع إتجه العثمانيون نحو تبريز وقدم شيوخ القبائل وقواد الحاميات ولاءهم الواحد بعد الآخر. وفى يوم ١٦ يوليو سنة ١٥٣٤م دخل إبراهيم فى موكب حافل عاصمة الإمبراطورية الصفوية تبريز التى غادرها طهماسب متخلياً عنها – كما فعل الشاه إسماعيل الصفوى عقب موقعة جالديران فى سنة ١٥١٤م وبنى إبراهيم قلعة، وركز بها حامية. وبعد ذلك بشهرين إلتحق به سليمان فكانت رحلته من القسطنطينية إلى أذربيجان مسيرة مظفرة بين الأهالى الذين كانوا يأتون إليه من بعيد لتحيته. وفى تبريز قدم إليه أمير جيلان وشروان ولاءهما. وعين ابن شروان والياً على تبريز ثم إتجه الجيشان جيش السلطان وجيش إبراهيم إلى الجنوب نحو بغداد، وكانت سوء الأحوال الجوية تعطل تقدم الجند بين شعاب همذان. وإضطر الجند حسب ما أورد أحد الرواة إلى دفن ١٠٠ مدفع من بين ٣٠٠ لتعزيز نقلهم، وإلى حرق العربات، والتخلى عن عدد من المدافع إستولى عليها فيما بعد الصفويون، وهكذا فإن الأحوال الجوية هنا تمثل العدو اللدود الأول للسلطان ويظهر أن قادته لم يتمكنوا أو لم يعرفوا كيف يهيئون التموين للجيش. ذلك أن تموين جيش يقدر بحوالى ٢٠٠.٠٠٠ رجل هو عمل ليس بالهين ويستلزم عناية قصوى. ولابد أن أخطاء أرتكبت إذ أن نقصان التموين وصل إلى حد مات بسببه جوعاً أحد كبار الموضفين العثمانيين أثناء الغزو (نشانجى رئيس قلم كتابة الطغراء السلطانية)، وعلاوة على ذلك فإن طهماسب طبق خطته المعروفة ألا وهى : إحراق الأرض و الزرع. وكان الجيش العثمانى الثقيل

التحرك غير قادر على اللحاق بالخيالة الخفيفة الصفوية، وهو لن يتوصل إلى ذلك أبداً، ولن يقدر العثمانيون لا على إحتلال إيران، ولا الإستقرار بصفة دائمة فى أذربيجان.

إن جند الشاه لم يظهروا فى الميدان أبداً ولم يحاولوا حتى مناوشة الأتراك عند إختراقهم لجبال زاجروس بل الوصول منهكين إلى سهول العراق. ولما وصل العثمانيون إلى مشارف بغداد، إنسحب والى الشاه وجنده. وسبق الصدر الأعظم الجيش للإستيلاء على المدينة. وبعد ذلك بأيام قليلة دخل السلطان المدينة فى الرابع من ديسمبر سنة ١٥٣٤م(٧٧).

وبذلك أتمت حملة سليمان إمتداد الحكم العثمانى على الأجزاء الشمالية والوسطى من العراق. أما فى الجنوب فكان ميناء البصرة يخضع لحكم شيخ عربى يدعى راشد بن مغامس، له الخطبة وتضرب السكة باسمه لكنه يدفع إتاوة سنوية لمن يحكم بغداد. وقد خضع للشاه الصفوى عام ١٥٠٨ وكذلك خضع للفاتح الجديد السلطان سليمان، فأرسل ابنه مانع إلى سليمان فى عام ١٥٣٨ – ١٥٣٩ ليعلن خضوعه للسيادة العثمانية. وقد ثبته سليمان فى منصبه كممثل للسلطان لكنه لم يبق فى هذا المنصب طويلاً : فقد تمرد راشد وأيد ثورة القبائل على السلطان، وفى عام ١٥٤٦ – ١٥٤٧ تلقى إياس باشا – ثانى حكام بغداد – أمراً بأن يقود حملة ضد راشد. وتداعت قوة راشد وفر إلى الحساء، وضمت البصرة والمناطق المحيطة بها إلى الإمبراطورية العثمانية كولاية عثمانية وأصبح إياس أول والٍ عثمانى على البصرة وبالاستيلاء على هذه المدينة وصل العثمانيون إلى رأس الخليج العربى حيث جابهوا قوة البرتغال البحرية.

وكان من الصعب السيطرة على البصرة وتثبيت النفوذ العثمانى فيها، فإلى جانب بعدها كانت معرضة للهجمات الفارسية، وأكثر من ذلك لهجمات

قبائل البدو العرب. وفى عام ١٥٤٩، أى بعد ثلاث سنوات فقط من الإستيلاء على البصرة، أرسلت حملة ضد آل عليان تمكنت من هزيمتهم بعد حرب دامية. وإلى الجنوب من البصرة، على الساحل الشمالى الغربى للخليج، توجد الأحساء (الحسا) وهى وإن كانت ولاية فى الإمبراطورية العثمانية من الناحية الرسمية، إلا أنها كانت ولاية عربية تدفع الجزية سنوياً وتخضع لحكام مستقلين ويوجد إقليم آخر على الحدود هو إقليم شهر الزور (كردستان) ويقع فى الجبال الكردية الشمالية على الحدود الصفوية العثمانية. ومع أن حاكم شهر الزور قد خضع لسليمان أثناء الغزو العثمانى لبغداد إلا أن السيطرة العثمانية لم تتأكد لفترة طويلة فى هذه المناطق. ويرجع ذلك إلى أن السلاطين العثمانيين إتبعوا سياسة الإعتراف بحكم العصبيات المحلية وكان إقليم كردستان مليئاً بالإمارات والعشائر الكردية السنية التى وقفت فى وجه الغزو الفارسي وشدت أزر العثمانيين خلال حروبهم ضد الفرس. وعلى رأس هذه الإمارات : الإمارة الصورانية والهدينانية والبابانية فأبقوا هؤلاء الأمراء على إماراتهم، وكانت لا تزال إمارات صغيرة. ولكن هذا النظام تطور إلى إستبداد هؤلاء بالسلطة حتى لم يعد للولاة أية قدرة على إدارة الأمور هناك فترك العثمانيون أمر كردستان لأمرائه تحت إشراف ولاة بغداد. وكانت كركوك مقر هذه الإيالة، ولكنها لم تلبث أن فقدت مكانتها بسبب نمو الأسرة البابانية فى نهاية القرن الثامن عشر وسيطرتها على كردستان كله تقريباً وعلى كركوك أيضاً.

وعلى أية حال، لم يقض الفتح العثمانى للعراق نهائياً على النزاع الصفوى العثمانى، بل ظل كل من الصفويين والعثمانيين يحتربون ويتنافسون من أجل السيطرة والسيادة على العراق، وأصبح الصراع بين القوتين ظاهرة سائدة فى القرن السادس عشر. وسعى الصفويون كثيراً لاسترداد العراق من العثمانيين ونجحوا فى الإستيلاء على بغداد فى عام ١٦٠٢، إلا أن ذلك لم

يستمر طويلاً. فأعاد السلطان مراد الرابع (١٦٣٢ – ١٦٤٠) فتح العراق مرة أخرى فى عام ١٦٣٨، وبعد ذلك بقى العراق تحت الحكم العثمانى حتى الحرب العالمية الأولى[٧٨].

ثالثاً : اليمن

وكان موقع اليمن من العوامل التى أبرزت أهميتها فى تحقيق الأهداف العثمانية ضد البرتغاليين. فوجود اليمن فى الجنوب الغربى لشبه الجزيرة العربية، وإمتداد حدودها من جنوب نجد والحجاز فى الشمال إلى خليج عدن فى الجنوب، ومن حدود عمان والربع الخالى شرقاً إلى البحر الأحمر ومضيق باب المندب غرباً، وكانت هذه هى الحدود القديمة لليمن الكبرى، فقد جعلها هذا الموقع الممتاز وتلك الحدود التى تطوق جنوب الجزيرة العربية منطقة دفاع هامة عن حدود الإمبراطورية العثمانية من الجنوب. وقد أدى هذا إلى إقتناع العثمانيين بأن سيطرتهم على اليمن تجعلهم يضمنون سلامة الأماكن الإسلامية المقدسة فى الحجاز، والتحكم فى البحرين : الأحمر والعربى، وتطويق أعدائهم الشيعة الصفويين فى إيران من الجنوب، وتحقيق أحلامهم بمد سيطرتهم شرقاً إلى أقاصى العالم الإسلامى.

وهكذا أراد العثمانيون أن يسيطروا على اليمن ليحققوا أهدافهم الدفاعية والتوسعية وأن يحدوا محل المماليك الذين كان حكمهم قد إستقر هناك منذ سنة ١٥١٤. وقد تمكن العثمانيون من تحقيق بغيتهم على مرحلتين، بدأت الأولى بعد فتح مصر مباشرة فى سنة ١٥١٧ بإرسال بعثة عثمانية حملت أوامر السلطان العثمانى لقادة المماليك فى اليمن لكى يعلنوا خضوعهم وتبعيتهم للسيادة العثمانية. غير أن بعض القادة المماليك لم يذعنوا لأوامر السلطان العثمانى وتمسكوا بإستقلالهم وخرجوا على من أعلن الطاعة منهم

وقضوا عليه. لهذا رأت الدولة العثمانية أن ترسل ولاة عثمانيين مـن قبلهـا ليتولوا الحكم فى اليمن وليضمنوا تبعيته وولاءه للدولة، غير أنها لم ترسـل معهم فى بداية الأمر قوة من البلاد ناجين بأنفسهم. ثم حاولت الدولة العثمانية أن تنصب بعض القادة المماليك ليكونوا ولاة لليمن من قبلها على أن يضمنوا تبعية البلاد لسيادتها، غير أن هؤلاء القادة كانوا يستبدون بـالأمر ويعلنـون إستقلالهم. وقد أدى كل ذلك إلى أن الدولة العثمانية رأت أخيراً أن لا سـبيل إلى ضمان سيادتها على اليمن إلا بالإحتلال الفعلى، وإقامة حكـم عثمـانى مدعم بالقوة العسكرية؛ وكانت هذه هى المرحلة الثانية من مراحل العلاقـات العثمانية اليمنية إستمرت بين عامى (١٥٣٨ – ١٦٣٥) أى قرابة قرن مـن الزمان[٧٩].

وقد بدأت تلك المرحلة فى عهد السلطان العثمـانى سـليمان القـانونى (١٥٢٠ – ١٥٦٦) الذى أمر بتجهيز قوة ضخمة أبحرت من ميناء السويس فى ٢٧ من يونيه سنة ١٥٣٨. وكان الهدف الواضح من توجيه تلك الحملـة هو القضاء على البرتغاليين الذين كانوا يعيثون فساداً فـى مـوانئ البحـر الأحمر والعربى، بينما كان الغرض الكامن من ورائها هو إحتلال اليمن الذى كان يمكن عن طريقه تحقيق الأغراض الدفاعية والتوسعية للدولة العثمانيـة حينذاك. وقد وصل الأسطول العثمانى إلى عدن فى سنة ١٥٣٨ يقوده سليمان باشا الارناءوطى الذى كان من أبرز القادة العثمانيين فـى ذلـك الوقـت، وإستدعى هذا القائد العثمانى أمير عدن اليمنى عـامر بـن داود الطـاهرى لزيارة سفينة القيادة. وكان عامر هذا قد كتب إلى السلطان العثمانى طالبـاً منه المساعدة ليتغلب على الإمام الزيدى : شرف الدين الذى كـان يسـيطر على المنطقة الوسطى فى اليمن ويطمع فى ضم عدن إلى منطقة نفوذه. وقد أبدى القائد العثمانى لأمير عدن إستعداده لمساعدته – بنـاء علـى موافقـة السلطان العثمانى – مما شجع عامر على تلبية الدعوة والصعود إلى سـفينة

القيادة. غير أن القائد العثماني غدر بعامر قبل أن يستقر به المقام على ظهر السفينة وأمر بقتله ونصب جثته على السارية ومن ثم أنزل قواته العثمانية فإستولت على عدن بدون قتال في اليوم الثالث من أغسطس سنة ١٥٣٨. بل أن سليمان باشا أمر بقتل من بقى من آل طاهر ومصادرة ممتلكاتهم بحجة أنهم حاولوا تسليم عدن للبرتغاليين، على أن بعض المؤرخين أزاحوا هذه التهمة عن الطاهريين. وعلى أية حال فقد أناب سليمان باشا على إدارة عدن أحد ضباطه ويدعى بهرام، بينما أقلع أسطوله تجاه الهند لمواصلة الحرب ضد البرتغاليين، غير أن مهمته هذه إنتهت بالفشل وإنسحب الأسطول العثماني عائداً إلى عدن. وإذا كان العثمانيون قد نجحوا في السيطرة – بعض الوقت – على الثغور البحرية الواقعة على طول الساحل الجنوبي للجزيرة العربية بما فيها ثغور حضرموت، فإن سلطانهم لم يستقر هناك لأن سكان المناطق الداخلية لم يعترفوا بالولاء للسلاطين العثمانيين مما أدى إلى زوال نفوذهم عن تلك المناطق.

وبعد عودة الأسطول العثماني إلى عدن رأى قائده سليمان باشا أن يعود إلى مصر ماراً بسواحل اليمن بعد أن يضمن تبعيتها للدولة العثمانية، لهذا عندما وصل إلى ميناء مخا اليمني طلب من الناخوذة أحمد الحاكم المملوكي في اليمن حينذاك إعلان تبعية البلاد للسيادة العثمانية. وقد تردد الناخوذة أحمد في بداية الأمر ثم إستقر رأيه أخيراً على إعلان الطاعة للدولة والإعتراف بتبعية اليمن لسيادتها. وكان العثمانيون قد إتجهوا في ذلك الوقت إلى ميناء الصليف حيث أنزلوا قواتهم التي تقدمت إلى زبيد، وغدروا بالناخوذة أحمد وأعدموه هو وجمع من رفاقه وقضوا نهائياً على الحكم المملوكي في اليمن وهكذا خضعت اليمن خضوعاً فعلياً للسيادة العثمانية في أواخر عام ١٥٣٨[٨٠].

ومنذ عام ١٥٣٩، لم يبق أمام العثمانيين بعد القضاء على الطاهريين فى عدن وعلى المماليك فى زبيد إلا مواجهة أكبر قوة ضاربة فى اليمن فى ذلك الوقت وهى قوة الإمامة الزيدية المتمثلة فى الإمام شرف الدين. ولم ينجح سليمان باشا فى إستدراج الإمام الزيدى لأنه كان على علم بوسائل الغدر التى يتبعها، كما فشل فى محاولاته للإستيلاء على تعز وتوابعها. ولذلك واصل سليمان السير جنوباً لإستكمال الفتح، وربط المنطقة الجنوبية التى كانت عدن قاعدة لها بالمنطقة الشمالية التى بدأت من زبيد، وأدى صمود الإمام شرف الدين إلى عرقلة تحقيق الخطة العثمانية على يد سليمان باشا، ولاقت الحملة فى جبال اليمن أهوالاً شديدة ولم تستطع التقدم فى المناطق التى يحكمها الزيديون، وكان نجاحها مقصوراً على السيطرة على زبيد ومنطقة تهامة فى الشمال، والقضاء على الحكم الطاهرى فى عدن ونقله إلى أيدى العثمانيين، وأخيراً إخضاع السواحل اليمنية من الشحر وعدن جنوباً إلى جيزان شمالاً. وبعد ذلك عادت حملة سليمان باشا إلى مصر ولم تحقق إلا جزءاً من المهام التى عهدت إليها وبقى على الدولة العثمانية أن تعمل فى المستقبل على توحيد اليمن كله تحت سيطرتها بإنتزاع المناطق التى يسيطر عليها الإمام الزيدى.

وقد حاول كل من العثمانيين والزيديين دعم سيطرته فى الأقاليم التى تقع تحت يده. فبعد عودة سليمان باشا مباشرة، ثبت السلطان سليمان القانونى الأميرين اللذين عينهما سليمان باشا فى عدن وزبيد، كما أرسل مرسوماً إلى الإمام شرف الدين بإبقاء الأوضاع القائمة فى اليمن كما هى، وبتكليفه بإرسال القوافل إلى عدن وبالعمل على إستتباب الأمن فى البلاد. وإزداد إهتمام العثمانيين بتدعيم نفوذهم فى اليمن، فأرسلوا فى عام ١٥٤٦ والياً جديداً لليمن هو أويس باشا على رأس جيش كبير وذلك لتحويل اليمن إلى قاعدة حربية كبيرة لهم عند مدخل البحر الأحمر الجنوبى. ولقد بدأ الصدام الحربى بين العثمانيين والزيديين فى عهد أويس باشا، ومما شجع العثمانيون

على إستمرار محاولاتهم لتوحيد اليمن كله تحت سيطرتهم هو نشوب الخلافات المحلية وإنقسام الأهالى إلى زيدية وشافعية وإسماعيلية. وقد إمتدت الخلافات إلى الأسرة الزيدية نفسها وذلك عندما عين الإمام إبنه على بن شرف الدين ولياً للعهد وبذلك حرم منها إبنه الأكبر المطهر الذى كان يتصف بالقوة والبطش، وتسبب بذلك فى خروج المطهر على أبيه وتوليه عرش الإمامة (١٥٥٨ – ١٥٧٢). وإتصل المطهر بالعثمانيين للإستعانة بهم ضد والده الإمام شرف الدين، وإتجه أويس باشا إلى تعز وليس إلى صنعاء وذلك لأهمية تعز الإستراتيجية بالنسبة لجنوب اليمن. وفى فبراير عام ١٥٤٦، سقطت تعز فى أيدى الجيش العثمانى الذى تقدم بعد ذلك إلى ذمار – إلى الجنوب من صنعاء، ولكن توقفت الجيوش العثمانية بعض الوقت فى ذمار بسبب نجاح بعض المتآمرين من العثمانيين فى قتل أويس باشا فى عام ١٥٤٧. وكلفت الحكومة العثمانية أزدمر باشا أحد قواد حملة اليمن بمواصلة عمل أويس باشا، فتقدم إلى صنعاء وعسكر بالقرب منها فى أغسطس عم ١٥٤٧. وتمكن أزدمر من هزيمة المطهر، الذى كان قد وقع خلاف بينه وبين العثمانيين. وعقب ذلك حاصر أزدمر صنعاء وعملت الخيانة أثرها فى سقوطها فى يد العثمانيين، وبذلك إمتد النفوذ العثمانى إلى قلب المنطقة الشمالية، وبدأ الحكم العثمانى يرسخ مؤقتاً فى الأقطار اليمنية كلها[٨١]. ولم تضعفه مقاومة الإمام المطهر للعثمانيين على الرغم من إستيلائهم على مدينة صنعاء ومحاولاتهم المستمرة لتثبيت دعائم حكمهم فى اليمن، إذ إستعاد هذا الإمام قواه فى عهد الوالى العثمانى رضوان باشا، وتمكن من قطع خطوط التموين عن صنعاء وغيرها من المدن الجبلية الخاضعة للعثمانيين، بل إن المطهر تغلب على الوالى العثمانى مراد باشا، الذى قتل فى إحدى المعارك، بينما تمكن المطهر من دخول صنعاء فى سنة ١٥٦٨ وعقد صلحاً مع العثمانيين، إنسحبوا بموجبه إلى زبيد وسهول تهامة حتى ترد إليهم الإمدادات

لتساعدهم على دعم حكمهم فى اليمن بأكمله. وقد وجه المطهر عدة حملات بقيادة على بن محمد الشويع لإحتلال مدينة زبيد التى إحتفظ بها العثمانيون كخط للرجعة، غير أن تلك الحملات الأمامية باءت جميعها بالفشل.

وعندما علمت الدولة العثمانية بالمقاومة الضارية التى تزعمها الإمام المطهر ضد قواتها فى اليمن، أرسلت حملة عثمانية مزودة بأحدث الأسلحة فى عصرها يقودها سنان باشا، الذى كان من أبرز قادة الدولة حينذاك، كما إنضمت لهذه الحملة معظم القوات العثمانية التى كانت ترابط فى مصر. وعلى خريطة مصر التى رسمها بيجافتا الإيطالى التى صدرت فى روما فى سنة ١٥٩١ توجد قناة بين السويس والبحر المتوسط حتى بحيرة المنزلة الحالية. وقد ذكر أن سنان باشا فاتح بلاد اليمن لجأ إلى هذه المشروع ليجمع البحرية بحيث يمكن مرور المراكب الحربية والمدفعية إلى البحر الأحمر. وعلى أية حال فقد وصلت تلك الحملة إلى زبيد، ثم واصلت زحفها تجاه المواقع التى عسكرت فيها قوات المطهر حيث جرت بين الجانبين حروب كثيرة إستطاع فى خلالها سنان باشا أن يدك مراكز المقاومة بمدافعه. وقد إستعاد العثمانيون مدينة صنعاء فى سنة ١٥٧٠ بعد أن غادرها المطهر إلى حصن ثلاء بحجة إشفاقه على أهالى صنعاء من معاناة أهوال الحرب والحصار. وقد أعاد هذا النصر الحاسم للعثمانيين هيبتهم فى اليمن، على الرغم من أنهم لم يتمكنوا من التقدم شمال صنعاء أمام مقاومة أتباع المطهر فى كوكبان(٨٢).

وأخيراً رأى سنان باشا أنه لن يتمكن من السيطرة على اليمن بأكمله إلا بالقضاء على مقاومة المطهر وأتباعه، فأخذ يوالى حشد قواته، ولكن دون جدوى. وقد أعقبه فى تنفيذ تلك السياسة بهرام باشا الوالى العثمانى الجديد، ودامت الحرب سجالاً ما يقرب من عامين إنتهيا بموت المطهر فى مدينة ثلاء فى سنة ١٥٧٣. وقد أتاح موت المطهر للعثمانيين مزيداً من السيطرة

وبسط النفوذ، حتى تمكن الوالى العثمانى حسن باشا الذى أعقب بهرام باشا من الإستيلاء على ثلاء، ومدع، وعفار، وذى مرمر، والشرفين الأعلى والأسفل وصعدة مركز الإمامة الزيدية، فقضى بذلك على حركة المقاومة اليمنية فترة من الوقت. وإستطاع حسن باشا أن يأسر الإمام الحسن بن داود الذى إستحوذ على الإمامة بعد وفاة المطهر، وأمر بنفيه مع عدد من أعيان البلاد إلى الأستانة عاصمة الدولة العثمانية فى سنة ١٥٨٦. على أن القتال أستؤنف من جديد بتولى الإمامة المنصور القاسم بن محمد الذى حارب الوالى العثمانى فى عدة مواقع، ولكن الوالى العثمانى تمكن من محاصرة الإمام المنصور فى شهارة، وأسر إبنه محمداً وعدداً من أقاربه وسجنهم فى حصن كوكبان[٨٣].

ولا يعنى هذا أن الحكم العثمانى الأول فى اليمن كان كله بلاء عليها، بل كان بين الولاة العثمانيين من ظفروا بثناء الشعب اليمنى وتقديره. ومثال هؤلاء الوالى العثمانى محمد باشا الذى حكم اليمن فى سنة ١٦١٧ الذى إتصف بمقدرته الإدارية وتقديره الصائب للأمور والعمل لما فيه خير البلاد. وكان من مساعيه الموفقة ذلك الصلح الذى تم بين الدولة العثمانية والإمام المنصور القاسم بن محمد، الذى لم يدم أكثر من عام واحد نشبت فى أعقابه الحرب من جديد، وإنتصرت قوات القاسم بقيادة ولديه الحسن والحسين على العثمانيين وسيطرت على معظم الجهات الشمالية فى اليمن ومهما قيل عن أهداف محمد باشا من هذا الصلح كإخفاء الفشل العسكرى الذى منيت به القوات العثمانية أمام مقاومة اليمنيين، فإن هذا الوالى العثمانى قد أحل الطرق الدبلوماسية السليمة محل القتال والحرب، وإستطاع أن يقنع الباب العالى بضرورة إبرام الصلح مع الإمام القاسم. بل إن الدولة العثمانية بموجب هذا الصلح أقرت الإمام على ما تحت يده من البلاد اليمنية لمدة عشر سنوات مقابل إعترافه بسيادتها فى بلاده، كما إتفق الجانبان على وقف القتال، ومنع

تدخل الجنود العثمانيين فى المنطقة الشمالية التى كان يحكمها الإمام. وكان العرشى – وهو مؤرخ يمنى زيدى – منصفاً عندما ذكر أن محمد باشا هذا كان ((ممن أحسن الرياسة، وأدرك السياسة، وعامل بالعدل الرعية، وتفقد أحوال المتسكين بالسلطنة العثمانية)). بل إنه قال أيضاً عن هذا الوالى العثمانى أنه ((كان ألين من وطئ اليمن قدمه)).

على أن العثمانيين من جانبهم حاولو إنتهاز فرصة عقد الصلح لدعم نفوذهم فى زبيد وعدن غير أن نيران الحرب كانت لا تلبث أن تشتعل من جديد بين العثمانيين واليمنيين الذين يحرضهم الإمام المؤيد محمد بن القاسم بعد أن إستحوذ على الإمامة إثر وفاة والده. وقد إستولى المؤيد هذا على معظم البلاد اليمنية، ولم تستطع القوات العثمانية التى وصلت من مصر إلى اليمن عن طريق الحجاز وقوامها عشرة آلاف جندى، أن تهيئ للحكم العثمانى أى دعم أو إستقرار. بل إن المؤيد تمكن من السيطرة على جميع مدن تهامة عدا زبيد، ومخا، وموزع، حيث كانت ترابط فلول القوات العثمانية كما أن قائد القوات العثمانية الذى جاء من مصر وكان يدعى قانصوه هرب من معسكره فى زبيد ولجأ إلى الجيش الإمامى، فأكرمه المؤيد وساعده على العودة إلى مصر عبر الحجاز(٨٤).

الهوامش

(١) القزلباش: تعنى رافضى أو شيعى (انظر: محمد على الأنسى، قاموس اللغة العثمانية المسمى الدرارى اللامعات فى منتخبات اللغات يحتوى على الكلمات التركية والالفاظ الفارسية والافرنجية المتداولة فى اللغة العثمانية،بيروت،١٩٠٠، ص٤١٩) وهو اسم أطلقه الترك على تسع قبائل من التركمان كانت تلبس قلانس حمراء على الرؤوس وهى روملو، وشاملو، وإستاجلو، وتكه لو وذولقادر، وأفشار، وقاجار، وورساق، وصوفية قراباغ، والكلمة عبارة عن لفظين: الأول "قزل" ومعناه أحمر اللون، والثانى "باش" ومعناه رأس، ومعنى الاصطلاح "أصحاب الرؤوس الحمراء". وقد استطاع الشيخ صفى الدين الأردبيلى وأولاده من بعد بزعامتهم لجماعة الدراويش جذب الكثير من المريدين ليس فى إيران فحسب بل فى الولايات التركية فى آسيا الصغرى والشام والعراق بتأثير دعايتهم القوية، وكان التصوف قد بدأ يشق طريقه إلى المجتمع الإيرانى فى ذلك الوقت، وقد تحولت فرقة الدراويش التى يتزعمها الشيخ صفى الدين الأردبيلى إلى مركز مذهبى لبث الدعوة الشيعية، وكان لممارسة شيوخ الأسرة الصفوية للناحيتين الدينية، والعسكرية معًا الأثر الكبير فى إبراز قدرتهم ونفوذهم، وقد مهد الشيخ صفى الدين الأردبيلى وابناه جنيد وحيدر المناخ لخليفتهم إسماعيل الصفوى الذى أعلن قيام الدولة مستفيدًا من مركزه الروحى والمعنوى، ومستخدمًا أفراد قبائل القزلباش الذين لا يهدفون إلى شئ سوى التضحية فى سبيل نصرة شيخهم ومرشدهم، وعليه فقد كان لهذه القبائل دور كبير فى إيجاد الكيانى الصفوى (انظر: إبراهيم على طرخان، مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة،القاهرة ١٩٥٤، ص١٧٤، هامش١؛ أحمد فؤاد متولى، الفتح العثمانى للشام ومصر

ومقدماته من واقع المصادر التركية والمصرية المعاصرة له، الزهراء للإعلام العربى، القاهرة، ١٩٩٥، ص٥٣، هامش١).

(٢) محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية، القاهرة، ١٩١٢، ص٧٥؛ أحمد فؤاد متولى، المرجع السابق، ص٩٦- ١٠٤؛ إلهام محمد على ذهنى، مصر فى كتابات الرحالة الفرنسيين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر، سلسلة مصر النهضة، العدد (٢)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩١، ص١٨- ١٩.

(٣) محمد فريد: المرجع السابق، ص٧٥.

(٤) محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربى (١٥١٤- ١٩١٤) مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٣، ص١١٠.

(٥) سيد محمد السيد: مصر فى العصر العثمانى فى القرن السادس عشر، دراسة وثائقية فى النظم الإدارية والقضائية والمالية والعسكرية، مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٩٧، ص٦٦.

(٦) محمد أنيس: المرجع السابق، ص١١٠.

(٧) ابن إياس، بدائع الزهور فى وقائع الدهور،الجزء الخامس، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة،١٩٦١،ص٤٥- ٤٦؛ عمر عبدالعزيز عمر، المرجع السابق، ص ٧٣

(٨) ابن إياس: المصدر السابق، ص٦٧- ٦٨.

(٩) نفسه، ص٧٣؛ أحمد بن زنبل الرمال، تاريخ غزوة السلطان سليم خان ابن السلطان بايزيد خان مع السلطان قانصوه الغورى سلطان مصر، تحقيق، عبدالمنعم عامر، تحت عنوان "آخرة المماليك" إشراف، عبدالرحمن الشيخ، الألف كتاب الثانى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨، ص٢٧ وما بعدها؛ محمد بن على اللخمى الإشبيلى،

الدر المصان فى سيرة المظفر سليم خان، تحقيق هانس أرنست، دار البستانى، القاهرة، ١٩٦٢، ص٩.

(١٠) عبدالكريم رافق: بلاد الشام ومصر من الفتح العثمانى إلى حملة نابليون بونابرت(١٥١٦-١٧٩٨) دمشق، ١٩٦٨، ص٩٩.

(١١) ابن إياس: المصدر السابق، ص١٠٣- ١٠٤؛ محمد عبدالمنعم السيد الراقد، الغزو العثمانى لمصر ونتائجه على الوطن العربى، الإسكندرية، ١٩٦٨، ص١٧٣، ولمزيد من التفاصيل (انظر: **Creay. M. A., History of the Ottoman Turks, From the Beginning of their Empire to the Present Time, Vol. I, London, 1854, pp.229-230).**

(١٢) ابن إياس: المصدر السابق، ص١٢٤- ١٢٥؛ إبراهيم على طرخان، المرجع السابق، ص١٨٦- ١٨٧؛ أحمد فؤاد متولى، المرجع السابق، ص١٨٥.

(١٣) محمد عبدالمنعم الراقد: المرجع السابق، ص١٧٧.

(١٤) أحمد بن زنبل الرمال: المصدر السابق، ص٤٢.

(١٥) ابن إياس: المصدر السابق، ص١٢٥، * الأرزاق: المقصود بها أراضى الرزقة بنوعيها الأحباسية (الخيرية) والجيشية (العسكرية) والرزقة الأحباسية عبارة عن أراضى ديوانية أوقفها أصحابا على الأعمال الخيرية مثل الانفاق على الحرمين الشريفين، والمساجد، وعلى مختلف أنواع البر والتقوى، وكانت هذه الأراضى معفاة من الضرائب، والرزقة الجيشية (العسكرية) تخرج من ديوان الجيش، وهى عبارة عن الأطيان التى كان يمنحها سلاطين المماليك لأحد الأمراء أو الرعايا مكافأة له على خدمة أداها للحكومة، أو لمجرد

الإحسان إليه، وكان صاحبها ينتفع بها طوال حياته، ويورثها لذريته من بعده كما كان له حق التصرف فيها بالبيع والشراء. وقد تم ضبط هذه الأرزاق فى العصر المملوكى فى سجلات عرفت باسم "دفاتر الجراكسة" وقد ألغى بهذه الدفاتر عام ٩٣٤هـ/ ١٥٢٧م أثناء عملية ضبط الأقاليم المصرية، وقام المسئولون عن ذلك بتفحص أصل الرزقة، فإذا كانت تمسكات الرزقة (إيصالات) التى بيد المنتفعين صحيحة أبقوها على حالها وإن شابهها شئ من التزوير أضيفت إلى الميرى (انظر: عفاف مسعد السيد العبد، دور الحامية العثمانية فى تاريخ مصر (١٥٦٤– ١٦٠٩م) سلسلة تاريخ المصريين، العدد (١٧٩) الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠، ص٢٥٨، هامش ٢١٢).

(١٦) أحمد فؤاد متولى: المرجع السابق، ص١٨٧؛ صلاح أحمد هريدى، دراسات فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر، الجزء الأول (٩٢٣–١٢١٣هـ/ ١٥١٧– ١٧٩٨م)، دار عين، القاهرة، ٢٠٠٠، ص٥٣.

(١٧) حسن عثمان: تاريخ مصر فى العهد العثمانى (١٥١٧– ١٧٩٨) من كتاب المجمل فى التاريخ المصرى، نشره حسن إبراهيم حسن، القاهرة، ١٩٤٢، ص٢٤٢.

(١٨) الصدر الأعظم: كان الصدر الأعظم (Grandvezir) على رأس الجهاز الحاكم فى الدولة العثمانية، وهو ممثل السلطان العام فى أمور الدولة، ونتيجة لنمو الدولة العثمانية، منح السلطان سلطات الحكم الفعلية للديوان ولوزيره الأول الصدر الأعظم،وعلى هذا صار منصب الصدر الأعظم الذى لم يكن فى بادئ الأمر أكثر من مستشار أول للسلطان، منصبًا خطيرًا وتعاظمت أهميته بمرور الوقت، فجعله

السلطان محمد الثانى (٨٥٥- ٨٨٥هـ/ ١٤٥١- ١٤٨١م) وصيًا فعليًا على الدولة، ولم يكن للصدر الأعظم سلطة مباشرة على القصر العثمانى، أو على العلماء، وفيما عدا ذلك تمتع بسلطة قوية فى الإدارة المركزية، وفى الولايات، وقد سلمه السلطان خاتمه لاستخدامه فى التوقيع، وكان عليه إعادته للسلطان بعد عزله من منصبه ولعل أعظم دليل على تفويض السلطان سلطات واسعة للصدر الأعظم فيما بعد هو إيجاد الباب العالى (**The Sublime Porte**) الذى جعله مقرًا رسميًا لوزيره الأعظم درويش باشا، وأصبح الوزراء العظام يسكنون منذ ذلك الوقت فى الباب العالى، ويصرفون فيه شئون الدولة العليا التى كانت تصرف من قبل فى قصر السلطان، وبالتالى أطلق اسم المكان على ساكنه، ومن هنا كان القول "الباب العالى" أى الوزير الأعظم (انظر: عبدالكريم رافق، المرجع السابق، ص٦٣- ٦٤؛ عمر عبدالعزيز عمر، المرجع السابق،ص ٥٤،٥٥

(١٩) الوطاق: جمعها وطاقات، وفى التركية أوتاق، وأوتاغ، وأوطاق، وقيل إنها من كلمة أوت بمعنى النار، أو من المصدر أوتورمق بمعنى أن يجلس، وقد دخلت فى اللغة الفارسية فى صيغ أطاق، وأتاغ بممعنى الغرفة، والأرجح أن تكون هذه الكلمة هى أصل الكلمة التركية (أوده) بمعنى الحجرة، والأطاق فى التركية اسم للخيمة الكبيرة المزخرفة تعد للعظماء، والوطاق فى العربية هو الخيمة، والمعسكر المكون من خيام (انظر: أحمد السعيد سليمان، تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل،دار المعارف، القاهرة،١٩٧٨،ص١٩٨- ١٩٩).

(٢٠) ابن إياس: المصدر السابق، ص١٤٥- ١٤٦؛ على بن محمد اللخمى الإشبيلى، المصدر السابق، ص١٢- ١٣؛ محمد بن أبى السرور

البكرى، النزهة الزهية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية، تحقيق، عبدالرازق إبراهيم عيسى، العربى للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٨، ص١٣٩).

(٢١) محمد عبدالمنعم الراقد: المرجع السابق، ص١٨٧.

(٢٢) ابن إياس: المصدر السابق، ص١٥٣؛ إبراهيم على طرخان، المرجع السابق، ص١٩٠- ١٩١.

(٢٣) أحمد فؤاد متولى: المرجع السابق، ص١٩٣.

(٢٤) إبراهيم على طرخان: المرجع السابق، ص١٩٢؛ أحمد فؤاد متولى، المرجع السابق، ص١٩٤.

(٢٥) محمد بن أبى السرور البكرى: المنح الرحمانية فى الدولة العثمانية، نسخة مصورة بمكتبة جامعة الأزهر تحت رقم (١١٠٥) ورقة ١٩أ؛ محمد عبدالمنعم الراقد: المرجع السابق، ص١٩١- ١٩٢.

(٢٦) أحمد بن زنبل الرمال: المصدر السابق، ص١٦٣- ١٦٤.

(٢٧) صلاح أحمد هريدى: دراسات فى تاريخ مصر، جـ١، ص٥٥.

(٢٨) ابن إياس: المصدر السابق، ص١٦٦.

(٢٩) دوادار: كانت الداودرية فى دولة المماليك وظيفة صغيرة، ولكنها عظمت فى منتصف القرن الرابع عشر، وكان ذلك فى عهد الناصر حسن فى فترتى حكمه من (٧٤٨- ٧٥٢هـ/ ١٣٤٧- ١٣٥١م) إلى (٧٥٥- ٧٦٣هـ/ ١٣٥٤- ١٣٦١م)، وفى عهد الملك الأشرف ناصر الدين شعبان الثانى (٧٦٣- ٧٧٧هـ/ ١٣٦٣- ١٣٧٧م) ولى أقبغا الداودرية فعظم شأنها حتى صارت كنيابة السلطنة، وفى عهد برقوق (٨٠٢- ٨٠٨هـ/ ١٣٩٩- ١٤٠٥م) والملك المؤيد (٨١٥- ٨٢٥هـ/ ١٤١٢- ١٤٢١م) ازداد المنصب خطورة وخاصة حين

وليه يشبك فى أيام الناصر فرج، فقد كان الداودرية يشرفون على البريد والمالية وعلى العزل، والتنصيب، والقضاء، وباتساع اخصاصات الدوادار كثر عدد الداودرية حتى بلغ في بعض الفترات عشرًا، وعندئذ عرف أكبرهم باسم الدوادار الكبير، ثم ظهرت وظيفة الدوادار الثانى ثم الدوادار الثالث لنقل رسائل بين السلطان والمماليك، وأصل اختصاص الدوادار تصدير الرسائل، والأوامر إلى المرسل إليهم وعرض المناشير والملتمسات ليوقعها السلطان، علاوة على تسلم البريد الوارد وعرضه على السلطان، وكان الدوادار يشاور السلطان فيمن يؤذن له بدخول القصر، فإن كان من يؤذن له بالمقابلة غير واقف على قواعد التشريفة فإن الدوادار يلفته القواعد قبل المثول بين يدى السلطان، وقد عرف هذا المنصب فى الدولة العثمانية، ولكنه كان بمثابة الرئيس للكتاب، وكان فى الديوان الهمايونى قلم يسمى (دويتدار ديوان همايون) ويعمل به ثلاثة من الدويتدارية وكان من بين (خدمة باب أصفى)، أى موظف الصدر الأعظم، وهو منسوب إلى أصف بن برخيا وزير سليمان (عليه السلام) دويتدار، وكان فى الدفترداريه دويتدار يعرف بدويتدار المالية يعرض الأوراق على الدفتردار للتوقيع، وفى أيام محمد على كان لفظ الدوادار الذى استعمله رجالات دواوين الإنشاء فى العصر المملوكى قد بطل استعماله وحل محله اللفظ العثمانى دويتدار بقلب الدال الأخيرة تاء فى اللفظ هكذا (Divittar) (انظر: أحمد السعيد سليمان، المرجع السابق، ص١٠٩-١١٠).

(٣٠) إبراهيم على طرخان: المرجع السابق، ص١٩٣؛ محمد عبدالمنعم الراقد: المرجع السابق، ص١٩٥.

---

(٣١) ابن إياس: المصدر السابق، ص١٧١- ١٧٤؛ أحمد فؤاد متولى، المرجع السابق، ص٢٢١.

(٣٢) ابن إياس: المصدر السابق، ص١٧٥؛ عبدالكريم رافق، المرجع السابق، ص١٠٩؛ صلاح أحمد هريدى، دراسات فى تاريخ مصر، جـ١، ص٦٠.

(٣٣) أحمد بن زنبل الرمال: المصدر السابق، ص١٣٣ وما بعدها.

(٣٤) إبراهيم على طرخان: المرجع السابق، ص١٩٧؛ محمد عبدالمنعم الراقد، المرجع السابق، ص١٩٧.

(٣٥) ابن إياس: المصدر السابق، ص١٧٦.

(٣٦) نفسه: ص٢٩٥- ٢٩٦.

(٣٧) عبدالكريم رافق: المرجع السابق، ص١٢٦.

(٣٨) حسن عثمان: المرجع السابق، ص٢٥٢.

(٣٩) عبدالله الشرقاوى: تحة الناظرين فيمن تولى مصر من الولاة والسلاطين، تحقيق، رحاب عبدالحميد القارى، مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٩٦، ص١١٥؛ محمد بن عبدالمعطى الإسحاقى: لطائف أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول، القاهرة، ١٣١١هـ/ ١٨٩٣- ١٨٩٤م، ص١٣٥.

(٤٠) عبدالله الشرقاوى: المصدر السابق، ص١١٥.

(٤١) ليلى عبداللطيف: الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى،مطبعة جامعة عين شمس، القاهرة،،١٩٧٨ص٣٢.

(٤٢) **Creasy., op.cit., p.232**

(٤٣) أحمد بن زنبل الرمال: المصدر السابق، ص١٥٠.

(٤٤) ابن إياس: المصدر السابق، ص٢١٢.

(٤٥) علوفة: هى من المواد الغذائية اللازمة للإنسان والحيوان والراتب (انظر: أحمد السعيد سليمان، المرجع السابق، ص١٥٢).

(٤٦) سيد محمد السيد: المرجع السابق، ص٩٧- ٩٨؛

Combe Etienne., L' Egypte Ottoman de la Conquete par Selim (1517) a l'arrivee de Bonaparte (1798) en Precis de Egypte, T3, Le Caire, 1933, p.16.

(٤٧) الأمراء المقدمين: يبلغ عددهم أربعة وعشرين أميرًا، ولكنهم بلغوا فى عهد الناصر محمد فى الدولة المملوكية الأولى خمسة وعشرين أميرًا، ووصل عددهم فى عهد قانصوه الغورى ستة وعشرين أميرًا، ومن هؤلاء ينتخب السلاطين وأتابكة العسكر، وكان من حقهم امتلاك ألف مملوك (انظر: إبراهيم على طرخان، المرجع السابق، ص٢٢٩).

(٤٨) أمير طبلخانة: سميت كذلك لأنها أول الإمرات التى يصبح من حق صاحبها أن يدق بالطبل على بابه كل مساء، ويعرف بأمير أربعين، بمعنى أن الاقطاع الذى يحوزه صاحب هذه الرتبة فى الجيش المملوكى يكفى لشراء أو استخدام أربعين مملوكًا وربما يصل العدد إلى ثمانين، ولكن صاحب الرتبة لا يخرج عن كونه أمير طبلخانة، واختلف عدد أمراء الطبلخانة من عهد إلى عهد، فبلغوا فى بعض العهود أربعين أميرًا وبلغوا فى عهد السلطان الغورى (٣٠٠) أمير (انظر: إبراهيم على طرخان، المرجع السابق، ص٢٣٠).

(٤٩) دينار: المقصود به النقود الذهبية، وهو أول دينار عثمانى ضرب فى مصر عقب الفتح العثمانى فى عهد السلطان سليم الأول، وقد أطلق عليه اسم سلطانى أو أشرفى، وهو امتداد للفظ الأشرفى الذى ألفه المجتمع منذ عهد الأشرف برسباى الجراكسة (انظر: عبدالرحمن فهمى، النقود المتداولة أيام الجبرتى، بحث منشور ضمن كتاب

"دراسات وبحوث عن عبدالرحمن الجبرتى" بإشراف الدكتور/ أحمد عزت عبدالكريم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦، ص٥٥٧).

(٥٠) أمير عشرة: تقضى هذه الرتبة على صاحبها أن يقيم عنده عشرة مماليك، وربما زاد بعضهم إلى العشرين، ولكنه يعد من أمراء العشرات من حيث الرتبة العسكرية (انظر: إبراهيم على طرخان: المرجع السابق، ص٢٣١).

(٥١) سيد محمد السيد: المرجع السابق، ص٩٨.

(٥٢) **Combe. Etienne., op.cit., p.16.**

(٥٣) ليلى عبداللطيف أحمد: الادارة فى مصر، ص٣٢، ٣٣.

(٥٤) **Holt, P. M., Egypt and the fertile Crescent,London,1968 , p.44.**

(٥٥) المحتسب: نظام الحسبة نظام قديم يرجع إلى العصور الإسلامية الأولى، حتي كان للمحتسب سلطة واسعة فى شئون الأمن والتنظيم فى كل الأسواق التجارية. وقد ورثت مصر العثمانية نظام الحسبة عن السلطنة المملوكية، وكان شخصية دينية كما هو الأصل فى الحسبة، وبعد وفاة خايربك بدئ فى تعيين العثمانيين فى منصب المحتسب، واستمر الوضع كذلك حتى تغلب المماليك على الإدارة العثمانية فى مصر، وتسللوا إلى وظائفها، فأصبح هذا المنصب يشغله أحد المماليك كمعظم المناصب الإدارية الأخرى، وكان من حق المحتسب تولى التزام جمرك الاحتساب فى القاهرة ومن هنا لقب بأمين الاحتساب، وكانت مهمته ضبط الموازين والمقاييس والأسعار فى الأسواق (انظر: ليلى عبداللطيف أحمد، الادارة فى مصر، ص٢٣٥- ٢٣٧)

---

(٥٦) ليلى عبداللطيف أحمد: الادارة فى مصر، ص٣٣.

(٥٧) أمير آخور: أمير كلمة عربية معناها قائد، أو زعيم، أو رئيس، وآخور كلمة تركية بمعنى اصطبل، أو مكان للخيل، وعلى هذا فهى بمعنى قائد أو أمير الاصطبل (انظر: محمد على الأنسى، المرجع السابق، ص١٣، ٤٧) وكان أمير آخور عند المماليك هو الناظر فى أمور الاصطبلات والمناخات السلطانية، ورئيس العاملين بها جميعًا، وأهم هؤلاء العاملين هو المسئول عن الأعلاف والمسمى بالسلاخور (انظر: أحمد السعيد سليمان، المرجع السابق، ص١١).

(٥٨) سيد محمد السيد: المرجع السابق، ص١١٣.

(٥٩) محمد بن أبى السرور البكرى: المنح الرحمانية، ورقة ٢٦أ، أحمد شلبى عبدالغنى، أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الورزاء والباشات، تحقيق، عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم، مكتبة الخانجى، القاهرة ١٩٧٨، ص١٠٢-١٠٣.

(٦٠) قانون نامه مصر، مقدمة المترجم، ص٣.

(٦١) سيد محمد السيد: المرجع السابق، ص١١٤.

(٦٢) عبدالكريم رافق: المرجع السابق، ص١٣٨- ١٣٩؛ عمر عبدالعزيز عمر، المرجع السابق، ص١١٤.

(٦٣) عبدالكريم رافق: المرجع السابق، ص١٣٩.

(٦٤) سيد محمد السيد: المرجع السابق، ص١١٤.

(٦٥) أغا الأنكشارية: كان قائد الانكشارية "الأغا" هو صاحب الصدارة على قواد بقية الأوجاقات، فهو قائد جميع الفرق، أو قائد جيش مصر، ورئيس قوات حفظ الأمن فى القاهرة، وضواحيها، وكانت سلطة أغا الأنكشارية تشمل الحفاظ على الأمن العام والإشراف على كل شئون

الشرطة فى كافة المجالات التى لا تخضع لسلطة المحتسب. وقد امتدت اختصاصات أغا الانكشارية لتشمل الأشقياء من كل نوع، واللصوص، والعاهرات، وباعة الخمور سرًا والذين يقومون بما يعكر صفو الأمن، فكان أغا الانكشارية هو المسئول الرئيسى عن إقرار النظام، والأمن فى القاهرة، وكان يؤدى هذا الواجب عن طريق نقط الشرطة فى القاهرة، وضواحيها رجال من فرقة الانكشارية، ومن مماليكه الخاصة. وبلغت سلطة أغا الانكشارية فى الإشراف على الأمن فى القاهرة أوجها فى الربع الأول من القرن الثامن عشر، فقد كانت الإدارة العثمانية تعطى نوعا من التفويض العام بالسلطة، وفى وقت الأزمات مما أدى إلى اتساع سلطته اتساعًا كبيرًا، ولكن فى أواخر القرن الثامن عشر ضعف نفوذ أغا الأنكشارية، واقتصرت سلطته على المناداة فى شوارع القاهرة بالقرارت التى يريد الباشا إعلانها كحظر بعض التصرفات، مثل شرب الدخان فى الشوارع، والحوانيت، والمناداة بالأمن الأمان فى شوارع القاهرة بعد حدوث بعض المناوشات بين أمراء المماليك فيها، ويرجع ذلك لاضمحلال نفوذ الأنكشارية (انظر: ليلى عبداللطيف أحمد،الادارة فى مصر، ص٢٢٩– ٢٣٢).

(٦٦) أحمد شلبى: المصدر السابق، ص١٠٣.

(٦٧) أحمد باشا: كان أحمد باشا جرجى الأصل من ذوى الحظوة لدى السلطان سليم، تقلد عدة مناصب مرموقة، وكان يرغب فى الوصول إلى منصب الصدارة العظمى، ولكن السلطان سليمان عين بدلاً منه صهره إبراهيم باشا صدرًا أعظم، وعليه فقد طالب أحمد باشا بتعيينه واليًا على مصر فوافق السلطان على ذلك (انظر: عبدالجواد صابر

إسماعيل، مصر تحت الحكم العثمانى، مطبعة الحسين الإسلامية، القاهرة، ١٩٨٩، ص٧٩).

(٦٨) القائمقام: ليس من معاونى الباشا، ولكنه الشخص الذى يقوم بعمل الباشا خلال فترة خلو منصبه لعزله أو وفاته، حتى قدوم باشا آخر، وفى بداية العهد العثمانى فى مصر كان منصب القائمقام يسند إلى قاضى القضاة، أو الدفتردار بمعنى أنه كان شخصية عثمانية، ولكن بتغلب المماليك، وسيطرتهم على المناصب الإدارية المهمة أصبح منصب القائمقام يسند إلى أحد البكوات المماليك، وفى بعض الأحيان النادرة كان كتخدا الباشا هو الذى يتولى منصب القائمقام فى حالة وفاة الباشا فجأة، وفى معظم الحالات كان الباشا المعزول هو الذى ينصب القائمقام، ويقر الباشا الجديد هذا التنصيب عن طريق مسلمه أو يسند القائمقامية لأمير آخر، وفى القرن الثانى عشر الهجرى/ الثامن عشر الميلادى كان الأمراء يرسلون إلى الباشا بعد إنزاله من القلعة أحد الصناجق ويكون عادة من كبار الأمراء المماليك الذين يتمتعون بثروة كبيرة ومكانة عالية ليوليه القائمقامية (انظر: ليلى عبداللطيف، الادارة فى مصر، ص١١٨– ١٢٠)، وفى بعض الأحيان كان شيخ البلد هو الذى يتولى منصب القائمقام إلى أن يصل باشا جديد (انظر: **Shaw., Ottoman Egypt in the age of the French revolution, (Cambridge,Mass,1964 , p.73).**

(٦٩) محمد بن عبدالمعطى الإسحاقى: المصدر السابق، ص١٣٥.

(٧٠) محمد بن أبى السرور البكرى: الكواكب السائرة فى أخبار مصر والقاهرة، نسخة ميكروفيلمية بدار الكتب بالقاهرة، تحت رقم ٣٤١٩٣، ورقة ٢١ب.

---

(٧١) محمد بن عبدالمعطى الإسحاقى: المصدر السابق، ص١٣٥؛ محمد بن أبى السرور البكرى: الكواكب السائرة، ورقة ٢١ب؛ أحمد شلبى: المصدر السابق، ص١٠٣.

(٧٢) عبدالكريم رافق: المرجع السابق، ص١٤٤.

(٧٣) صلاح أحمد هريدي : دراسات فى تاريخ العرب، ص ١٧٩، ١٨٠ .

(٧٤) أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق، صـ٨٦، ٨٧.

(٧٥) صلاح أحمد هريدى : دراسات فى تاريخ العرب، صـ١٨٨، ١٨٩.

(٧٦) نفسه : صـ١٩٠.

(٧٧) نفسه : صـ١٩١.

(٧٨) عمر عبد العزيز عمر : تاريخ المشرق، صـ٩٣، ٩٤.

(٧٩) فاروق عثمان أباظة : الحكم العثمانى فى اليمن ١٨٧٢ – ١٩١٨، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٥، صـ١٦، ١٧.

(٨٠) نفسه : صـ١٨، ١٩.

(٨١) عمر عبد العزيز عمر : تاريخ المشرق، صـ١٠٢-١٠٤.

(٨٢) فاروق عثمان أباظة : المرجع السابق، صـ٢٢، ٢٣.

(٨٣) نفسه : صـ٢٣.

(٨٤) نفسه : صـ٢٤، ٢٥.

الفصل الثالث

عوامل ضعف الدولة العثمانية

أولاً : العوامل الخارجية

ثانياً : العوامل الداخلية

الفصل الثالث
عوامل ضعف الدولة العثمانية

أولاً : العوامل الخارجية

كان للحروب الطويلة التى خاضها العثمانيون مع الصفويين وآل هابسبورج أثرها السئ على المؤسسات الرئيسية والحياة الاجتماعية، وعلى الإدارة والمالية . وهذا الضعف الذى وصفه الكتاب العثمانيون آنذاك بأنه " انحطاط وفساد " كان يرجع – فى نظرهم – إلى تزعزع سلطة الحاكم وتعيين غير الأكفاء فى المناصب الهامة وفساد نظام الانكشارية وخواء خزانة الدولة . وكانت مظاهر الانحطاط قد بدأت فى عهد السلطان سليمان القانونى، ثم تكشفت فى عهد السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ – ١٥٩٥) م . أما عن سبل التخلص منها فقد كانت تتلخص فى تطبيق القوانين وإحياء المؤسسات التى أقامها السلطان سليمان القانونى . وهذه النظرة التقليدية قد سادت تقريباً حتى القرن الثامن عشر الذى غلب عليه الاتجاه نحو التغريب، بل حتى القرن التاسع عشر [١] .

وكانت للمعاهدات التى عقدتها الدولة العثمانية وهى فى مراحل الضعف بالغ الأثر فى انهاكها وكانت أولى هذه المعاهدات هى معاهدة سيتفاتوروك (Sitvatorok) التى وقعت مع النمسا فى نوفمبر عام ١٦٠٦ . وللمرة الأولى فى تاريخ الدولة العثمانية لم تكن هذه المعاهدة هدنة حربية فرضتها استانبول على الإمبراطور النمسوى، بل أبرمت بعد مفاوضات دارت على الحدود وعامل السلطان العثمانى إمبراطور النمسا معاملة الأنداد . وقد وضعت هذه المعاهدة نهاية رسمية وشكلية لحرب استطالت ثلاث عشرة سنة تحت حكم ثلاثة سلاطين تعاقبوا على عرش الإمبراطورية . وكان من بين الأحكام التى جاءت بها هذه المعاهدة أن يدفع الإمبراطور للسلطان مائتى

ألف قطعة من العملة الذهبية المعروفة باسم أقجه في مقابل تنازل السلطان نهائياً عن الجزية التي كان يتقاضاها سنوياً من الإمبراطور وقدرها ثلاثون ألفاً من الدوكات، وأن تلغى السيادة العثمانية على إقليم ترانسلفانيا، وأن تقوم العلاقة بين الإمبراطورية العثمانية والنمسا على قدم المساواة . ويذهب المؤرخون مذاهب شتى في التعليق على معاهدة سيتفاتوروك . فيرى فريق منهم أنها تعتبر بداية توقف التوسع العثماني الإقليمي في أوروبا،وهو حكم مطلق من كل قيد . ويرى فريق ثان أن العثمانيين لم يستطيعوا بعد معاهدة سيتفاتوروك استئناف سياسة التوسع الإقليمي في اتجاه الشمال . ويرى فريق ثالث أن دول أوروبا الغربية أصبح في استطاعتها بعد معاهدة سيتفاتوروك أن تمضي في سياستها دون أن تحسب حساباً لخطر القوة العسكرية العثمانية. وهي آراء تقبل المناقشة لعدة أسباب، حسبنا أن نذكر من بينها أن القوات العثمانية استطاعت أن تحرز انتصارات رائعة على النمسا في عام ١٦٦٣، وأن تستولي على جزيرة كريت من جمهورية البندقية عام ١٦٦٩، واستطاعت أن تحافظ عام ١٦٧٥ على كامنيك،وهي قلعة فريدة الموقع في إقليم بودوليا (٢).

وإذا كان القرن السابع عشر قد بدأ بقبول مبدأ المساواة بين السلطان العثماني وإمبراطورية النمسا فإنه قد انتهى بالاعتراف بهزيمة الدولة العثمانية . ففي عام ١٦٨٢،وبفضل إصلاحات أسرة كوبرولو الألبانية التي استحوذت على أعلى مناصب الدولة، قام العثمانيون بهجوم كبير على أعدائهم المسيحيين . وللمرة الثانية والأخيرة فشل العثمانيون في عام ١٦٨٣ فشلاً ذريعاً في الاستيلاء على مدينة فيينا . فلقد أرسل الإمبراطور ليوبولد رسله مستنجداً إلى بولندا،وأدرك جون سوبيسكي أن مصير المسيحية أصبح مهدداً بالخطر . ولذلك قرر المبادرة إلى إنقاذ الإمبراطور، وسار بنفسه على رأس جيش بولندي قوي مؤلف من أربعين ألف رجل معبئين بوحدات

للخيالة. وكان قد عهد بالدفاع عن فيينا، التى كانت ضعيفة التحصين، إلى الكونت شتارمبرج . وتقدم النمساويون وحلفاؤهم بسرعة داخل الأراضى العثمانية فى المجر واليونان وساحل البحر الأسود وتحققت هزيمة الأتراك بانتصار النمسا فى موقعتى موهاكس فى عام ١٦٨٧ وزنتا فى عام ١٦٩٧ . ووقعت معاهدة كارلوفتز (Carlowitz) فى ٢٦ يناير عام ١٦٩٩، وأجبرت الدولة العثمانية بمقتضاها على التنازل عن ترانسلفانيا وغالبية أراضى المجر وأن ترد أجزاء من أوكرانيا وبودوليا إلى بولندا . وكانت معاهدة كارلوفتز هى أول معاهدة توقعها الدولة العثمانية باعتبارها دولة مهزومة . فلم تعد بعدها ذلك الخصم العنيد الذى كان يهدد المسيحية الغربية . وغدت أوروبا هى التى تهدد وحدة الإمبراطورية العثمانية وتماسك أجزائها . وتنازلت الدولة العثمانية عن ممتلكات أكثر بمقتضى معاهدة باساروفتز (Passarovitz) فى عام ١٧١٨ . فخسر العثمانيون ما كان باقياً فى حوزتهم من المجر وترانسلفانيا،وفقدوا كذلك مدينة بلغراد، بيد أن صلح بلغراد عام ١٧٣٩ الذى استردت الدولة العثمانية بمقتضاه هذه المدينة أظهر أن الخطر قد زال من جانب النمسا [٢].

على أن الصراع بين الدولة العثمانية وروسيا الناهضة كان أكثر خطراً. فتصميم القيصر بطرس الأكبر على الحصول على مركز فى المياه الدفيئة قاده إلى تنظيم حملة كبيرة فى ١٦٩٥ ــ ١٦٩٦ ضد آزوف حيث أقام قاعدة بحرية لكنه فقدها فى حرب أخرى مع العثمانيين فى عام ١٧١١ . وأعيدت أزوف وما جاورها من البلاد إلى العثمانيين،وأجبر الروس على الموافقة على اتخاذ عدد من التدابير الرادعة . ولم يكن الصلح المعقود فى عام ١٧١١ سوى صلح مؤقت . فقد تكرر احتلال روسيا للممتلكات العثمانية بعد أن عقدت حلفاً مع النمسا فى عام ١٧٢٦،وأدت حرب عام ١٧٣٣ ــ ١٧٣٩ إلى إعادة احتلال الروس لأزوف . وقد أضاف اعتلاء كاترين العظمى

العرش قوة دافعة جديدة إلى السياسة التى وضعها بطرس الأكبر من قبل . والحقيقة أن كاترين اتبعت سياسة التغلغل لتهيئة الأرثوذكس والسلاف من رعايا الإمبراطورية العثمانية وإعدادهم للثورة فى حالة وقوع هجوم روسى عليها . وكانت الحرب الروسية ـ العثمانية (١٧٦٩- ١٧٧٤) نكبة على السلطان . إذ أحرزت روسيا انتصارات برية وبحرية فى رومانيا والبحر المتوسط، واتصل الأسطول الروسى بالعناصر الأرثوذكسية الثائرة على الدولة العثمانية،والعناصر الثائرة فى الولايات العربية مثل على بك الكبير فى مصر والشيخ ظاهر العمر فى فلسطين . وانتهت الحرب بتوقيع معاهدة كوتشك قينارجة Kuchuk Kaynarja وغدت هذه المعاهدة حجر الزاوية فى العلاقات الروسية العثمانية . فاعترفت الدولة العثمانية باستقلال شبه جزيرة القرم عنها وضمتها الإمبراطورية كاترين إلى روسيا بعد ذلك بتسع سنوات، كما سمح لروسيا بإنشاء قنصليات فى ممتلكات الدولة العثمانية وأصبح لرعاياها حق التجارة فى أملاك هذه الدولة . كما كان لروسيا الحق فى إقامة كنيسة أرثوذكسية فى القسطنطينية،وسمح لرعاياها بالحج إلى الأراضى المقدسة المسيحية التى تقع فى الممتلكات العثمانية [٤].

وهكذا منحت المعاهدة روسيا منافع وتوسعات إقليمية عظيمة . فقد وضعت حداً للسيطرة العثمانية المطلقة على البحر الأسود وخلق شيئاً من التبرير للادعاءات التى أخذ يدعيها الروس بعد ذلك فى أن لهم الحق فى التحدث باسم المسيحيين الأرثوذكس الموجودين فى جميع أنحاء الغمبراطورية العثمانية . وبدأ مولد المسألة الشرقية التى أصبحت من أهم الأمور التى ميزت تاريخ القرن التاسع عشر . وأخذت روسيا منذ ذلك الحين تمارس ضغطاً لا هوادة فيه على الإمبراطورية العثمانية، مستخدمة أسلحة السياسة والوحدة السلافية والأرثوذكسية فضلاً عن الاعتداء العسكرى الصريح لتحقيق أهدافها ثم أعطى إلى روسيا جزء آخر من البلاد المطلة

على البحر الأسود بين نهرى الدينير والبوج بموجب معاهدة ياصى Jassy على أثر حرب دامت خمس سنوات وانتهت فى عام ١٧٩٢ وقد ضمنت هذه المعاهدة كذلك موافقة الدولة العثمانية على ما قامت به روسيا من قبل بضم القرم إليها ونتيجة لذلك ظهرت روسيا للوجود باعتبارها دولة كبيرة من دول البحر الأسود . فأنشأت قواعد بحرية مهمة وتحصينات فى سباستبول وأوديسا، وحصل أسطولها على السيادة فى مياهه ولم يخل تقدم روسيا المطرد. من تاثير على بريطانيا التى صارت تشعر شيئاً فشيئاً بالأخطار التى تنطوى عليها هذه الانتصارات الروسية . وأراد بت الأصغر، وزير خارجية بريطانيا، تحريض البرلمان على القيام بعمل ما تجاه ما صارت تنطوى عليه السياسة الروسية من تهديد للمصالح البريطانية . ولكن قبل تنفيذ ذلك حدثت تطورات جديدة لفتت أنظار الدول الأوروبية بعيداً عن روسيا . فقد كان لظهور نابليون بونابرت وتألقه فى أعقاب الثور الفرنسية تأثير واضح على شكل السياسة الأوروبية وتاريخ الشرق الأوسط كذلك . ويمكن أن يعزى ذلك إلى سببين : أولهما أن حملات نابليون العسكرية أدت به فى النهاية إلى أن يقف وجهاً لوجه أمام العثمانيين، وثانيهما أن مبدأى القومية وحقوق الشعوب اللذين جاءت بهما الثورة الفرنسية تأثرت بهما أقوام الإمبراطورية العثمانية المختلفة فأديا إلى نتائج مقلقة (٥).

وفى الوقت الذى كان الباب العالى يواجه فيه التفكيك الداخلى كان عليه أن يواجه تجدد هجمات القوى الخارجية، فعندما اعتلى سليم الثالث العرش فى ١٧٨٩ كانت حكومته ما تزال فى حرب مع النمسا التى كانت قد احتلت بلجراد ثم أعادتها بمقتضى معاهدة سيستوفا Sistova فى ١٧٩١ مقابل ان تأخذ النمسا البوسنة،والحرب مع روسيا التى كانت قواتها تتحرك بطول الدانوب إلى أن تم عقد صلح ياصى Jassy فى ١٧٩٢ وبمقتضاه مدت روسيا أراضيها حتى نهر الدنيستر وتنازلت عن مولدافيا وولاشيا التى كانت

قد احتلتهما . وتعتبر هاتان المعاهدتان خاتمة لقرن من التعاون المتقطع بين النمسا وروسيا ضد العثمانيين،ولكن بعدانقضاء ثمانين عاماً عليهما تعاونت الدولتان مرة أخرى للاتفاق على كيفية تقسيم أراضى الدولة العثمانية،وكانت ثمة ظروف قد حالت دون استمرار التعاون .

والحاصل ان القوى العظمى صرفت انتباهها عما يحدث فى بلاد الشرق الأوسط وركزت اهتمامها على بولندا ثم على فرنسا الثورة،وكانت بولندا قد تعرضت للتقسيم على ثلاث مراحل فى ١٧٧٢، ١٧٩٣، ١٧٩٥، واشتعلت الحرب فى أوروبا عام ١٧٩٢ . وعل هذا ظل التركيز الأساسى للعلاقات الأوربية قائماً على ما يدور فى القارة الاوربية من أحداث كانت لها تداعيات واسعة فى كل من البلقان وشرق البحر المتوسط . ففى ١٧٩٧ وبمقتضى معاهدة كامبو فورميو Campo Formio ضمت فرنسا جزر أيونيا مما كان له تأثيره على ثورة اليونانيين، وحصلت النمسا على بقايا أراضى البندقية وبهذا تم وضع حد للقوى البحرية المستقلة (البندقية) التى كانت فى السابق أكثر غريم للعثمانيين [٦].

فى يوليو ١٧٩٨ بدأت فترة من التدخل الفرنسى المباشر فى الولايات العثمانية عندما غزا بونابرت مصر وانهزمت أمام جيوشه عساكر المماليك بسرعة ملحوظة وأصبح الباب العالى طرفا فى الصراع ضد فرنسا بالتحالف مع بريطانيا التى ساءها انفراد فرنسا باحتلال مصر، وانتهى الأمر بمعاهدة صلح بين فرنسا وانجلترا فى ١٨٠٢ نصت فيما نصت على خروج الإنجليز من مصر وظلت تلك المعاهدة فاعلة حتى ١٨٠٦ .

على كل حال .. ففى فترة التدخل الفرنسى فى شؤون الولايات العثمانية زاد نفوذ فرنسا زيادة ملحوظة فى السياسة العثمانية حتى لقد ارتبطت الدولة العثمانية بفرنسا ضد كل من روسيا وبريطانيا . ورغم أن الفترة من ١٨٠٦

ـ ١٨١٢ لم تشهد معارك مستمرة بين روسيا والدولة العثمانية إلا أن روسيا حاولت استغلال الفرصة لزيادة نفوذها فى الحرب وإمارتى الدانوب (ولاشيا ومولدافيا ـ رومانيا فيما بعد) . وقد انتهى الصراع بين الدولتين بمعاهدة بوخارست ١٨١٢ اكتفت فيها روسيا بتنازل الدولة العثمانية عن بسارابيا والانسحاب من إمارتى الدانوب برغم موقف العثمانيين الضعيف لأن روسيا كانت معنية آنذاك بأمر غزو بونابرت لأراضيها . وكانت خسائر العثمانيين فى هذه التسوية يعد أول تغيير فى حدودها نتيجة لحروب الثورة الفرنسية فى أوروبا بقيادة بونابرت، وأكثر من هذا أن تسوية فيينا (١٨١٥) بعد هزيمة بونابرت والتى لم تحضرها الدولة العثمانية قضت بمنح جزر أيونيا العثمانية لبريطانيا، وساحل دلماشيا للنمسا فكانت بمثابة الاقتطاع الثانى من آفاق الدولة العثمانية .

لقد كان مؤتمر فيينا بداية فترة من السلام النسبى بين القوى العظمى فى أوربا دامت قرنا من الزمان فقدت خلاله الدولة العثمانية معظم ممتلكاتها فى أوربا وأثبتت الأيام عجزها عن الدفاع عن وحدة ممتلكاتها أو حتى صيانة استقلالها السياسى دون مساعدة خارجية،ولم تبق دولة العثمانيين قائمة إلا بسبب موقع أراضيها الاستراتيجى والحيوى لصالح توسع الدول الإمبرالية . وفى هذا الخصوص احتلت روسيا وبريطانيا أهمية خاصة إذ أصبح صراعهما على الدولة العثمانية وعلى البلقان جزء من السباق الإمبريالى الكبير الذى اندلع بين هاتين الدولتين وامتدت ميادينه من شرق البحر المتوسط إلى الصين مروراً بآسيا الصغرى [٧].

والحاصل أن بريطانيا كانت قد استكملت سيطرتها على الهند فى القرن الثامن عشر واعتبرتها درة التاج البريطانى،وأصبحت الدولة التجارية والصناعية الأولى فى العالم وسيدة البحار ومن ثم كانت تخشى أن ينتزع منها أحد تلك المكانة . وفى نهاية القرن الثامن عشر كانت ترى أن فرنسا

زمن بونابرت هى منافستها الرئيسية فى العالم بما فى ذلك بلاد الشرق الأدنى، ثم أصبحت روسيا هى المنافس بعد القضاء على بونابرت وقبل إعلان دولة ألمانيا . وكانت أراضى الدولة العثمانية من وجهة نظر بريطانيا تمثل مفتاح توسعها الإمبريالى تجارياً وبحرياً دفاعاً عن الهند ولهذا كانت تخشى دوماً أن تستولى روسيا على تلك الأراضى سواء بالغزو المباشر أو بالسيطرة على الحكومة العثمانية أو بإقامة دول بلقانية تابعة لها . وبسبب هذا الخوف ظلت بريطانيا ترفع شعار وحدة الأراضى العثمانية وتكاملها طوال القرن التاسع عشر ويقوم سفيرها فى استنبول بالضغط على الحكومة العثمانية لإصلاح نظام الحكم والإدارة فيها والسعى للتوفيق بينها وبين شعوب البلقان حفاظاً على الاستقرار .

أما وضع روسيا بالنسبة للدولة العثمانية فكان أكثر تعقيداً فبعد أن ابتلعت روسيا بسارابيا فى ١٨١٢ كما رأينا لم تضع فى حساباتها أن تضم أراض عثمانية أخرى رغم الفرص التى أتيحت لها أمد نفوذها هنا وهناك فمثلاً كان من الممكن أن تستثمر الحركات القومية بين شعوب البلقان التى كانت تعتبر روسيا أعظم قوة أرثوذكسية وهو شعور كانت روسيا تغذيه كلما سنحت الفرصة . ففى معاهدة كوتشك قينارجى ١٧٧٤ مع الدولة العثمانية نجحت روسيا فى أن تضع بذرة لنوع من إدعائها الحماية الدينية للأرثوذكيس ولو بشكل ملتبس وغامض . ولم يكن مسيحيو البلقان ينتظرون فقط المساعدة من روسيا بل لقد كانت هناك عناصر مهمة بين الروس أنفسهم انجذبت بشدة لفكرة تقديم المساعدة للحركات القومية فى البلقان على أسس أرثوذكسية وسلافية . وهكذا وجدت حكومة روسيا نفسها تحت ضغط استغاثات البلقانيين من جهة وتحت ضغط الرأى العام فى الداخل من جهة أخرى لقيام بشئ ما لمواجهة القهر الذى يتعرض له المسيحيون فى البلقان والسلافيون بشكل عام.

وفى كل الأحوال كانت روسيا تحت إغراء التدخل فى الشؤون العثمانية بطريقة أو بأخرى لتحقيق مكانة ممتازة من ناحية ولتوسيع دائرة قوتها ونفوذها من ناحية أخرى، لم تكن تتصور شأن بريطانيا أن ترى قوة أخرى تسيطر على البلقان . وفى هذا الخصوص كانت روسيا تملك عدة أسلحة قوية فى التعامل مع الباب العالى فى مقدمتها القوة العسكرية الضخمة والحركات القومية فى البلقان . غير أن قادة روسيا كانوا يفضلون اتباع السياسة التى تم إقرارها فى معاهدة خونكيار اسكله سى فى ١٨٣٣ التى تقوم على السيطرة على الدولة العثمانية من الداخل (٨).

أما النمسا فكان موقفها بالنسبة للقوى العظمى التى كانت معنية بشؤون البلقان هو الموقف الأضعف نسبياً فيما يبدو، فباعتبارها إمبراطورية متعددة القوميات فإنها قد تكسب قليلاً إذا ما حدث تغيير فى أوضاع الممتلكات العثمانية،ومن ناحية أخرى فإن استيلائها على أراض جديدة فى البلقان قد يزيد من مشكلات الأقليات القومية التى تحت سيادتها، ومن ناحية ثالثة فإن تأسيس دول مستقلة فى البلقان العثمانى قد يشجع مختلف المجموعات القومية تحت حكمها على السير فى الطريق نفسه . ورغم أن النمسا كانت تتعاون مع روسيا فى إطار سياسة توازن القوى إلا أن قادة النمسا كانوا يدركون فى الوقت نفسه مخاطر هذا الطريق إذ لم يكونوا يعتقدون أبدا بإمكانية هزيمة جيوش روسيا إذا ما اندلعت حرب فى البلقان بسبب أزمة حقيقية . وعلى هذا وفى إطار تفضيل النمسا لمبدأ المحافظة على وضع الدولة العثمانية وممتلكاتها كان عليها أن تتعاون مع بريطانيا التى كانت تخشى مثلها توسع روسيا،وهو تعاون إذا ما تم وضعه فى صيغة تحالف فإن النمسا سوف تتحمل الأعباء العسكرية والمخاطر الحقيقية فى حالة قيام حرب ضد روسيا على حين سوف تكون الحاجة للبحرية البريطانية منعدمة أو ضئيلة فى حالة الحرب البرية ضد روسيا .

أما فرنسا بعد الحروب النابوليونية ورغم مكانتها الهائلة فى القـرون السابقة إلا أنها كانت أقل نفوذاً فى الإمبراطورية العثمانية بالقيـاس للقـوى الثلاثة الأخرى (روسيا والنمسا وبريطانيا) . ورغم أن إيديولوجية الثورة الفرنسية لعبت دوراً كبيراً فى الحركات القومية فى البلقـان إلا أن فرنسـا نفسها خلال الفترة من ١٨١٥ ـ ١٨٤٨ لم تعد مركزاً للتهييج والإثارة ومع هذا كانت فرنسا فى عهد نابليون الثالث تساند الحركات القومية فى البلقان . غير أن فرنسا بدون جيش على المسرح السياسى وأسطول بحر أقل درجـة من أسطول منافستها بريطانيا ترددت فى التدخل فـى صـراعات الشـرق الأدنى. وفى الوقت نفسه كان لها أهداف فى أجـزاء مـن الإمبراطوريـة العثمانية . ففى ١٨٣٠ احتلت الجزائر،وازداد نفوذها فـى مصـر، وفـى أربعينيات وستينيات القرن التاسع عشر تدخلت فى سوريا ولبنـان . ولمـا كانت ترغب فى توسيع إمبراطورياتها فى أفريقيا وآسيا فقد كانت تساند عادة تكوين الدولة القومية، وإضعاف الحكومة المركزية، وتعارض أى سياسة قد تؤدى إلى انفراد روسيا أو بريطانيا بالسيطرة وخصوصاً فى البلقان .

ولما كانت الإمبراطورية العثمانية عاجزة بمفردها عن الـدفاع عـن نفسها ضد الدول الأوربية الطامعة فيها فقد اضـطرت لأن تتبنـى سياسـة للتوازن بين القوى العظمى حفاظاً على مصالحها عن طريق ضـرب تلـك القوى بعضها البعض الآخر كلما أمكن ذلك . ولكن فى القرن التاسع عشـر كان واضحاً أن الدولة تخسر فى هذا الصراع إذ نراها تضطر لتقديم تنـازل إثر تنازل سياسياً واقتصادياً لصالح أوربا . وفى الوقت نفسه كانت الحركات القومية فى البلقان العثمانى تحقق تقدماً ملحوظاً بفضل مساندة إحدى الـدول الأوربية أو كل الدول الأوربية مجتمعة . ورغم أن مسيحيى البلقان هم الذين بدأوا الثورة إلا أن القوى العظمى هى التى صنعت فى النهاية خريطة الدول القومية الجديدة بحدودها وشكل حكوماتها . وفى هذا الخصوص كان الزعماء

الأوربيون فى الإجراءات التى اتخذوها أبعد ما يكونوا عن الإيثار ونكـران الذات إذ وضعوا فى اعتبارهم مصالحهم الخاصة والمحافظة علـى تـوازن القوى،وهى اعتبارات كانت تستخدمها فى مختلف مغامراتها الاستعمارية ولم يكن أمام الإمبراطورية العثمانية بل ودول البلقان الجديدة إلا الخضوع لها .

وبحلول القرن التاسع عشر كانت الأحوال السائدة فى البلقان فى صالح تمرد المسيحيين،ولم يكن باستطاعة الحكومة العثمانية السيطرة على النـبلاء المتمردين أو هزيمة الجيوش الأجنبية . وأثناء اضطراب المواقف تمكنـت قيادات عسكرية قوية من السيطرة على مراكز السلطة المحلية ممـا سـاعد على بلورة تقاليد التمرد .. ومن هذا المناخ وتلك الظروف انبثقت حركـات التمرد عند مسيحيى البلقان . وكانت ثورة الصرب أول الثورات اتصـالاً بمعنى فشل الحكومة العثمانية فى المحافظة على سلطتها فى المراكز المحلية وكذا ضعفها أمام خصومها (٩).

كما ساعد الصراع العثمانى الصفوى فى إضعاف الدولة العثمانية فعقب أن التصديق على معاهدة عام ١٥٩٠ حاول الشاه الصـفوى عبـاس الأول استيعاب الشعب الأوزبكى، ثم تحرك للاستيلاء على الأراضى الواقعة تحت أيدى العثمانيين. وقام بتحطيم قوات الأمراء التركمان فى الداخل ليجعل كفة الميزان فى صالح الدولة المركزية، ووضع نظاماً يشبه النظام القـائم لـدى العثمانيين، ثم بدأ الهجوم على آذربيجان. وكان العثمانيون حتى عام ١٦٠٣م أى لفترة ثلاثة عشر عاماً قد عجزوا عن تطبيق سياسة راسـخة للتـوطين والإسكان فى آذربيجان، وإحكام السيطرة التامة على أهـالى المنطقـة مـن الشيعة، وكان جل إهتمامهم منصباً على المواقع الاستراتيجية الهامة وطرق المواصلات الرئيسية. ولا شك أن من بين الأسباب على ذلك هو الحـروب الطويلة فى الغرب والأزمات والإضطرابات فى داخل البلاد والعجز المالى. وقد حاول الشاه عباس الاستفادة من ذلك الوضع فاستولى بسهولة على بعض

المراكز مثل تبريز وروان وكنجه ودربند ونَخْجِوان. وسعى إلى التضييق على العثمانيين من الناحية الاقتصادية، فكان يخطط لتحويل طريق الحرير إلى ميناء بندر عباس الذى أقامه حديثاً على خليج البصرة، وتشغيل طريق موسكو هو الآخر لذلك الغرض، وكان لأجل ذلك يقوم باتصالات وثيقة مع الإنجليز. وقام العثمانيون بالمقابل بحظر تصدير النحاس والمعادن الثمينة إلى إيران، ثم أنفذوا العديد من "الحملات الشرقية" إليها تصدياً لأعمال الشاه عباس. غير أن تلك الحملات كلها لم تتجاوز التنكيل بعصيان الجلالية، حتى قام قويوجى مراد باشا عقب إخماد ثورة جان بولاد أوغلى وتمرد الجلالية عام ١٦٠٧ بالتوجه نحو تبريز (١٦١٠م)، غير أن المعاهدة التى عقدت بين الطرفين عام ١٦١٢م قد أسفرت عن الإعتراف للصفويين بالسيادة على الأراضى التى استولوا عليها، بينما تقرر إلتزام إيران بإرسال الحرير كل عام نظراً لأهميته القصوى فى الاقتصاد العثمانى، وظلت المواد المتعلقة بالدين تأخذ مكانها فى المعاهدة كما كان الحال فى معاهدتى عام ١٥٥٥م وعام ١٥٩٠. وكان من الواضح أن تلك المعاهدة لم تأت بحل، ولكن العثمانيين لم يكونوا عازمين على التخلى عن حقوقهم فى آذربيجان، فقد كشفت أهمية تلك المنطقة فى المراحل التالية من الصراع العثمانى الإيرانى. وإشتعلت الحرب عام ١٦١٥م، وحوصرت رَوَان وأقيمت الاستحكامات فى قارص، إلا أن العثمانيين تعرضوا للفشل، وجرى عام ١٦١٨ عقد صلح تشبه شروطه شروط الصلح الذى عقد عام ١٦١٢. وعلى ذلك تكون المرحلة الثانية من مشكلة الشرق قد إنطوت، وعاد العثمانيون إلى الحدود التى كانت قائمة أيام السلطان سليمان القانونى[١٠].

ولكن العثمانيين واصلوا كفاحهم فى الشرق بثبات؛ فقد كان ذلك الأمر ينطوى على أهمية عظيمة لضمان أمن الأناضول واستقراره. وجرى الصراع مع إيران فى مرحلته الثالثة هذه المرة فوق أرض العراق. فقد كان

استيلاء الشاه عباس على بغداد وشمال العراق (١٦٢٤م) أمراً دفع العثمانيين من جديد إلى حلبة الصراع، غير أن الحملات التى أنفذوها عام ١٦٢٥م وعام ١٦٢٩ / ١٦٣٠م لاستعادة بغداد ذات الأهمية الاقتصادية الكبيرة بالنسبة لهم لم تسفر عن شئ. وعندما ظهرت القلاقل الداخلية التى زعزعت الإدارة المركزية وضعفت قوة العثمانيين مع تغيرات السلطة الحاكمة جاء عهد السلطان مراد الرابع لتتمكن الدولة من استعادة قوتها من جديد وتأمن على حدودها فى الغرب نظراً لإنشغال الأوروبيين بحرب الثلاثين عاماً (١٦١٨ - ١٦٤٨م). هذا فقط أمكن للعثمانيين أن يتوجهوا بكل قواتهم نحو الشرق، فساروا أولاً على آذربيجان، واستولوا عام ١٦٣٥م على رَوَان غير أنهم لم ينجحوا فى السيطرة على آذربيجان. وفى عام ١٦٣٨م استعادوا سيطرتهم على بغداد. ثم عقدت مع الإيرانيين معاهدة قصر شيرين عام ١٦٣٩م التى جرى بموجبها ترسيم الحدود بين الدولتين بشكلها النهائى تقريباً. كما تخلى العثمانيون بمقتضى تلك المعاهدة عن مطالبهم حيال آذربيجان، وصادق الصفويون على سيادتهم فى بغداد وشهرزور و وَان وقارص. وبذلك حققت كل دولة منهما توازناً تجاه الأخرى خلال القرن السابع عشر فى إطار تلك الحدود الطبيعية، وتجنبتا اللجوء مدة طويلة إلى أعمال خطيرة قد تجرهما إلى الحرب. ولكن العثمانيين على الرغم من نجاحهم فى سياستهم الخاصة بحماية أراضيهم فى الغرب وتصديهم بسهولة للقوى الجديدة الصاعدة فى الغرب والشمال فإنهم لم يغفلوا أبداً مراقبة خطرٍ قد يأتيهم من جهة الشرق(١١).

كما ساهم الصراع مع البرتغال فى إضعاف الدولة العثمانية فقد تحول إهتمام العثمانيين من البحر المتوسط إلى المحيط الهندى خلال الفترة الممتدة بين عامى ١٥٧٧ و ١٥٨٠. وكان يوجه سياسة الدولة خلال الفترتين اللتين شغل فيهما صوقوللى الصدارة العظمى رجال من أمثال سنان وفرحات ولالا

مصطفى وعثمان أزدميروغلو، ممن إمتازوا جميعاً بإتساع الأفق. فلم يكن مشروع قناة الدون - الفولجا هو المشروع الوحيد الذى راود أحلام الساسة العثمانيين خلال هذه الفترة، بل أنهم فكروا فى مشروعات أخرى منها وصل بحر مرمرة مباشرة بالبحر الأسود عن طريق شق قناة، وشق قناة تصل البحرين الأحمر والمتوسط بهدف تمكين الأسطول العثمانى فى البحر المتوسط من العمل فى البحر الأحمر والمحيط الهندى. ومما يدل على إهتمام الدولة بالملاحة الشرقية خلال هذه الفترة أن نفس العام الذى شهد الاستيلاء على جزيرة قبرص شهد أيضاً استكمال إحتلال سنان باشا لليمن وضغط عثمان أزدميروغلو على الأحباش من قاعدة مصوع. ولم يتردد العثمانيون فى استغلال الكارثة التى حلت بالبرتغال فى عام ١٥٨٠ حين ضمتها أسبانيا. ففى خريف ١٥٨٥ خرج ميرال من مضيق باب المندب بسفينتين شراعيتين من ذوات المجاديف وعليهما ما لا يزيد على ٨٠ رجلاً، معلناً أنه يقود طليعة أسطول عثمانى ضخم، وأدى ظهوره إلى إرهاب الحكام المحليين الذين استاؤوا من إبتزاز السلطات البرتغالية. وطاف ميرال حول القرن الإفريقى واستولى على مقدشيو وغيرها من المحطات الواقعة على شواطئ الصومال وشدد قبضة العثمانيين على ساحل إفريقيا الشرقى بحيث لم يبق فى أيدى البرتغاليين سوى ماليندى وباتا وكليف. وهكذا سيطر العثمانيون على الساحل الإفريقى الشرقى وقطعوا خط المواصلات - حول إفريقيا - إلى المستعمرات البرتغالية فى الهند وجزر البهار.

ولكن ثبت أن هذه السيطرة العثمانية كانت قصيرة الأجل - إذ سرعان ما قام البرتغاليون بهجوم مضاد. ففى يناير ١٥٨٧ قام أسطول برتغالى يتكون من خمس سفن كبيرة وعشرة سفن صغيرة بمعاقبة الحكام الذين رحبوا بالعثمانيين فى شرقى إفريقيا. على أن ميرال عاود الهجوم فى أواخر عام ١٥٨٨ بأسطول يتكون من خمس سفن، ولكن البرتغاليين المتيقظين أعدوا

كامل قوتهم البحرية المتفوقة لمواجهة المغامرة العثمانية الجسورة. وفى يناير ١٥٨٩ بارح أسطول برتغالى يتكون من عشرين سفينة كبيرة وصغيرة تحمل ٩٠٠ مقاتل ميناء جوا فى الهند، وحين وصلت السفن البرتغالية إلى ممباسا كان ميرال يواجه بقوته الصغيرة هجوم قبائل الزمبا التى كانت تنشر الخراب خلال هجرتها من منطقة زمبيزيا صوب الشمال. ولم ينج من العثمانيين سوى عدد قليل (منهم ميرال) ممن لجأوا إلى سفن البرتغاليين الذين قضوا على الزمبا. وقد وضعت هذه المغامرة حداً للتغلغل العثمانى فى ساحل إفريقيا الشرقى خاصة وأن العثمانيين كانوا يستعملون سفناً خفيفة وقوات قليلة فى أماكن تبعد عن قواعدهم الرئيسية، بحيث حسمت السفن البرتغالية المتفوقة – التى كانت تصلها التعزيزات بسهولة من الموانئ الهندية – الموقف لصالح البرتغاليين. لهذا تخلى العثمانيون عن محاولاتهم التغلغل إلى داخل الحبشة وإنسحبوا إلى المنطقة الساحلية القريبة من مصوع[١٢].

ثانياً : العوامل الداخلية.

بموت السلطان سليمان القانونى فى عام ١٥٦٦ إنتهى عهد السلاطين الأقوياء الأكفاء، وإنتهى عهد الفتوح من الناحية الواقعية رغم حدوث إضافات إلى رقعة الدولة أقل نسبياً مما كان عليه الحال فيما مضى. وتتابع على العرش سلاطين ضعاف وتعرضت الإمبراطورية لهزائم عسكرية وبحرية كبيرة. ففيما بين عامى ١٥٦٦ و١٧١٨، حكم الإمبراطورية ما لا يقل عن ثلاثة عشر سلطاناً، لم يظهر كفاءة منهم سوى إثنين هما مراد الرابع (١٦٢٣ – ١٦٤٠) والسلطان مصطفى الثانى (١٦٩٥ – ١٧٠٣). واستمر الحال على ذلك إلى أن ظهر السلاطين المصلحون فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر، وكان أول هؤلاء السلاطين السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ – ١٨٠٧) ومحمود الثانى (١٨٠٨ – ١٨٣٩) وقد جاهدا لإعادة

تنظيم البناء العسكرى والإدارى لإمبراطوريتهما وذلك لمجابهة متطلبات العصر الجديد. فبعد أن بلغت الإمبراطورية أقصى إتساع ممكن لها فى عهد سليمان، بدأت مظاهر الضعف تظهر منذ عام ١٥٩١ – ١٥٩٢، أى فى عهد السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ – ١٥٩٥) حفيد سليمان[١٣].

وقد إنصرف معظم سلاطين فترة الضعف عن شئون الدولة. وكانوا لا يقابلون كبار الموظفين إلا على فترات زمنية متباعدة، وكانوا لا يخرجون مع الجيش إلى ساحات القتال باستثناء ثلاثة من السلاطين الثمانية الذين حكموا الدولة بعد سليمان المشرع حتى محمد الرابع. وكان هؤلاء السلاطين الثلاثة هم : محمد الثالث (١٥٩٦ – ١٦٠٣) فى حملة كيريزتس، وعثمان الثانى (١٦١٨ – ١٦٢٢) فى حملة كوتين، ومراد الرابع (١٦٢٣ – ١٦٤٠) فى حملة بغداد[١٤].

هذا ولم يتخلف السلاطين عن حضور ورياسة جلسات الديوان الهمايونى – الإمبراطورى – فقط، بل تكاسلوا أيضاً عن مراقبة أعماله وسماع مناقشات أعضائه من وراء ستار، وهو تقليد حرص عليه سلاطين العصر الذهبى.

وكان السلاطين لا يبرحون القصر، واستطابوا الإقامة فى أجنحة الحريم السلطانى يوزعون، أو بعبارة أكثر دقة، يبددون أوقاتهم بين القادينات حيناً، وفتيات الغرف أحياناً كثيرة التماساً للمتع، ويسرفون فى تناول الخمور، ويرتكبون سائر الموبقات مستغلين العزلة التى أحاطوا أنفسهم بها أو التى أحاطتها سيدات الفئة الأولى من الحريم السلطانى بهم. وقد أطلق عليهم "السلاطين الذين لا يراهم أحد" إذ لم يكن يراهم رعاياهم ولا الجيش ولا الوزراء. وكانوا لا يعلمون شيئاً عن تصرفات حكام الولايات.

وكانت أجنحة الحريم هى مأواهم، وكان الإنغماس فى المتع الجنسية وغير الجنسية مع القادينات وفتيات الغرف هو شغلهم الشاغل، وقد قيل إنه كان لأحد سلاطين الفترة الثانية فى أثناء توليه الحكم أكثر من ثلاثمائة فتاة من الجوارى الفاتنات، كما قيل إن عدد الذكور والإناث الذين أنجبهم السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٥) لم يقل عن مائة وثلاثين نتيجة إسرافه فى المسائل الجنسية، وأخيراً فإن جهل أولئك السلاطين بالأحداث الجسام التى تجرى فى الدولة نتيجة إنصرافهم عن ممارسة إختصاصاتهم كانت سمة بارزة فى أخلاقهم. ولذلك أطلق عليهم أحد المؤرخين الفرنسيين اسم ((السلاطين التنابلة)) وقد أشاد أحد كبار المؤرخين الإنجليز بهذه التسمية واستخدمها وهو يتناول تاريخ تلك الحقبة، فقال إن الدولة العثمانية، وهى أعظم الدول العسكرية، قد وقعت فى أيدى سلاطين ((تنابلة)) [١٥].

وكان عدد من أولئك السلاطين يتعرضون للعزل نتيجة تمرد عسكرى تقوم به الفيالق الإنكشارية أو نتيجة فتوى تصدر عن شيخ الإسلام بعدم صلاحيتهم للاستمرار فى الحكم. وكان عزلهم يقترن عادة بقتلهم أو خنقهم.

والحق أن مركز السلاطين فى تلك الفترة قد إهتز إهتزازاً عنيفاً فى نظر الجيش وموظفى الدولة وسائر هيئاتها والجماهير بعد ان استفاضت الأنباء بتصرفات أولئك السلاطين. وإنتقلت هذه الأخبار عبر الحدود إلى العالم الخارجى. وإن السيف الذى كان يمسك به السلاطين الشوامخ فى العصر الذهبى للدولة من أمثال أبى يزيد الأول الذى إشتهر باسم يلديرم أى البرق لتنقلاته الحربية السريعة بين الجبهتين الأناضولية البلقانية، والسلطان محمد الثانى الذى فتح القسطنطينية، وسليم الأول وسليمان المشرع، قد تحول من سيف باتر إلى شخشيخة.

وقد بلغ من هوان السلاطين على أنفسهم فى تلك الفتــرة أن إتصـــالات السلطان بالصدر الأعظم كانت تتم عن طريق أحد العبيد الخصيان، وكـــان يطلق عليه ((دار السعادت أغاسى)) أى أغا دار السعادة. وكان يشـــار إلــى الأخير عادة بإعتباره القيزلر أغاسى اى أغا البنـــات. وطبقـــاً للبروتوكـــول العثمانى كان هذا الأغا يعد أكبر موظف فى القصر السلطانى كلـــه. وكـــان يشغل المركز الثالث فى الدولة بعد الصدر الأعظم وشيخ الإسلام. وكان فى درجة وزير ويحمل ثلاثة أطواخ. وقد أتاح الوضع المتميز جداً لهذا الخصى فرصة ذهبية للحريم السلطانى لتصعيد نفوذهن كمركز قـــوة، فيـــنقلن إليـــه أوامرهن أو رغباتهن سواء للسلطان أو الصدر الأعظم. وكانت مـــؤامراتهن تجد طريقها معبداً وميسراً للتنفيذ الفورى(١٦).

كان من أسباب ضعف شخصية أولئك السلاطين الأسلوب الذى إتبعـــوه منذ أواخر القرن السادس عشر فى تنشئة الأمراء العثمـــانيين. فقـــد حـــددوا إقامتهم فى داخل القصر، كل منهم فى مقصورة أطلق عليها القفص وأحاطوا كل أمير منهم بعدد من الجوارى والخصيان. وحرموا عليهم الإتصال بالعالم الخارجى، ولم يكونوا يعرفون شيئاً عن أخبار الدولة. فعاشـــوا فـــى عزلـــة مدمرة، وأصيبوا بإنهيار الأعصاب، وميل مبكر إلى النسائيات مع الجوارى. وقد طبق هذا النظام أيضاً على الأمراء الذين إختيروا لتولى العرش. فكـــان الأمير ولى العهد يخرج من القفص بعد وفاة السلطان الحاكم ليرتقى العرش وهو محطم نفسياً، مهتز الشخصية، ضعيف فى تفكيره، عـــديم التجـــارب، تعوزه الشجاعة. يريد أن يعوض حياة الحرمان والعزلة بجو آخر فيه تحرر، وفيه إنطلاق، وفيه تمتع بمباهج الحياة. أما إختصاصاته كســلطان فكـــان لا يكاد يعرف شيئاً عنها. ومن هنا كان إنصرافه عن ممارسة شـــئون الدولـــة، ومن هنا أيضاً كان التأثير عليه سهلاً وسريعاً من جانب والدته أو أختـــه او القادينات وجميعهن من سيدات الفئة الأولى فى الحـــريم الســـلطانى. وكـــان

مطمع كل واحدة منهن أن تستأثر بالنفوذ الأعلى، وأن تتبوأ القمة بين مراكز القوى في الدولة. والواقع أن هؤلاء السلاطين كانوا ضحية نظام فاسد، هو نظام القفص، استحدثه الأباء حرصاً منهم على المحافظة على مراكزهم من دسائس الأبناء أو أقاربهم أو كبار رجال الدولة يتخذون من أحد الأمراء مطية للإطاحة بالسلطان الحاكم وتعيين آخر يأنسون إليه(١٧).

وفي الوقت الذي زاد فيه ضعف مستوى السلاطين، إزداد نفوذ الصدور العظام، فقد كان يتصرف في كل التعيينات في وظائف الجيش والإدارة المركزية والولايات، بالإضافة إلى قيادة الجيش أحياناً إذا دعت الضرورة، يضاف إلى هذا الإشراف على القانون والنظام في العاصمة، كما أنه كان يمثل السلطان بصفته المشرف الأعلى على إجراء العدالة بحكم أن السلطان كان يتولى وظيفة الإمامة وفي عام ١٦٥٤ حصل الصدر الأعظم على مقر رسمي له ظل لمدة قرنين المركز الرئيسي للإدارة العثمانية وأصبح اسمه منذ ذلك الوقت قبوسي (بوابة الباشا) وباب عالي (الباب العالي) The Sublime Porte. ولم يكن هذا المبنى مجرد مسكن للصدر الأعظم وأسرته وخدمه وحرسه، بل إنه كان ديواناً عاماً يقوم فيه كبار الموظفين بتصريف كل مهماتهم، باستثناء ما يتعلق منها بالشؤون المالية ومن الصدور العظام الذين علا نجمهم على حساب السلاطين، محمد صوقللي باشا في عهد سليم الثاني وسنان باشا عدو النمسويين اللدود في عهد محمد الثالث، ومراد باشا في عهدي أحمد الأول وعثمان الثاني(١٨).

ومن أبرز الصدور العظام الذين لعبوا دوراً هاماً في تاريخ الدولة محمد كوبرولو. فحين أحدقت الأخطار بالدولة العثمانية رأت والدة السلطان محمد الرابع (١٦٤٨ – ١٦٨٧) أن تعهد بمنصب الصدارة العظمى إلى رجل ذي بأس شديد هو محمد كوبرولو، وينتمي إلى أسرة كوبرولو الألبانية. وقد إشترط محمد كوبرولو عدة شروط لقبول هذا المنصب منها : إطلاق يده في

إختيار شاغلى المناصب الحكومية، ومنحه سلطات واسعة فى الضرب على أيدى أعداء الدولة سواء فى الداخل أو الخارج، وعدم الاستماع إلى الوشايات التى قد يروجها المرجفون إبتغاء النيل من تصرفاته. ووافقت السلطانة الوالدة على هذه الشروط وغيرها. وكان محمد كوبرولو رجلاً أمياً لا يعرف القراءة والكتابة، ولكنه كان موهوباً فى ذكائه ونشاطه وحزمه، طاعناً فى السن بلغ السبعين عاماً عندما عين فى عام ١٦٥٦ صدراً أعظم. ويطلق عليه المؤرخون كوبرولو الأول. وما لبث أن شعر الجميع بقسوته وبطشه، فقد حكم البلاد بيد من حديد، ووقف موقفاً حازماً من الإنكشارية والإسباهية والطوبجية (جنود سلاح المدفعية) وغيرهم من أفراد أسلحة الجيش. وحارب النزعة التى تفشت فيهم وهى الاستخفاف بالأوامر العسكرية والنزوع إلى حركات التمرد. وأوغل محمد كوبرولو فى سياسة الذبح والقتل والشنق، ويقرر جلاده أن عدد الذين أعدموا فى خلال السنوات الخمس التى تولى فيها منصب الصدارة العظمى (١٦٥٦ - ١٦٦١) قد بلغ ستة وثلاثين ألفاً. ولم تذهب هذه الدماء هباءً لأنها أعادت النظام إلى صفوف الجيش، والأمن إلى البلاد والنزاهة إلى أجهزة الدولة. وأصبح شعار الجميع : إحترام القانون، والتفانى فى خدمة الدولة بكل إخلاص خوفاً من الذبح أو الشنق او القتل أو الإغراق. ولما إشتدت عليه وطأة المرض وشعر بدنو أجله ألقى فى أذن محمد الرابع نصائحه الأخيرة، وهى : ألا يستمع لأقوال السيدات، وألا يعهد بالمناصب الحساسة ذات النفوذ إلى رجل غنى، وأن يجعل الجيش فى حركة حروب مستمرة. واستفسر منه السلطان عن الشخص الذى ينصح بتعيينه صدراً أعظم خلفاً له فأجاب بقوله ((إنى لا أعرف أحدا أكثر مقدرة وكفاية من ابنى أحمد)). وعين أحمد كوبرولو صدراً أعظم فى عام ١٦٦١، وكان له ستة وعشرون عاماً. ويطلق عليه المؤرخون كوبرولو الثانى، وكان قد ظفر بتعليم راق وثقافة واسعة شملت شتى فروع المعرفة من فقه وفلسفة

وفلك وتاريخ وأدب[١٩]. ومن مظاهر ضعف الدولة العثمانية إنحطاط الجيش فيها، وظهر ذلك واضحاً فى أن الإنكشارية بدأ خطرها يظهر فى عهد السلطان سليم الأول بالذات، على الرغم من أن هذا السلطان قد استجاب استجابة فورية لطلبهم بتوزيع عطايا مالية عليهم بمناسبة توليه العرش، إذ سرعان ما ظهر نفوذهم وتدخلهم فى شئون الدولة أخطر ما يكون هذا التدخل وذلك النفوذ. حيث أنه بعد أن انتصر السلطان سليم على الشاه إسماعيل الصفوى فى موقعة جالديران سنة ١٥١٤م، وبينما كان سليم فى إنتصاره إذ حدث تطور مفاجئ فى الموقف الحربى، فقد أوقف سليم العمليات الحربية فجأة وعاد إلى استانبول قانعاً بما استولى عليه من كثير من بلاد أرمنيه وما بين النهرين كان سبب هذا التطور المفاجئ هو أن الإنكشارية طلبوا من السلطان سليم إنهاء الحرب وخشى سليم أن يعمدوا إلى التمرد وهو بعيد عن بلاده. ودبر الإنكشارية حركة عصيان فى شهر مارس ١٥٢٥م فى استانبول عقب عودة السلطان سليمان المشرّع إليها من أدرنة، حيث كان يقضى فصل الشتاء. وقاموا بنهب قصر الصدر الأعظم إبراهيم باشا؛ وكان وقتذاك بمصر، كما هاجموا الديوان الجمركى – ديوان الجمارك – وعدداً من مساكن الأعيان، ثم إتجهت جموعهم إلى حارة اليهود. حيث قاموا بعملية النهب والسلب ويلاحظ أن الهدف من عصيانهم كان إغتصاب الأموال سواء من أماكن حكومية أو أهلية، سواء من المسلمين أو اليهود. وقد تدارك السلطان سليمان الأمر بنفسه بمنتهى السرعة، فوزع عليهم الدوكات دفعة أولى تتلوها أقساط أخرى إذا أخلدوا إلى النظام. وأنهى الإنكشارية حركة التمرد طمعاً فى الحصول على المزيد والعطايا.

وتعرض السلطان سليم الثانى (١٥٦٦ – ١٥٧٤) فى مستهل حكمه للمهانة على أيدى الإنكشارية حين دخل استانبول لأول مرة عقب إرتقائه العرش مباشرة وسط مظاهرات صاخبة قاموا بها وظهروا فى أثناءها

أزدرائهم الشديد له، إذ إعترضوا طريق موكبه بعربة ملئت تبناً. وتوقف الموكب السلطانى وطالبوا السلطان بدفع مبالغ ضخمة بمثابة أعطيات لهم حتى يسمحوا لموكبه بمواصلة التقدم إلى القصر وقد رضخ السلطان لطلبهم.

وعلى عهد السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ – ١٥٩٥) طالب الإنكشارية بتسليم كل من الباش دفتردار ومحمد باشا بكلربك الروملى. وكانت حجة الإنكشارية فى طلبهم القبض على هذين الموظفين الكبيرين أنهما أرادا أن يصرفا لهم نقوداً فضية ناقصة العيار. وكانت الحكومة المركزية فى استانبول قد لجأت فعلاً إلى هذا الإجراء لمواجهة زيادة حجم الإنفاق العسكرى نتيجة تضخم عدد أفراد الإنكشارية بعد أن سمح السلطان مراد الثالث للمجندين المسلمين الأحرار بالإلتحاق بفيالق الإنكشارية.

وقد استخف الإنكشارية بالسلطان عثمان الثانى (١٦١٨ – ١٦٢٢م) وثاروا عليه وطلبوا منه إنهاء الحرب التى كان يخوضها ضد بولندا وإضطر السلطان إلى النزول على رغبتهم، وعقد الصلح مع البولنديين فى أكتوبر سنة ١٦٢٠ وضيق السلطان على الإنكشارية لموقفهم المخزى، فقد أوقف العمليات الحربية وعقد الصلح دون أن يحقق جيمع أهدافه من هذه الحرب. فإعتزم السلطان عثمان الثانى تصفية قوات الإنكشارية وأمر بحشد قوات عسكرية كثيفة العدد من ولايات آسيا حتى إذا إكتملت القوات استعان بها على إبادة هذه الفئة من الإنكشارية، وشرع فعلاً فى تنفيذ خطته وأحس الإنكشارية بهذه الحركة وثارت ثائرتهم. ووطدوا العزم على عزل السلطان عثمان الثانى. ونجحوا فى عزله فى اليوم الثلاثين من شهر مايو عام ١٦٢٢، وهجموا عليه فى القصر السلطانى وأخذوه إلى ثكناتهم وأوسعوه سباً وشتماً وضرباً، ثم ساقوه إلى يدى قوله – قلعة أبراج السبعة – التى أصبحت السجن الرسمى للدولة وتم إعدامه.

ولم يمض وقت طويل على قتل السلطان عثمان حتى أقدم الإنكشـــارية على قتل حسن باشا الصدر الأعظم على عهد السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ – ١٦٤٠) ومن الجرائم البشعة التى إرتكبها الإنكشارية أنهم قتلوا الســلطان إبراهيم الأول (١٦٤٠ – ١٦٤٨) خنقاً وقتلوا الصدر الأعظم وسُبيت زوجات السلطان سليمان الثانى (١٦٨٧ – ١٦٩١) (٢٠) وهكذا كان الإنكشارية سبباً فى ضعف الإمبراطورية.

حواشى الفصل الثالث

(١) فريدون أمجن : التاريخ السياسى للدولة العثمانية منذ قيام الدولة حتى معاهدة قبنارجه الصغرى، ضمن كتاب الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، المجلد الأول، إشراف وتقديم / أكمل الدين إحسان أوغلى، نقله للعربية صالح سعداوى، استانبول، ١٩٩٩، ص٤٨ .

(٢) عمر عبد العزيز عمر : تاريخ المشرق، ص١١٩ .

(٣) نفسه : ص١٢٠ .

(٤) نفسه : ص١٢١ .

(٥) نفسه : ص١٢٢ .

(٦) تشارلز ييلافيتش ـ بربارا ييلافيتش : تفكيك أوربا العثمانية (إنشاء دول البلقان القومية ١٨٠٤ ـ ١٩٢٠) ترجمة / عاصم الدسوقى، دار العالم الثالث، القاهرة، ٢٠٠٧، ص٣٣ .

(٧) نفسه : ص٣٤ .

(٨) نفسه : ص٣٥ .

(٩) نفسه : ص٣٦، ٣٧ .

(١٠) فريدون أمجن : المرجع السابق، صـ٥٠، ٥١.

(١١) نفسه : صـ٥٢.

(١٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق، صـ١٤٩، ١٥٠.

(١٣) عمر عبد العزيز : تاريخ المشرق، صـ١٠٩، ١١٠.

(١٤) عبد العزيز محمد الشناوى : جـ٢، صـ٥٩٩، ٦٠٠.

(١٥) نفسه : صـ٦٠٢، ٦٠٣.

(١٦) نفسه : صـ٦٠٤.

(١٧) نفسه : صـ٦٠٤، ٦٠٥.

(١٨) عمر عبد العزيز عمر : تاريخ المشرق، صـ١١١، ١١٢.

---

(١٩) نفسه : صـ١١٢، ١١٣.

(٢٠) صلاح أحمد هريدى : دراسات في تاريخ العرب، صـ٣٠٤ – ٣٠٦.

الفصل الرابع
أثر ضعف الدولة العثمانية على بعض ولايات العالم العربي

أولاً : الصراع على السلطة في مصر .

ثانيًا : آل العظم في سوريا .

ثالثًا : ظاهر العمر وأحمد الجزار في فلسطين.

رابعًا : تدهور أحوال العثمانيين في اليمن .

الفصل الرابع

أثر ضعف الدولة العثمانية على بعض ولايات العالم العربي

أولاً: الصراع على السلطة فى مصر

عالجت العديد من مصادر تاريخ مصر العثمانية موضوع ظهور طائفتى الفقارية والقاسمية، والصراع الذى نشب فيما بينهما حتى سنة ١٠٧١هـ/ ١٦٦٠م، والذى دار فيما بعد فى فلك البيوتات المملوكية.

فتشير بعض هذه المصادر أن ظهور الفقارية والقاسمية، يرجع إلى الفتح العثمانى ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م، وذلك عندما قام السلطان سليم العثمانى بزيارة لبيت الأمير المملوكى سودون الأعجمى، بعد أن علم أن لديه ولدين شجاعين كان أحدهما يدعى ذو الفقار، والآخر يدعى قاسم، فطلب منهما أن يترامحا ويتسابقا، فظهرت من ذلك شجاعتهما، وأمر بعد ذلك الأمراء والجند أن ينقسما إلى فريقين: الفريق الأول كان تابعًا لذى الفقار، وضم إليه أكثر الفرسان من العثمانيين، وتميزوا بلبس اللون الأبيض، ومالوا إلى نصف سعد، أما الفريق الثانى فكان تابعًا لقاسم وضم إليه الكثير من الفرسان المصريين، وتميزوا بلبس اللون الأحمر، ومالوا إلى نصف حرام، ثم صدرت إليهم الأوامر بعد ذلك بالاشتباك واشتدت رحى النزال بين الفريقين، حتى كادت أن تنقلب إلى معركة حقيقية، ولكن صدرت الأوامر بعد ذلك بالانفصال، وكان من أثر ذلك أن انقسم أمراء مصر إلى فريقين فقارية، وقاسمية ويؤيد هذا الرأى، أحمد شلبى[1] وعبد الرحمن الجبرتى[2] وأحمد جودت[3]، ولكن هذه الرواية بعيدة عن الواقع، وذلك لأن مؤرخى أحداث الفتح العثمانى لمصر أمثال ابن إياس، وابن زنبل الرمال لم يشيروا إلى ذلك[4] كما أن أحمد شلبى والجبرتى يكتبان فى فترة بعيدة زمنيًا عن وقائع

الفتح العثمانى، ومن المؤكد أن هذه الرواية، رواية أسطورية كانت شـائعة بين الناس، ومما ينفى هذه الرواية أيضًا أن شيخ المؤرخين فى القرن السابع عشر وهو محمد بن أبى السرور البكرى لا يشير إليها من قريب أو بعيد.

ويحاول أحمد كتخدا عزبان أن يعود بأصل الفقارية والقاسمية إلى زمن السلطان سليم، كان وقتها أمير الحج زين الفقار بك، وكان الدفتردار قاسم بك، وقد اتفق أن الأخير أنشأ فى بيته قاعة جلوس، واستضاف بها زين الفقار بك أمير الحج، وتناول عنده وجبة الغداء، فما كان من زين الفقار إلا أن رد تلك الضيافة على قاسم بك، وأثناء حضور الأخير الضيافة أثار زين الفقار حفيظته بأن قاعته لم تكن على المستوى المطلوب، لأنه ضعيف الثراء؛ فتغير خاطر قاسم بك على زين الفقار بك، من هنا نشأت الفقارية والقاسمية، ونشأ العداء بينهما، وسار التمييز بين الفقارية والقاسمية فى المواكب بواسطة المزارق، فالفقارية مزارقهم برمانة، أما القاسمية فمزارقهم بجلبة من غير رمانة[٥] وبنفس المعنى جاءت رواية مصطفى ابن الحاج إبراهيم[٦].

وإذا حللنا هذه الرواية نجد أنها لا تتفق مـع الحقـائق التاريخيـة، لأن المصادر المعاصرة للفتح العثمانى لابن إياس، وابن زنبل الرمال، وغيرهما لا تشير إلى هذه الرواية، كما أنها لا تشير إلى شخصية كل من زين الفقار بك، وقاسم بك،كما يلاحظ أن مصطلح الدفتردار لم يظهر بين مصطلحات الإدارة العثمانية فى مصر إلا فى الربع الأخير من القرن العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى، حيث كان المصطلح السائد هو مصطلح ناظر الأموال، وكذلك مصطلح أمير الحج، والذى كان يعرف (بسردار قافلة الحج) فى بداية العصر العثمانى[٧]، ومما ينفى الروايتين اللتين ترجعان ظهور الفقارية والقاسمية والانقسام والصراع الذى حدث بينما إلى بداية العهد العثمانى فى مصر أن الدولة العثمانية كانت فى أوج قوتها، ومن هنا لم تكن

إدراتها فى مصر تسمح بظهور مثل هذه الانقسامات التى من الممكن أن تهدد الكيان العثمانى فى مصر.

وهناك رواية أخرى أوردها الجبرتى، وهى تتشابه مع رواية أحمد كتخدا، ولكنه يرجعها إلى عام ١٠٥٠هـ/ ١٦٤٠م حيث يقول فى مقدمتها **"وقيل غير ذلك أن القاسمية ينتسبون إلى قاسم بك الدفتردار تابع مصطفى بك، والفقارية نسبة إلى ذى الفقار بك الكبير، وأول ظهور ذلك من سنة خمسين وألف، والله أعلم بالحقائق"**[٨].

وهذه الرواية هناك ما ينفها، لأن الجبرتى يظهر فى كلامه الكثير من الشك عندما يقول **"وقيل غير ذلك "و" ظهور من ذلك سنة خمسين وألف"**، وعندما يقول **"والله أعلم بالحقائق"**[٩].

والأرجح إذ رجعنا إلى حادثة مقتل قيطاس بك، نجد أنها قد أشارت إلى ثلاثة صناجق كبار، هم قيطاس بك المقتول، ورضوان بك الفقارى أمير الحج، وقاسم بك، بالإضافة إلى على بك الفقارى، من هنا يمكن القول بأن الفقارية والقاسمية قد ظهرتا على مسرح الأحداث بصورة واضحة منذ بدايات العقد الثالث من القرن السابع عشر، ويعتبر رضوان بك الفقارى هو المؤسس الحقيقى لطائفة الفقارية والزعيم الروحى لها؛ فقد تبوأ مكانة عالية؛ بدليل توليه إمارة الحج طيلة ربع قرن، وأن يكون قاسم بك هو المؤسس الحقيقى لطائفة القاسمية، خاصة وأن محمد بن أبى السرور البكرى يشير فى حادثة مقتل قيطاس بك أنه كان رجلاً كبير السن، ومن هنا انتسبت القاسمية إلى قاسم بك.

وقد نشأت عن الفقارية العديد من البيوتات المملوكية[١٠] والتى يرجع ظهورها إلى اهتزاز قبضة الدولة العثمانية من خلال ممثليها الباشوات، وتداعى النفوذ العسكرى للأوجاقات دعامة السلطة العثمانية فى مصر، الأمر

الذى هيأ للبيوتات المملوكية الفرصة لملء هذا الفراغ السياسى مما أثر على الوجود العثمانى وأضعفه[١١]، وهناك بعض المصطلحات المتعلقة بالبيت المملوكى، وهى معنى (البيت المملوكى) و(فتح البيت) و(قطع البيت).

فمعنى مصطلح البيت المملوكى، هو جماعة أو حزب مملوكى سواء كان حزبًا كبيرًا مثل بيت الفقارية، أو فرعًا صغيرًا مثل القازدغلية، وبلفية، والعلوية، إلخ...، ويرتبط أفراد هذا البيت بعلاقات وروابط معينة هى أقرب إلى الروابط العائلية، فالسيد المملوكى يرتبط مع مماليكه برابطة الأستاذية حيث يطلق عليه لقب أستاذ، بينما يرتبط المماليك المنتمون إلى أستاذ واحد برابطة الخشداشية.

أما مصطلح (البيت المفتوح) فوجد نتيجة لوفاة سيد البيت المملوكى أو قتله، فيحتاج أتباعه وخشداشينه إلى من يقودهم، ويرعى شئونهم ويحفظهم من التشتت، وهو ما حدث بالفعل عندما قتل إيواظ بك القاسمى فاختار أتباعه ابنه إسماعيل بك ليفتح بيت والده، ويتمكن من مجابهة أعداءه، الذين كانوا يحاولون القضاء عليه فبقاء البيت مفتوحًا يعنى بقاء المجتمع المملوكى وربما يفسر ذلك سر بقاء النظام المملوكى حتى مطلع القرن التاسع عشر.

أما مصطلح قطع البيت فيعنى القضاء عليه بصورة نهائية بحيث لا تقوم له قائمة بعد ذلك، ويوضح ذلك مدى شدة الصراع الرهيب الذى دار بين البيوتات المملوكية، وسعى كل منهم فى القضاء على الأخر.

والصراع بين الفقارية والقاسمية فى النصف الأول من القرن الحادى عشر الهجرى/ السابع عشر الميلادى، وحتى عام ١٠٧١هـ/ ١٦٦٠م، كان صراعًا سياسيًا الهدف منه الاستئثار بالمناصب المهمة فى مصر العثمانية، كإمارة الحج، والدفتردارية، وحكم الأقاليم، وقد اقتسمت كلتا الطائفتين هذه

المناصب، وإن كان من الملاحظ أن كفة الفقارية هى الراجحة فى أغلب الأحيان.

وكان أبرز الأمراء الفقارية الذين احتلوا مكانة عالية ومرموقة فى هذه الفترة هو رضوان بك الفقارى أمير الحج ذو الأصول الجركسية، فقد سيطر على منصب إمارة الحج لسنوات عديدة من عام ١٠٤١- ١٠٦٦هـ/١٦٣١-١٦٥٦م، باستثناء فترات قليلة[١٢] ولكن القاسمية لم تقف مكتوفة الأيدى تجاه ذلك الوضع، فقد بذلت العديد من المحاولات لإبعاد رضوان بك عن إمارة الحج، وعن مصر، وكان الباشوات يحرضون القاسمية على ذلك، لأن وجوده أصبح خطرًا يهدد نفوذهم.

وكانت أولى تلك المحاولات من قبل الوزير محمد باشا زلعة السم (١٠٤٧- ١٠٥٠هـ/ ١٦٣٧- ١٦٤٠م) فقد جاءت الأوامر السلطانية لمحمد باشا بأن يعين الأمير رضوان بك الفقارى قائدًا للحملة المتجهة للجبهة الصفوية، فما كان من رضوان بك إلا أن رشا محمد باشا بأربعين كيسًا مقابل صرف النظر عن تعيينه سردارًا على تلك الحملة، فتم ذلك وعين رضوان بك أبو الشوارب سردارًا للحملة[١٣]، ويبدو أن رضوان بك قد أيقن أن قبوله قيادة هذه الحملة ستبعده عن مصر، وإمارة الحج، مما سيتيح ذلك الفرصة لأعدائه التقليدين وهم القاسمية لفرض نفوذهم[١٤]، وبمجرد خروج الحملة أرسل رضوان بك للباشا استرد منه الأربعين كيسًا، فغضب الباشا لذلك وأضمر السوء لرضوان بك[١٥] وانتظر حتى تأتى الفرصة للقضاء على نفوذه.

وقد واتت هذه الفرصة محمد باشا، وذلك بعد أن توفى مصطفى بك بكلر بك الحبش، فعرض الوزير على السلطان مراد الرابع (١٠٣٣-١٠٥٠هـ/ ١٦٢٣ - ١٦٤٠م) تعيين رضوان بك بكلربك على ولاية الحبش

نظير أن يلتزم الباشا للسلطان بخمسمائة كيس من تركة رضوان بك، فاستجاب السلطان لطلب الباشا، وعين ولى بك أميرًا على الحج[١٦]، ولما بلغ ذلك رضوان بك أجاب بالسمع والطاعة، وعند عودته بموكب الحج التقى بالأمير ولى بك أمير الحج وسلمه المحمل، وبدلاً من أن يتوجه إلى الحبش توجه إلى استانبول فى عام ١٠٤٩هـ/ ١٦٣٩م، وحين دخل الأمير ولى بك إلى مصر، شرع الوزير فى بيع ما يملكه الأمير رضوان بك، وتم ضبط ما فى بيته[١٧].

وقد نقم السلطان مراد على رضوان بك، لعدم قيادته الحملة إلى الجبهة الفارسية، وعدم توجهه إلى ولاية الحبش، وأراد قتله، ولكنه اكتفى بسجنه بعد وساطة الصدر الأعظم مصطفى باشا البستنجى، وظل فى سجنه إلى أن تولى السلطان إبراهيم (١٠٥٠ – ١٠٥٨هـ/ ١٦٤٠ – ١٦٤٨م) فأطلق سراحه، وعين مصطفى باشا البستنجى واليًا على مصر (١٠٥٠ – ١٠٥٢هـ/ ١٦٤٠ – ١٦٤٢م) فعمل على إعادة إمارة الحج إلى رضوان بك[١٨].

ولقد ورد الخبر بمجئ الأمير رضوان بك، وأنه أميرًا للحج كما كان مع الصنجقية، ونتيجة لذلك انقسم العسكر فريقين، فريق عارض عودته، وفريق قبل قرار السلطان بالعفو عنه وعقد العسكر اجتماعًا فى منزل كنعان بك قائمقام، ووقع الخلاف حول ذلك، واقترح الأمير ماماى بك القاسمى ترك البت فى أمر رضوان بك إلى الوزير مصطفى باشا، ويبدو أن ماماى بك كان لا يرغب فى عودة رضوان بك إلى مصر، لأن ذلك سوف يحد من نفوذه ويضعف من شأنه، ولكن رضوان بك فى النهاية عاد إلى مصر، وأظهر خط السلطان بأخذ البلاد المتعلقة بالحج فتمكن منها[١٩].

وتولى حكم مصر الوزير محمد الباشا (١٠٥٦– ١٠٥٧هـ/ ١٦٤٦– ١٦٤٧م) وقد حدثت فى عهده فتنة بسبب فجور جماعة من الانكشارية

فاستغل قانصوه بك القاسمى هذه الفرصة للدس على الفقارية، وأشار على محمد باشا بأن يكتب إلى السلطان أن مسببى هذه الفتنة جماعة أحضرهم رضوان بك أمير الحج من مكة المشرفة للخدمة عنده وعند على بك الفقارى حاكم جرجا وأن سبب تأخير الخزنة المرسلة للسلطان عدم دفع رضوان بك، وعلى بك وأتباعهما المال الميرى المقرر عليهما، وإذا أراد السلطان استيفاء المال الميرى، فعليه أن يولى الأمير ماماى بك إمارة الحج، ويولى الأمير قانصوه بك حكم جرجا[٢٠].

وما أن علم رضوان بك بذلك حتى أسرع بكتابة عرضحال للسلطان قائلاً فيه "**إن العرض الواصل لكم لا أصل له، وإنما القصد بذلك الأغراض الفاسدة، وإنما الأموال الديوانية عند الأمير قانصوه بك وأتباعه، والأمير ماماى بك وأتباعه**"[٢١] وذكر له أصل قضية الإنكشارية، وقد وصل عرض رضوان بك قبل عرض القاسمية، واقتنع السلطان بما ذكره رضوان بك فى عرضه[٢٢].

وفى ٢٧ جماد الأول ١٠٥٧هـ/ ٣٠ يونيو ١٦٤٧م، اجتمعت الجند من جاويشية، ومتفرقة، وإسباهية، وإنكشارية، وعزب، وصناجق فى الرميلة – بإيعاز من الفقارية – لبحث موضوع المال الميرى المتأخر على ماماى بك، وقانصوه بك، ونتيجة لذلك سجنا فى القلعة، ثم قتل قانصوه بك وماماى بك على يد قيطاس بك الفقارى، وصارت الكلمة فيما بعد لرضوان بك، وعلى بك، وقيطاس بك[٢٣] ويعد ذلك نصرًا مؤزرًا للفقارية على القاسمية.

ولم تتوقف محاولات القاسمية عند هذا الحد، ففى ٨ رمضان ١٠٥٧هـ/ ٧ أكتوبر ١٦٤٧م، أصدر محمد باشا أمرًا إلى الأمير على بك الفقارى بالسفر إلى جرجا، وكان هذا بتحريض من أحد القاسمية بهدف إضعاف نفوذ الفقارية عامة، ورضوان بك خاصة[٢٤] وتنفيذًا لذلك أقام الباشا فى ١٢

رمضان ١٠٥٧هـ/ ١١ أكتوبر ١٦٤٧م، حفلاً كبيرًا، ودعى الأمير رضوان بك لحضوره، فامتنع الأخير عن الحضور لأنه أيقن أن هناك مؤامرة تحاك ضده من جانب الباشا والقاسمية، فما كان من الباشا إلا أن قام بتعيين الأمير حسن بك أميرًا للحج، كما أنه عزل على بك من منصبه كحاكم للصعيد، وعين مكانه يوسف بك الدفتردار ونتيجة لذلك اتخذ رضوان بك موقفًا عدائيًا، فجمع رجاله من الفقارية، وغادر القاهرة نحو البساتين، معلنين التمرد على الباشا، فما كان من الأخير إلا أن أمر بتجهيز تجريدة بقيادة عابدى بك لمحاربتهم(٢٥).

وفى ١٤ رمضان ١٠٥٧هـ/ ١٣ أكتوبر ١٦٤٧م، طلعت جميع العساكر إلى الرميلة، والصناجق للقلعة، واجتمعوا بالباشا، وتحدث عابدى بك مع الباشا قائلاً "**إن العساكر لم يرضوا بقتال الأمير رضوان بك، ولا الأمير على بك، لأن هؤلاء رفقاؤنا خصوصًا فى هذا الشهر الشريف، وغالب من معهما إما قريب لنا، أو صهر لنا، أو صاحب، ونحن مسلمون، وهم مسلمون، وإن كان مرادك قتالهم تبرز لنا خط مولانا السلطان نصره الله تعالى بذلك، وتكون أنت السردار علينا، ويكون الأمير يوسف بك قائمقامك بالقلعة**" وبهذه الطريقة فشلت خطة الباشا والقاسمية، ويبدو أن ذلك كان بتحريض من الفقارية، وتدعمت مكانة رضوان بك، وعلى بك بمنح الأول إمارة الحج، والثانى حكم جرجا مدى الحياة(٢٦).

وكانت آخر محاولة بذلت للقضاء على نفوذ رضوان بك فى عهد الوزير أحمد باشا (١٠٥٩- ١٠٦١هـ/ ١٦٤٩ - ١٦٥١م)، الذى حاول جاهداً أن يزرع الخلاف والشقاق بينه، وبين على بك الفقارى، فاستصدر الباشا أمراً من السلطان بعزل رضوان بك من إمارة الحج، وتولية على بك مكانه، وتم استدعاء الأخير من جرجا، وألبسه الباشا قفطان إمارة الحج فى ٢٣ محرم ١٠٦١هـ/ ٢٤ يناير ١٦٥١م، ولكن الظروف خدمت رضوان بك بعزل

أحمد باشا، وتولى عبدالرحمن باشا الخادم (١٠٦١- ١٠٦٢هـ/ ١٦٥٠ – ١٦٥١م) ونتيجة لذلك عاد رضوان بك إلى منصبه كأمير للحج، ووقف من على بك موقف المصالحة[٢٧].

ولكن ما لبث أن ضعف نفوذ الفقارية بوفاة على بك حكم جرجا عام ١٠٦٣هـ/ ١٦٥٢م، وتولى حكم الصعيد تابعه محمد بك، وبعدها توفى الأمير رضوان بك أمير الحج فى ٢٣ جماد آخر ١٠٦٦هـ/ ٨ أبريل ١٦٥٦م[٢٨]، فأتاح ذلك الفرصة أمام القاسمية لفرض نفوذها.

تزعم القاسمية فى هذه الجولة أحمد بك البوشناق (البوسنوى)، وذلك بتحالفه مع محمد باشا أبو النور ١٠٥٣- ١٠٦٦هـ/ ١٦٥٢- ١٦٥٥م) وقد علم الأخير بتعيين أحمد بك البوشناق أميرًا على الحج، ولكى يسترضى الفقارية قام بتعيين حسن بك الفقارى أحد مماليك رضوان بك سردارًا على الخزنة[٢٩].

ولكن رد فعل الفقارية كان عنيفًا، فما أن علموا بذلك تجمعوا بميدان الرميلة، وعزلوا الباشا، وعينوا لهم قائمقام، ونفوا أحمد بك إلى الإسكندرية، وجعلوا حسن بك الفقارى أميرًا على الحج، وأرسلوا للسلطان يخبرونه بما فعلوه، فأرسل وزيرًا جديدًا لمصر هو مصطفى باشا (١٠٦٦- ١٠٦٧هـ/ ١٦٥٦- ١٦٥٧م) الذى تمكن من إقامة صلح مؤقت بين أحمد بك البوشناق والفقارية[٣٠].

وعلى الرغم من ضعف كفة الفقارية، إلا أن أهم المناصب كانت لا تزال فى حوزتهم؛ كإمارة الحج، وحكم الصعيد، والقائمقامية، ولقد أثبتت الأحداث أن زعماء الفقارية الذين خلفوا رضوان بك كانت تنقصهم الحكمة، والمرونة السياسية، فقد تمكن أحمد بك البوشناق من إرضاء السلطات العثمانية فى استانبول، وحصل على أمر بجعله حاكمًا على الصعيد بدلاً من

محمد بك الفقارى الذى اختير واليًا على الحبش، ولكنه رفض قبول المنصب الجديد[٣١].

على الرغم من ذلك لم يعمل محمد بك الفقارى على كسب ود زملائه الفقارية، بل إنه تعاظم عليهم، مما أدى ذلك لانقلاب زعماء الفقارية عليه، وعلى رأسهم قيطاس بك أمير الحج، الذى وقف بجانب محمد باشا الغازى (١٠٦٧- ١٠٧٠هـ/ ١٦٥٧- ١٦٦٠م)، وحصل الأخير على فتوى من العلماء بوجوب محارب محمد بك فى ٢٠ جماد أول ١٠٦٩هـ/ ١٣ فبراير ١٦٥٩م، وقاد تجريدة من أجل ذلك[٣٢].

وفى ٢ جماد الثانى ١٠٦٩هـ/ ٢٠ فبراير ١٦٥٩م، عين الباشا يوسف أفندى قائمقام، ونزل بالجند من القلعة إلى باب قراميدان، متجهًا ناحية البساتين، ومنها توجه إلى المنيا، ولما بلغها فى ١٤ جماد الثانى ١٠٦٩هـ/ ٩ مارس ١٦٥٩م عين الأمير قيطاس بك، وبعض القواد العسكريين، وقليل من العسكر، وأرسلهم أمامه إلى ناحية منفلوط لمحاربة محمد بك[٣٣].

وصل قيطاس بك إلى ناحية منفلوط فى ١٨ جماد الثانى ١٠٦٩هـ/ ١٣ مارس ١٦٥٩م، وبعدها وصل الوزير إلى منفلوط، وأمر قيطاس بك أن يتجه بمن معه خلف محمد بك، وفى غرة رجب ١٠٦٩هـ/ ٢٥ مارس ١٦٥٩م وصلت الأنباء للباشا من قيطاس بك بالقبض على محمد بك، فما كان من الباشا إلا أن أرسل مكتوبًا لقائمقام؛ لإشهار النداء فى مصر بالأمان، وبما حدث من القبض على محمد بك، بعدها أمر الباشا بقطع رأس محمد بك، وقتل العديد من رجاله[٣٤] وقد أدى مقتل الأخير إلى إضعاف الفقارية، وازدياد نفوذ أعدائهم القاسمية بزعامة أحمد بك البوشناق، والذى ارتفع شأنه بتعيينه حاكمًا على الصعيد فى ١٠٦٩هـ/ ١٦٥٩م، ثم قائمقام مصطفى باشا (١٠٧٠- ١٠٧١هـ/ ١٦٦٠- ١٦٦١م) وحدثت فى عهده واقعة أدت إلى

القضاء على نفوذ الفقارية فى ١٠٧١هـ/ ١٦٦٠م[٣٥]، ألا وهى واقعة الصناجق.

اشتكى خمسة أفراد من طائفة العزب لدى مصطفى باشا؛ نتيجة لما تعرضوا له من إهانة كبيرة، علاوة على قتل وجرح بعض زملائهم، عند قيامهم بحماية ناحية صنافير بالقليوبية، وذلك من قبل أحد ملتزميها ويدعى عثمان بك الوالى، والذى كان ملتزمًا فيها بحق النصف، فقد طلب من مصطفى أفندى كتخدا الجاويشية أن يتنازل له عن نصف البلدة المذكورة، فرفض مصطفى أفندى ذلك، فحدث ما ذكر من تعرض العزب للإهانة[٣٦] لمعارضتهم عثمان بك.

ونتيجة لما سبق طلب الباشا من عثمان بك الحضور للنظر فى هذا الأمر، فخشى الأخير من ذلك، ولجأ إلى أحد أعيان الفقارية، وهو شخص يدعى بيرم، فتحالف الاثنان معًا، وساندهما قلة من طائفة الانكشارية، وبناءً على ذلك صارت الفقارية فى جانب، والباشا، والعزب، والفرق العسكرية الأخرى، والقاسمية، بالإضافة إلى قاضى القضاء فى جانب، وذلك بعد أن أرسل الأخير إلى عثمان بك مرارًا لكى يحضر مجلس الشرع للنظر فى قضية العزب، فلما رفض أعلن عصيانه، ولما رأت القلة من الانكشارية المؤيدة للفقارية ذلك تخلوا عنهم بضغط من غالب الإنكشارية المؤيدة للباشا[٣٧].

ونتيجة لما سبق ضعف موقف بيرم وعثمان، فما كان منهما إلا أن دخلا إلى حوش أغا الإنكشارية للاحتماء به فقبض عليهما، بعدها أصدر الباشا بيورلدى بخنق بيرم، وآخر بقتل عثمان بك، وإمعانًا فى الانتقام أخذت العزب رأس عثمان بك وعلقوها على باب مركز قيادتهم، بعدها اشتدت المناوشات الحربية بين طائفة العزب وحلفائها من ناحية، والفقارية من ناحية أخرى،

ولما رأى الفقارية عين الغلبة قرروا التوجه إلى الصعيد لمواصلة تمـردهم، فخرجوا إلى البساتين، متوجهين جنوبًا، وبذا خلا الميدان فى مصـر للباشـا والقاسمية(٣٨).

وكان مصطفى باشا عازمًا كل العزم القضاء على نفوذ الفقارية، فـأتم استعدادته العسكرية، وخرج بجنوده من القاهرة فى ٦ صفر ١٠٧١هـ/١١ أكتوبر ١٦٦٠م إلى البساتين، ولكن الفقارية غادروها، وحدث خلاف بينهم، فتوجه فريق منهم إلى جرجا، وفريق أخر إلـى السـودان، وفريـق إلـى البحيرة(٣٩).

وعلى الرغم من ذلك ظل مصطفى باشا مصممًا علـى قضـائه علـى الفقارية فقرر السفر خلف الفقارية الذين توجهوا إلى البحيرة، وأمر العسـكر بالاستعداد لذلك، فحضر له أحمد بك البوشناق، والتزم بالسفر خلفهـم، وأن يحضرهم له، فوافق الباشا على ذلك، فتوجه خلفهم وأدركهم بالطرانة فقتلهم هناك فى ٢٢ صفر ١٠٧١هـ/ ٢٧ أكتـوبر ١٦٦٠م، وعـاد إلـى مصـر برؤسهم، وطلع إلى الديوان فى موكب عظيم، ثم خلع عليه الباشا خلعتين(٤٠).

وعلى الرغم من ذلك لم يكن الباشوات مخلصين للقاسـمية ففـى ٩ ذى الحجة ١٠٧٣هـ/ ٢٦ يوليو ١٦٦٢م، طلع أحمد بك البوشناق لإبراهيم باشا شيطان (١٠٧١- ١٠٧٤هـ/ ١٦٦١- ١٦٦٤م) - حسب العـادة - يهنئـه بيوم عرفه، فسلم على الوزير، ولما أراد الانصراف هجم عليه أتباع الباشـا فقتلوه بالخناجر، وتم نفى أتباعه وقد أضعفت هذه المؤامرة القاسمية وجعلتهم أكثر خضوعًا ومسايرة للباشا، بدليل أن أفرادها لم يثوروا أثر مقتل زعيمهم، وانحسر النفوذ السياسى لهذه الطائفة حتى أواخر القرن السابع عشر(٤١) وقـد دار الصراع فيما بعد بين الفقارية والقاسمية فى فلك البيوتات المملوكية.

وبعد القضاء على النفوذ السياسى لكل من الفقارية عام ١٠٧٠هـ/ ١٦٦٠م، والقاسمية عام ١٠٧٢هـ/ ١٦٦٢م، استطاع باشوات مصر أن يحكموا دون منازع، وتوطدت دعائم الحكم العثمانى فى مصر، ويرجع ذلك إلى تحكم أسرة كوبريللى فى شئون الدولة العثمانية، وما قاموا به من جهد كبير لاستعادة جزء من هيبتها المفقودة خارجيًا، وتحكمهم فى إدارة الدولة، فبعث ذلك شيئًا من الأمان والاستقرار، وانعكس ذلك على مصر[٤٢].

وبناء على ذلك فقد بكوات المماليك سيطرتهم على النظام السياسى فى مصر، ولكن سرعان ما ظهرت قوى جديدة تسلمت زمام المبادرة السياسية من الولاة، وملأت الفراغ السياسى الذى خلفه زوال الصناجق الفقارية والقاسمية، إذ نشأت البيوتات المملوكية، نتيجة للتنافس بين هاتين الطائفتين[٤٣].

وكما سبق القول، فإن قبضة الباشوات فى مصر كانت قوية، والدليل على ذلك أن عمر باشا السلحدار (١٠٧٣- ١٠٧٧هـ/ ١٦٦٤- ١٦٦٧م) قام بالقضاء على فتنة أثارها فى عام ١٠٧٥هـ| ١٦٦٥م، محمد بك حاكم جرجا القاسمى الذى كان يسانده الزرب، وترجع أصل هذه الفتنة أن محمد بك المذكور اجتمع عليه خمسة أفراد من الانكشارية، وانضم إليهم طائفة من هذا الأوجاق، فآذوا الناس واستباحوا أموالهم، وصبوا جام غضبهم على الفقارية منهم[٤٤]، وكان محمد بك قد طلع إلى الديوان بمفرده فأمر الباشا بقتله، وهو خارج من عنده، ولما بلغ أعوانه ذلك تجمعوا وذهبوا إلى جامع المؤيد، وتحصنوا فيه معلنين عصيانهم، فأمر الباشا الأمراء، والصناجق، والأغوات أن يتوجهوا لمحاربتهم - وإن أدى ذلك إلى هدم الجامع - ولما أخذوا يطلقون عليهم النيران، طلبوا الأمان، وخرجوا من الجامع محاولين الفرار، فأخذت الأيادى تتخطفهم، وأمر الباشا بضرب أعناقهم، بعد أن قتل العديد من أتباعهم، ولم ينج منهم إلا القليل[٤٥]، وإن دل هذا على شئ فأنما

يدل على رغبة الإدارة العثمانية فى مصر، فى عدم عودة الفوضى السياسية مرة أخرى، ولكن سرعان ما ظهر الصراع الحزبى، والفوضى السياسية من جديد.

وعندما نشأ الصراع الحزبى من جديد لم يكن فى أول الأمر صراعًا بين بكوات المماليك، أو بين الفقارية، والقاسمية، بل داخل الأوجاقات العسكرية السبعة، وخاصة بين أوجاقى الإنكشارية والغرب، وقد انضم الباشا، والصناجق الفقارية، والقاسمية، والعلماء إلى فريق أو أخر فتوزع ولاؤهم بين طرفى الصراع(٤٦).

وقد حدثت فى عهد عبدالرحمن باشا (١٠٨٧- ١٠٩١هـ/ ١٦٧٦-١٦٨٠م)، أزمة داخل أوجاق الإنكشارية، نتيجة لمحاولة كوجك محمد، الذى كان يشغل منصب باش أوده باشى الإنكشارية منذ (١٠٨٥هـ/ ١٦٧٤م) الانفراد بالسلطة فيه، فقد أوقع القتل والنفى بين زعماء الإنكشارية، وأظهر ولاءه للفقارية، فى الوقت الذى تولى فيه ذو الفقار بك إمارة الحج، وحظى بمعاضدة كوجك محمد، ولما ضاقت الإنكشارية من أعماله، عزموا فى ١٢ رجب ١٠٩١هـ/ ٨ أغسطس ١٦٨٠م، على قتله، فلجأ إلى طائفة العزب، فتم الاتفاق بين الأخيرة والإنكشارية على نفيه إلى الدولة العثمانية(٤٧).

وقد أتاحت الاضطرابات التى حدثت بأوجاق الإنكشارية الفرصة أمام الفقارية والقاسمية واشتهرت معهما الصنجقية من جديد، فقد حظى ذو الفقار بك بالصنجقية وإمارة الحج، على حين بعد عزل عبدالرحمن باشا، وتولى عمان باشا عهد الأخير إلى قيطاس بك القاسمى بالقائمقامية، وبعدها منح إبراهيم بك بشناق، والشهير بأبى شنب زعيم بيت الشنببية - وهو ابن أخت أحمد بك بشناق - رتبة الصنجقية، ويعتبر هذا تدعيمًا للقاسمية على الفقارية(٤٨) .

وفى شوال ١٠٩٧هـ/ سبتمبر ١٦٨٦م، عاد كوجك محمد من منفاه إلى مصر والتحق بأوجاق الإنكشارية، وعاد إلى منصبه القديم كباش أوده باشى، ولكنه كان سيئ التصرف داخل الأوجاق، فقد أخرج منه ما يقرب من تسعين فردًا، فتجمع عليه العسكر بزعامة جلب خليل وتمكنوا من إخراجه من الأوجاق، فذهب إلى حسن أغابلفية الفقارى أغا الجنولليان، وزعيم طائفة البلفية أحد البيوتات المملوكية، فعينه برتبة جربجى فى طائفته(٤٩).

وفى عام ١٠٩٩هـ/ ١٦٨٨م، توفى ذو الفقار بك أمير الحج، فأعطيت صنجقيته إلى ابنه إبراهيم، وعين إسماعيل بك الدفتردارأميرًا للحج، ثم قلد حسن باشا السلحدار (١٠٩٩- ١١٠٠هـ/ ١٦٨٨- ١٦٨٩م) إمارة الحج لإبراهيم بك أبو شنب، بعد أن عزل إسماعيل بك منها وولاه الدفتردارية ثانيًا، ولكن فى ٨ رجب ١١٠١هـ/ ١٧ أبريل ١٦٩٠م عين إبراهيم بك ابن ذى الفقار بك أميرًا على الحج، فكان ذلك بمثابة تدعيم للفقارية على القاسمية(٥٠).

وحاول الفقارية الاشتراك فى الصراع الدائر داخل أوجاق الإنكشارية، فحاول إبراهيم بك – أمير الحج – السيطرة على هذا الأوجاق، واستخدم كوجك محمد كأداة يضرب بها نفوذه القاسمية داخل أوجاق الإنكشارية، فحاول أن يعيد كوجك محمد لمنصبه القديم كباش أوده باشى بالأوجاق، فدبر معه مؤامرة للتخلص من قادة القاسمية داخل الأوجاق بمعاضدة حسن أغابلفية، فتخلص من جلب خليل وتم رفع كل من رجب كتخدا، وسليم أفندى كاتب كبير مستحفظان إلى رتبة الصنجقية تمهيدًا للتخلص منهما، وتم ذلك بالفعل، حيث استعفى رجب كتخدا من رتبة الصنجقية ونفاه إلى الحجاز، أما سليم أفندى فتم تدبير حيلة وقتل، مما زاد من حدة العداء بين الفقارية والقاسمية(٥١).

ونتيجة لذلك رجع كوجك محمد إلى منصبه كباش أوده باشى بأوجـاق الانكشارية، ثم قام بنفى مصطفى كتخدا القازدغلى إلى الحجـاز فـى عـام ١١٠٤هـ/ ١٦٩٢م، بسبب المنافسة القائمة بينهما داخل الأوجـاق، وأقـام مصطفى كتخدا بالحجاز عامين (١١٠٤- ١١٠٦هـ/١٦٩٢- ١٦٩٤م)، ثم عاد إلى مصر بوساطة حسن أغابلفية لدى كوجك محمد(٥٢)، ونتيجة لما سبق زاد العداء بين مصطفى كتخدا القازدغلى وكوجك محمد، حيث لم يمر سوى عدة أسابيع على عودة الأول حيث قتل الثانى فى ٢١ محرم ١١٠٦هـ/ ١٣ سبتمبر ١٦٩٤م، وتشير أصابع الاتهام فى ذلـك إلـى مصـطفى كتخـدا القازدغلى(٥٣).

وبعد مقتل كوجك محمد سيطر على أوجاق الإنكشارية مصطفى كتخدا القازدغلى، واستمر على ذلك حتى وفاته عـام ١١١٥هـ/ ١٧٠٣م، ودار صراع على النفوذ بين أصحاب الزعامة فى مصـر، والممثلـين لطـائفتى الفقارية والقاسمية، وهما إبراهيم بك الفقارى، وإبراهيم بك أبوشنب القاسمى، وحاول الأول أن يقضى على نفوذ زعماء القاسمية، ولكنه لم يتمكن خاصـة بعد تعيين إبراهيم بك أبو شنب قائمقام إسماعيل باشا (١١٠٧- ١١٠٩هـ| ١٦٩٥- ١٦٩٧م)، ثم حدث فى عام ١٧٠٧هـ| ١٦٩٥م، أن توفى إبراهيم بك الفقارى أثر طاعون عم مصر، فأعطيت صنجقيته لقيطاس بك الفقارى، وإمارة الحج لأيوب بك الفقارى(٥٤)، ولكنه عزل منها وتولى مكانة قيطـاس بك الفقارى(٥٥).

وكان مصطفى كتخدا القازدغلى هو صاحب النفوذ داخل أوجاق الإنكشارية، ولكن بعد وفاته حاول أفرنج أحمد باش أوده باشى الإنكشارية الوصول إلـى الزعامة داخل هذا الأوجاق، ولكن أصحاب الزعامـة فـى الأوجـاق مـن القازدغلية وأنصارهم لم يرضهم ذلك، وتمكنوا من نفى أفرنج أحمد وزميلـه

جلبى حسين إلى الطينة، وتولى كور عبدالله القـازدغلى بـاش أوده باشـى الإنكشارية(٥٦).

وبعد فترة قصيرة عاد أفرنج أحمد من منفاه، فلجأ إلى مصطفى أغابلفية أغا الجراكسة، والذى تزعم البيت البلفى بعد وفاة أستاذه حسن أغابلفية، فـى حين لجأ جلبى حسين إلى أوجاق التفنكجيان، ولما علمت الإنكشارية بعـودة أفرنج أحمد وزميله، طلبوا من الباشا نفيهما إلى الطينة، وكادت أن تحـدث فتنة بسبب ذلك، لولا تدخل العلماء، والأشراف، والصناجق، فتم الاتفاق على جعل أفرنج أحمد صنجقًا، وصار يعرف بأفرنج أحمد بك، ولم تعد له سلطة على أوجاق الإنكشارية.

وفى عام ١١٢١هـ/ ١٧٠٩م، حدثت فتنة بـين أوجـاق الإنكشـارية والأوجاقات الستة الأخرى، فقد ثار خلاف بين عثمان أوده باشـى، والـذى كانت تسانده الإنكشارية، ومملوك محمد أغا كتخدا الجاويشية، والذى كانـت تسانده بقية الأوجاقات، ورفع الفريقان حالة الاستعداد فى صفوفهما، وأملـى كل فريق مطالبه على الفريق الآخر، فقد طالبت الأوجاقات، السـتة بإلغـاء الحمايات التى كانت تتمتع بها الإنكشارية، على حين طالبت الأخيرة بإبطال المظالم التى كانت تتمتع بها السباهية فى الأقاليم والأرياف، وتمسك كل من الفريقين بمطالبه، وتم عرض الأمر على حسن باشـا السـلحدار (١١١٩-١١٢١هـ/ ١٧٠٧- ١٧٠٩م) ولكنه كان مغلوبًا على أمره، ولا يدرى أوامر من ينفذ، فما كان من الأوجاقات الستة إلا أن اجتمعوا، ونقيـب الأشـراف، وقاضى العسكر، والصناجق فى باب العزب، وهددوا بعزل الباشـا فـأذعن لمطالبهم(٥٧).

أما الإنكشارية فقد اجتمعوا ببابهم فى محرم ١١٢١هـ/ مارس- أبريل ١٧٠٩م، وقرروا الاستمرار فى المعارضة، كما احتجوا على مطالبة الفرق

الأخرى بنقل دار الضرب من القلعة، وألا يمكنوا أحدًا غير قيطاس بك الفقارى من إمارة الحج، بعد أن أشيع أنهم سيولون غيره(٥٨)، وكتبوا عرضًا بذلك للسلطان فى حين كتب أعداء الإنكشارية عرضًا آخر للسلطان، وقع عليه العلماء، ونقيب الأشراف، والصناجق بضرورة نقل دار الضرب؛ حتى يتمكنوا من تقليص نفوذ الإنكشارية شيئًا ما، وكادت أن تحدث فتنة تصل إلى حد القتال، ولكى يتم القضاء عليها طالب الصناجق والأوجاقات بنفى ثمانية من قادة الإنكشارية - وهم فى مقدمتهم مثيروا الفتنة - ولما بلغ الإنكشارية ذلك اجتمعوا ببابهم لقتال الأوجاقات الستة، وعزمت بقية الأوجاقات على قتال الإنكشارية، ما لم يسلموا بنفى الثمانية أفراد، واستصدروا فتوى من قاضى العسكر بمحاربتهم، ولما أرسلت إليهم تلك الفتوى تراخت عزائمهم، وسلموا بنفى الثمانية أفراد بشرط إعطائهم الأمان ثم جاء بعد ذلك رد السلطان بإلغاء حمايات الإنكشارية، ومظالم الإسباهية معًا، ونقل دار الضرب للديوان(٥٩).

وفى ٢ ربيع آخر سنة ١١٢١هـ/ ١٠ يونيو ١٧٠٩م، تم التصالح بين أفرنج أحمد، وأوجاق الإنكشارية، وعاد إلى منصبه القديم، كباش أوده باشى فى الأوجاق، وفى نهاية هذا الشهر عاد الثمانية أفراد المنفيين، ووزعوا على الأوجاقات بمعرفة الصناجق

وفى ١٥ جماد آخر سنة ١١٢١هـ/ ٢٢ أغسطس ١٧٠٩م، ألبس الباشا قفطان الدفتردارية لقيطاس بك الفقارى، وقفطان لإبراهيم بك أبو شنب على إمارة الحج، ولكن فى نهاية ربيع الآخر ١١٢٢هـ/ ٢٧ يونيو ١٧١٠م، عزل الباشا الأخير من إمارة الحج، ومنحها لإيواظ بك القاسمى(٦٠)، وبدأت بوادر الفتنة تلوح فى الأفق من جديد، فقد اجتمع أتباع مصطفى كتخدا القازدغلى بباب العزب، ومن تبعهم من أعيان الإنكشارية، واتفقوا أنهم لا يرضون أفرنج أحمد باش أوده باشى، وإن لم يتم تنفيذ ذلك فسوف ينضمون

إلى أى أوجاق آخر يريدونه، وأيدهم فى ذلك أصحاب الأوجاقـات السـتة، وصمموا على ضرورة عودة الثمانية المنفيين إلى أوجاق الإنكشارية.

ونتيجة لاحتدام الموقف وخوفاً من اشتعاله سعت الأمراء والصـناجق، وأغوات الأوجاقات الستة بينهم لعقد الصلح، وصاروا يجتمعون تارة بمنزل قيطاس بك الدفتردار، وتارة أخرى بمنزل إبراهيم بك أبو شنب – أمير الحج الأسبق – وفى نهاية الأمر تم الاتفاق على أن ينقل الأفراد الثمانيـة، ومـن انضم إليهم من أهل الأوجاق البالغ عددهم ستمائة فرد إلى أوجاق العزب(٦١)، وهنا يظهر دور الأمير حسن الإخميمى أمير إخميم بأن قام بالانفـاق علـى الجنود المنفيين حتى أبهر عقولهم، من هنا كان العداء بـين أفـرنج أحمـد، وحسن الإخميمى وازداد الموقف اشتعالاً بعدما قام الإنكشارية الذين انتقلـوا إلى باب العزب بقطع الطريق المؤدى للقلعة، وقطعوا الماء عنهـا، فـانتهز أفرنج أحمد تلك الفرصة، واستصـدر أمـرًا مـن خليـل باشـا (١١٢٢-١١٢٣هـ/ ١٧١٠- ١٧١١م) والقاضى بمحاربتهم، فشرع فى ضرب باب العزب بالمدافع، وقتل منهم عدة أفراد واستمر على ذلك ثلاثة أيام(٦٢)، فمـا كان من الأمراء، والصناجق القاسمية الموالين للعزب، وعلى رأسهم إيـواظ بك أمير الحج وإبراهيم بك أبو شنب، وقانصوه بك إلا أن قرروا التوجه إلى الرميلة، ومحاربة الإنكشارية، ولكن نما إلى علمهم أن أيوب بك الفقـارى، وجماعته الموالين للإنكشارية، قد نصبوا المدافع على طريق المارين هناك، فخشوا إذا ما خرجوا للقتال أن تهاجم بيوتهم؛ فأقاموا فى بابهم متسلحين، فى حين استمر أفرنج أحمد فى إطلاق النار(٦٣).

وجرت محاولة لعقد الصلح بين الفقارية والإنكشارية، وبين القاسـمية، والعزب، فكان رد أفرنج أحمد أنه لا يأبى الصلح بشرطين؛ الأول أن ينقـل الثمانية أفراد الذين كانوا سبب الفتنة من أوجاق العزب، إلى الأوجاقات التى كانوا فيها بعد عودتهم من النفى، وأن يقيموا خارج القاهرة والشرط الثانى أن

يسلموا الأمير حسن الإخميمى للباشا يفعل به ما يشاء، فلم يــرض العــزب بذلك، وحاول الصناجق وضع حل لهذه الأزمة، وهو أن يرجع الثمانية أفراد إلى ما كانوا عليه فى الأوجاقات بعد النفى، ولكن يعفونهم مــن النفــى، وألا يطلبوا الأمير حسن الإخميمى منهم، فلم يوافق أفرنج أحمد على ذلك وصمم على القتال.

وفى ٤ ربيع أول ١١٢٣هـ/ ٢٢ أبريــل ١٧١١م، اجتمعــت جميــع الصناجق، والأغوات ببيت إبراهيم بك أبو شنب، واتفقوا على إجراء الصلح بين الفريقين، وطلبوا من أيوب بك الفقارى أن يرسل لأفرنج أحمــد يعلمــه بذلك، كى يتم وقف القتال، ولذا توقفت الحرب ثلاثة عشر يومًــا، وانتهــز أفرنج أحمد هذه الهدنة المؤقتة، وأخذ ينصب المدافع، وقام ببناء المتــاريس، وجمع البارود والرصاص، وخزن المياه فى صهاريج القلعة، فأخذت العزب هى الأخرى تسلح نفسها

فى هذه الأثناء حضر محمد بك الفقارى حاكم الصعيد، بناءً على طلــب الباشا، وأيوب بك الفقارى، فدخل القاهرة فى جمــع كبيــر مــن العســكر، والعربان، ثم كلفه الباشا بمحاربة العسكر المتحصنين بجامع السلطان حسن، والذين كان يتزعمهم محمد بك تابع قيطاس بك المعروف بقطامش الفقارى، وعثمان بك بارم ديله، ودارت معركة عنيفة بين الطرفين، أسفرت عن قتــل عدد كبير من أتباع محمد بك حاكم الصعيد، فما كان من الأخير إلا أن قرر الهجوم على باب العزب، وأسفر هذا الهجوم عن قتل عدد كبير من الطرفين، وعلى أثر ذلك توجه العزب إلى بابهم(٦٤).

ولقد كان لبعض علماء الأزهر موقف متخاذل إزاء هذه الفتنة، فقد أفتت طائفة منهم بجواز محاربة العزب، والقاسمية، والفقارية المنشقين، على حين

أفتت طائفة أخرى منهم بجواز محاربة الإنكشارية من والاهم من الفقارية، وربما أفتى العلماء بذلك تحت الضغط أو بريق المال.

وعلى هذا الأساس دارت العديد من المعارك الحربية أسفرت عن تفوق العزب والقاسمية على أعدائهم[٦٥]، ولما رأى أيوب بك أن مركزه صار مهددًا أرسل إلى حبيب الدجوى زعيم عربان الحبايبة يستعين به، وردًا على ذلك أرسل إبراهيم بك أبوشنب بعربان السلالمة والهنادى بالبحيرة[٦٦].

وبناءً على ذلك انقسم طرفى الصراع فى مصر إلى فريقين، الفريق الأول (القاسمى – عزبان) ويضم زعماء القاسمية، إيواظ بك أمير الحج، وإبراهيم بك أبو شنب وقانصوه بك، والفقارية المنشقين، قيطاس بك الدفتردار، وتابعه محمد بك المعروف بقطامش، وعثمان بك بارم ديله، ورجال أوجاقات السباهية الثلاث بدون الأغاوات، والمتفرقة والجاويشية، والستمائة فرد التى جاءت للعزب من الإنكشارية، وعربان السلالمة والهنادى، والأمير حسن الإخميمى، أما الفريق الثانى (الفقارية – الإنكشارية) فيضم زعماء الفقارية، أيوب بك الفقارى، ومحمد بك حاكم جرجا، وأغاوات السباهية الثلاث، وأغا المتفرقة، وكتخدا الجاويشية، وأفرنج أحمد، والباشا العثمانى، وقاضى العسكر وعربان أولاد حبيب.

ولما طال أمر القتال على القاسمية والعزب، وازدادت كلفة القتال، قرروا عزل الباشا، وتولية قانصوه بك منصب القائمقام، وعينوا لأوجاقات السباهية الثلاث، والمتفرقة، والجاويشية خمسة أغوات موالين لهم، ولما بلغ ذلك خليل باشا كتب أمراً لأيوب بك بمحاربة الصناجق القاسمية، وكل من والاهم لكونهم عصاه خارجين عن طاعة السلطان.

وبناءً على ذلك اتفق محمد بك حاكم جرجا مع أفرنج أحمد الهجوم على العزب من طرق قراميدان ولكن العزب وصل إليها هذا التدبير فاستعدوا له، وتمكنوا من هزيمة محمد بك، بعد أن قتل من طائفته عددًا كبيرًا.

وفى هذه الأثناء أرسل قانصوه بك قائمقام فرمانًا إلى محمد بك حاكم جرجا يأمره بالتوجه إلى ولايته، وأعطاه الأمان لنفسه وماله، حتى يتمكن من جمع الأموال الأميرية، والغلال باعتباره مسئولاً عن إرسالها إلى القاهرة، ولكن محمد بك عندما وصل إليه هذا الفرمان اشتاط غضبًا، ورفض الرجوع لجرجا، وصمم على مواصلة القتال مع حزبه(٦٧).

ولما يئس خليل باشا من قتاله مع القاسمية، والعزب، اتفق مع أيوب بك ومن انضم إليه من العسكر على محاربتهم، ففى ربيع الأول ١١٢٣هـ/ أبريل – مايو ١٧١١م، أرسل أيوب بك ومحمد بك إلى العربان يأمرهم بأخذ جمال السقائين، وحميرهم، فشح الماء فى القاهرة، ووصل ثمن قربة الماء إلى خمسة أنصاف، فأمر إيواظ بك وقانصوه بك وقيطاس بك جماعة من العسكر أن يتوجهوا إلى القصر العينى، ويستخلصوا جمال، وحمير السقائيين ممن نهبها، ولكن محمد بك حاكم جرجا تصدى لهم، وقتل منهم جماعة؛ لذا قرر القاسمية البروز لميدان القتال(٦٨).

وفى ربيع الثانى ١١٢٣هـ/ مايو – يونية ١٧١١م، خرج الفريقان للقتال بجهة القصر العينى، ودارت بينهما معركة شرسة قتل فيها عدد كبير من الطرفين، إلا أن أهم نتائج هذه المعركة هى قتل إيواظ بك زعيم الإيواظية(٦٩) وبعد دفنه اجتمع الأمراء القاسمية وقرروا الأخذ بثأره، وعينوا الأمير يوسف جربجى الجزار صنجقًا وأميرًا للحج، وعينوا الأمير إسماعيل بك بن إيواظ صنجقًا مكان والده كى يفتح بيته، ويعتبر مقتل إيواظ بك حدثًا

مهمًا فى تاريخ العلاقات بين الفقارية والقاسمية، إذ تحول التنافس المحدود فيما بينهما إلى صراع حاول فيه كل منهما القضاء على الآخر(٧٠).

وعلى هذا الأساس بدأت المعارك بين الطرفين من ١٩ حتى ٢٨ ربيع الثانى ١١٢٣هـ/ من ٦ إلى ١٥ يونية ١٧١١م، وكان يتزعم الفقارية أيوب بك، ومحمد بك حاكم جرجا، أما القاسمية، فكان يتزعمهم محمد بك، قطامش، وعثمان بك بام ديله، ويوسف جربجى الجزار، ودارت معارك شرسة بين الطرفين، أسفرت عن ظهور التفوق الحربى لحزب القاسمية، وهروب أيوب بك من ساحة القتال، وقتل ما يقرب من أربعمائة فرد من الطرفين، وقيام يوسف بك الجزار بنهب حديقة أفرنج أحمد، وما فيها من غلال ومواشى، وقطع جميع الأشجار الموجودة بها، ثم أشعل فيها النار، ولما بلغ محمد بك حاكم جرجا ما فعله الجزار بحديقة أفرنج أحمد، توجه هو وطائفته إلى حديقة حسن كتخدا النجدلى، وفعل فيها مثلما فعل يوسف بك الجزار بحديقة أفرنج أحمد.

ولكى يتمكن حزب القاسمية من إضعاف جانب الفقارية اجتمعوا فى ٢ جماد أول ١١٢٣هـ/ ١٨ يونيو ١٧١١م بمنزل قائم مقام واتفقوا على أن يعلنوا فى المدينة بأن من له اسم فى أوجاق من الأوجاقات السبعة، ولم يحضر إلى بابه فى خلال ثلاثة أيام ستنهب أملاكه ويقتل، وكان ذلك سببًا فى أن يتخلى عدد كبير من الإنكشارية عن الفقارية وأفرنج أحمد(٧١).

وفى ٤ جماد أول ١١٢٣هـ/ ٢٠ يونيو ١٧١١م، اجتمع الصناجق والأمراء القاسمية فى منزل قائمقام، واتفقوا على مواصلة القتال، وتم إرسال الفرسان والمشاة لمحاصرة منزل أيوب بك، فحملوا عليه حملة رجل واحد، فما كان أيوب بك إلا أن فر هاربًا من بيته فملكوه، ونهبوا ما فيه من أمتعة وأسباب وعلى أثر ذلك فر أيوب بك من مصر، ثم توجه إلى الشام، ثم إلى

استانبول، أما محمد بك حاكم جرجا لما رأى هزيمة حزب الفقارية، فر هو الآخر، ولحق بأيوب بك.

أما الموقف بالنسبة لخليل باشا، فنجد أن العسكر والصناجق قد اجتمعوا بمنزل قائمقام، وقرروا عزله، ثم قاموا على أثر ذلك بمحاصرة القلعة، وأطلقوا بعض طلقات المدافع على مقر الباشا، فأعلن الأخير التسليم وطلب الأمان، ونزل الباشا من القلعة بأحد البيوت المعدة له من أجل ذلك، أما أفرنج أحمد فقد قتل بعد أن منح الأمان، ثم قام القاسمية والعزب بعملية تصفية لبقايا الفقارية، ممن كان لهم دور بارز فى أحداث الفتنة[٧٢]، وتم نفى من أفتى من علماء الأزهر لصالح الفقارية والإنكشارية، وبعد القضاء على هذه الفتنة، تم النداء فى القاهرة بإعلان الأمان، وسريان الحياة بطريقة طبيعية، وعاد الثمانية أفراد المنفيون وجميع من خرج معهم إلى ما كانوا عليه سابقًا.

ولكن ما هى أسباب تفوق القاسمية على الفقارية؟ يرجع ذلك إلى وقوف الأوجاقات العسكرية عدا الإنكشارية إلى جانب القاسمية، علاوة على أن الأخيرة كانت تتمتع بوضع اقتصادى قوى سمح لها بمواصلة القتال على الدوام، بالإضافة إلى أن الفقارية كانت لا تقدر الأمور التقدير الصحيح، فعلى سبيل المثال لو قدروا عاقبة مقتل إيواظ بك ما فعلوا ذلك مطلقًا، وأخيرًا رغبة القاسمية الجامحة فى أن يكون لها السيطرة على مجريات الأمور فى البلاد.

وبعد القضاء على النفوذ السياسى للفقارية جاء وقت توزيع المناصب الكبرى، فقد قام قانصوه بك قائمقام فى ١١ جماد الثانى ١١٢٣هـ/ ٢٧ يوليو ١٧١١م، بمنح الصنجقية، وإمارة الحج ليوسف جربجى الجزار، وفى ١٤ جماد الثانى ١١٢٣هـ/ ٣٠ يوليو ١٧١١م، ألبس محمد بك الصغير - المعروف بقطامش - قفطان على ولاية جرجا ومنفلوط[٧٣]، وعندما تولى

ولى باشا (١١٢٣- ١١٢٦هـ/ ١٧١١- ١٧١٤م) منح أحمد بك الأعسر تابع إبراهيم بك أبوشنب قفطان الصنجقية مع كشوفية البحيرة، ومنح زين الفقار مملوك قانصوه بك كشوفية بنى سويف، ومنح يوسف بك الجزار إقليم الغربية، فنزل فيها مملوكه إبراهيم كاشف، وفى تحول جديد من توزيع المناصب، وردت أوامر من الدولة العثمانية بعزل قيطاس بك الفقارى من الدفتردارية، وتوليته إمارة الحج مكان يوسف بك الجزار، وتولية إبراهيم بك أبو شنب الدفتردارية محل قيطاس بك، ويظهر مما سبق استئثار القاسمية بالمناصب المهمة.

وفى ١٣ شعبان ١١١٤هـ/ ١٥ سبتمبر ١٧١٢م، ألبس الباشا الأمير أحمد بك الأعسر قفطانًا على ولاية جرجا، بدلاً من محمد بك قطامش فى حين تولى الأخير إمارة الحج فى ١٢ ربيع الثانى ١١٢٥هـ/ ١٢ أغسطس ١٧١٣م، وفى نفس العام وردت أوامر سلطانية بمنح قيطاس بك الدفتردارية بدلاً من إبراهيم بك أبو شنب، وأن يكون محمد بك قطامش مملوكه أميرًا للحج[٧٤] ويدل توزيع المناصب على كل من عناصر القاسمية، والفقارية، أن الإدارة العثمانية كانت تحاول استرضاء الطرفين، بحيث تتمكن من تهدئة الأوضاع فى مصر بعد انقضاء فتنة ١١٢٣هـ/ ١٧١١م.

ولكن بتولى عابدى باشا (١١٢٦- ١١٢٩هـ/ ١٧١٤- ١٧١٧م) انقلب ميزان توزيع المناصب الكبرى لصالح القاسمية، فقد أصدر أمرًا بتعيين إبراهيم بك أبوشنب قائمقام[٧٥] ثم عزل قيطاس بك من الدفتردارية، ومنحها ليوسف بك الجزار، ثم قام بعزل محمد بك الصغير "قطامش" من إمارة الحج، ومنحها لإسماعيل بك ابن إيواظ، ويرجع ذلك إلى اتهام الباشا لكل من قيطاس بك، ومحمد بك بالتلاعب بالمال الميرى[٧٦]، ويبدو أن عابدى باشا كان مزودًا بأوامر عليا، وهى تقليم أظافر الفقارية حتى لا تتكرر فتنة ١١٢٣هـ/ ١٧١١م، وإزاء ذلك قام بقتل قيطاس بك الفقارى.

ففى ٨ رجب ١١٢٧هـ/ ١٠ يوليو ١٧١٥م نزل الباشا إلى قراميدان، وأرسل لقيطاس بك فحضر، ولما دخل على الباشا رحب به، ثم أخرج خطًا شريفًا بقتله، فأشار إلى أتباعه فقلتوه، وحملت جثته إلى منزله، وتم ضبط ما فى بيته[٧٧]، ولما علم تابعه محمد بك قطامش بذلك، سكن فى بيت سيده، فاجتمع رأى الأكابر، وأصحاب الحل والعقد، واتفقوا على تولى محمد بك قطامش حكم جرجا، وعثمان بك بارم ديله حكم منفلوط تسكينًا للفتنة، وأرسل الباشا فى طلبهما ليلبسهما خلع التنصيب، فرفضا لأنهما كان ينويان الأخذ بثأر سيدهما.

ولما علم الباشا بذلك اشتاط غضبًا وأرسل إلى قاضى القضاة، والعلماء، ونقيب الأشراف، والصناجق والأمراء، وأصحاب الحل والعقد فى الأوجاقات، وعرفهما بعصيان محمد بك، وعثمان بك، وطلب من العلماء أن يعطوه إذنًا بقتالهم، ولكن العلماء طلبوا من الباشا أن يأذن لهم بالتدخل لحل هذه الأزمة، فإذن لهم بذلك وذهب معهم نقيب الأشراف، وتوجه الجميع إلى منزل إبراهيم بك أبو شنب زعيم الشنبية، ثم أرسلوا لمحمد بك، وعثمان بك للحضور، كى يتم الاتفاق معهما لتسكين الفتنة، ويقنعهما بأن يتوليا حكم جرجا ومنفلوط، وكلهما رفضا، وأصرا على الأخذ بثأر سيدهما، فلما بلغ العلماء ذلك توجهوا للباشا وأعطوه إذنًا بمحاربتهما[٧٨].

فكتب الباشا فرمانًا إلى الأوجاقات السبعة بمحاربة محمد بك، وعثمان بك، والقبض عليهما، ودارت مناوشات حربية بين حزب الباشا بزعامة يوسف بك الجزار، وحزب محمد بك بزعامة حسن كتخدا النجدلى، وكور عبدالله جاويش، وناصف كتخدا القازدغلى، وأسفرت هذه المناوشات عن مقتل حسن كتخدا النجدلى، وناصف كتخدا القازدغلى، وإصابة كور عبدالله إصابة بالغة وهروبه، ثم قيام جركس محمد بالقبض عليه، وحضر به أمام عابدى باشا فسبه ووبخه، ثم قتل بعد ذلك بالقلعة، ثم أنزلوه إلى بيته، ولما

بلغ محمد بك قطامش ذلك فر إلى الشام، ومنها إلى استانبول، أما عثمان بك بارم ديله فقد فر ولم يعلم له خبر(٧٩) ثم وصل بعد ذلك خطًا شريفًا فى غرة ذى الحجة ١١٢٧هـ/ ٢٨ نوفمبر ١٧١٥م بعزل يوسف بك الجزار من الدفتردارية ومنحها لإبراهيم بك أبو شنب.

ويظهر مما سبق مدى تحامل الإدارة العثمانية على طائفة الفقارية، خوفًا من حدوث فتنة جديدة قد تزيد الأوضاع اضطرابًا فى مصر، ولكن سرعان ما لاحت فى الأفق فتنة أخرى بين بيتى الإيواظية والشنبية القاسميين.

وبعد انتهاء فتنة ١١٢٣هـ/ ١٧١١م، وانتصار طائفة القاسمية ظهر الانقسام التقليدى فيما بينهم، فعلى حين أصبح أكبر القاسمية إبراهيم بك بوشناق المعروف بأبى شنب وله أتباعه من الشنبية، صار إسماعيل بك ابن إيواظ زعيمًا للإيواظية، وتوفى إبراهيم بك أبو شنب عام ١١٣٠هـ/ ١٧١٧م، تاركًا ولده محمد بك، وتابعه محمد بك جركس الكبير، وبزعامة الأخير لبيت الشنبية، دخل فى صراع على السلطة على إسماعيل بك ابن إيواظ زعيم بيت الإيواظية، واستغرق هذا الصراع ما يقرب من عشر سنوات حتى وفاه إسماعيل بك عام ١١٣٦هـ/ ١٧٢٣م(٨٠)، وكان الأخير قد بلغ مبلغًا كبيرًا من القوة والنفوذ بتوليه إمارة الحج، علاوة على الثراء الواسع الذى تمتع به مما أوغر صدور الكثيرين عليه، وكان على رأسهم محمد بك جرجس الكبير، وكان الأخير يعلم جيدًا لأنه لن تكون له كلمة بمصر، ما دام إسماعيل بك على قيد الحياة، لذا شرع فى تدبير المؤامرات للتخلص منه(٨١).

وعلى هذا الأساس استغل محمد بك جركس الخلاف بين ذى الفقار بك الفقارى، وإسماعيل بك ابن إيواظ بسبب التزام ناحية قمن العروس فقد كان لذى الفقار بك نصف التزام تلك الناحية، ولكن إسماعيل بك تصرف فيها كاملة، وطرد أتباع ذو الفقار بك منها، فلما ظهر جركس طلب منه ذو الفقار

بك أن يستخلص له التزام نصف قمن العروس من إسماعيل بك، ولكن الأخير رفض وساطة محمد بك جركس، فما كان من ذى الفقار بك إلا أن اتفق مع الأخير على قتل إسماعيل بك، فاستغل فرصة طلوع إسماعيل بك إلى الديوان يصحبه بعض أتباعه، وأطلق عليه النار، ولكنه لم يصب بسوء، وأيقن إسماعيل بك أن هذه المؤامرة بتدبير من محمد بك جركس، لأنه علم أن منفذى هذه المؤامرة توجهوا إلى بيته؛ وبناءً على ذلك أخذا إسماعيل بك فرماناً من على باشا (١٢٩- ١١٣٢هـ/ ١٧١٧- ١٧٢٠م) بالتقاضى مع جركس بالديوان، ولكن الأخير رفض، فأرسل الباشا إلى قاضى القضاة ليعلن عصيانه وبناءً على ما سبق أرسل الباشا فرماناً إلى الأوجاقات السبعة بنزول البيارق (الأعلام)، والعسكر لمحاصرة منزل جركس بك، ودارت الحرب بين الطرفين طيلة عشرة أيام، وقتل عدد كبير من الطرفين، ولما رأى جركس أنه مهزوم لا محالة، ولى هارباً، حتى وصل عند عربان الصوالحة فأنزلوه عندهم وأكرموه وأعطوه الأمان، إلى أن إطمئن إليهم، ولكنهم بعد ذلك اقتادوه وسلموه إلى إسماعيل بك ابن إيواظ، إلا أن مروءة الأخير منعته من قتله فقام بعلاجه، ونفاه بعد ذلك بفرمان من الباشا إلى قبرص بعد مصادرة ممتلكاته، ولكن جركس لم يقبل الانسحاب من الميدان بهذه الصورة، فرجع إلى مصر بعد أن تعرف على أحد القباطنة فى قبرص، حيث كانت بينهما معرفة سابقة أثناء تولى جركس ولاية البحيرة، فقدم له المساعدة فى الهروب من قبرص إلى مصر سراً[٨٢].

وبعد ذلك صارت الأمور لصالح جركس بك ضد إسماعيل بك ابن إيواظ، فيبدو أن الأول استطاع الاتصال بالباب العالى، وأوغر الصدور على إسماعيل بك، خاصة بعد أن تعهد بدفع مبلغ كبير من المال إذا ما أعيدت إليه ممتلكاته وصنجقيته، ثم قام رجب باشا (١١٣٢- ١١٣٣هـ/ ١٧٢٠- ١٧٢١م) بإظهار خط شريف بقتل إسماعيل بك ابن إيواظ، الذى كان يقود

قافلة الحج آنذاك، فلما بلغه ذلك تخلى عن قيادة قافلة الحج، ودخل مصر سرًا، وعلى أثر ذلك تولى محمد بك ابن إسماعيل الكبير الدفتردار الفقارى إمارة الحج محل إسماعيل بك، على حين تولى أحمد بك الأعسر دفترداريه مصر، وألبس الباشا قفطان الصنجقية لمحمد بك جركس.

وفى ٢٨ جماد أول ١١٣٤هـ/ ١٦ مارس ١٧٢٢م، وقعت فتنة بالقليوبية بين سليمان أبودفيه، وكان قائمقام من طرف إسماعيل بك ابن إيواظ، وبين سالم ابن حبيب، وإخوته، فاستغل إسماعيل بك هذه الفرصة كى ينتقم من سالم بن حبيب، وأرسل إسماعيل بك على أغا الأصفر بمساعدة سليمان أبى دفيه، وبصحبته عدد كبير من الجند والعرب تقوية على ابن حبيب وتحالف جركس مع أولاد حبيب نكاية فى إسماعيل بك، وأرسل لهم جركس كاشفا المنصورة، والقليوبية تقوية على سليمان أبو دفيه، ودارت رحى الحرب، وقتل فيها عدد كبير من الطرفين، ولما رأى الصناجق ذلك، وتأثيره على البلاد سلبياً، اجتمعوا فى بيت أغا المتفرقة، وجمعوا إسماعيل بك وجركس محمد، وأمير الحج، والدفتردار، وغيرهم، وأصلحوا بين جركس محمد، وإسماعيل بك صلحًا شافيًا، وكتبوا مكتوبين، الأول من إسماعيل بك لسليمان أبو دفيه، والآخر من جركس لأولاد حبيب بوقوع الصلح بين الطرفين، ووقف القتال[٨٣] ولكن بعد عقد الصلح واصل سليمان أبودفيه اعتداءه على سالم بن حبيب، ولكن الأخير تمكن من هزيمة أبودفيه، بعد أن نهب جميع ما كان معه، ولما بلغ إسماعيل بك ذلك، أخذ من الباشا فرماناً بالقوة بإرسال تجريدة على سالم بن حبيب، حيث قامت التجريدة بمشاركة عربان الصوالحة بنهب دجوة، وتخريبها، وهروب أولاد حبيب إلى الصعيد، مما زاد من حدة العداء بين إسماعيل بك، ومحمد بك جركس.

وقد جرت محاولة لعقد الصلح بين إسماعيل بك ابن إيواظ، وجركس محمد، فأسل أحمد بك الأعسر تابع الأخير إلى يوسف بك الجزار تابع ابن

إيواظ، أن يحضر ومن معه إليه بعد المغرب، فما كان من يوسف بك إلا أن أرسل من أحضر أنصار ابن إيواظ من صناجق، وكتخداوات، وحضر معهم ابن إيواظ ولكنه كان متخفيًا، وفى ذلك الوقت حضر أحمد بك الأعسر، ومحمد بك جركس، وتمكن أحمد بك الأعسر من عقد الصلح بين إسماعيل بك ومحمد بك جركس واتفق المجتمعون على عزل رجب باشا، وتعيين أحمد بك الأعسر قائمقام، وأرسلوا عرضًا للدولة بذلك يطلبون فيه أن ترسل لهم باشا غيره ويرجع سبب عزل الباشا أنه كان يستغل الصراع بين بيتى الإيواظية والشنبية كى يقضى عليهما، ولكنه لم يتمكن من ذلك.

ولكن هذا الصلح لم يكتب له البقاء، فقد ازدادت الأحقاد بين جركس بك، وإسماعيل بك؛ وذلك لسببين أولهما، أن جركس لم يتخل عن مساندته لسالم بن حبيب فقد أرسل إليه كى يعود إلى دجوة، ووعدهم الحصول على فرمان بالأمان من الوزير، وطلب جركس بك من أحمد بك الأعسر السعى فى ذلك، إلا أن الأخير قال لجركس **"هذا أمر لا يمكن إلا برضى إسماعيل بك، وبغير رضاه لا يتم، فزاد جركس غيظًا وحنقًا على إسماعيل بك بكلام الأعسر"**(٨٤).

أما ثانى هذه الأسباب ففى ٢٥ رجب ١١٣٤هـ/ ١٢ مايو ١٧٢٢م، وصل أغا من الدولة العثمانية، وطلع الديوان، وأعطى الوزير كيسًا به عدة خطوط قرئت الديوان، تضمنت العفو عن إسماعيل بك ابن إيواظ، وألبسه الباشا قفطانًا، ولما رأى محمد بك جركس ذلك – وكان حاضرًا ازداد حقده على ابن إيواظ، وكان هناك خط آخر بمنح الدفتردارية لإسماعيل بك جرجا مملوك إسماعيل بك ابن إيواظ ويرجع ذلك إلى تحسن العلاقة بين الدولة العثمانية والأخير(٨٥)، وازداد الإيواظية نفوذًا بتولى عبدالله بك تابع إسماعيل الكبير إمارة الحج، وصار إسماعيل بك ابن إيواظ شيخًا للبلد(٨٦) وبذلك رجحت كفة الإيواظية على الشنبية، مما زاد من حدة العداء بينهما.

ولكن هذا التفوق الذى حازه الإيواظية لم يدم طويلاً، ففـى ١٢ شـوال ١١٣٥هـ/ ١٦ يوليو ١٧٢٣م، تولى محمد بك ابـن إبـراهيم أبـو شـنب الدفتردارية، بعد أن عزل منها إسماعيل بك جرجا وعلى الرغم من ذلك ظل إسماعيل بك ابن إيواظ متمتعًا بالهيبة والنفوذ، ولذا أيقن جركس بك أنه لـن تكون له الكلمة فى البلاد ما دام إسماعيل بك على قيد الحياة، لذا تحالف مع ذى الفقار بك الفقارى، وبعض الفقارية على قتل إسـماعيل بـك، فاسـتغل جركس بك الخلاف الذى كان بين ابن إيواظ، وذى الفقار بك حـول حصـة التزام قمن العروس وتمكن جركس بك من إقناع الأخير بأخذ فرمـان مـن الباشا بحقه فى التزام تلك الناحية(٨٧).

وكان ذو الفقار بك قد اشترط على كتخدا الباشا أنه إذا تمكن مـن قتـل إسماعيل بك أن يمنح الصنجقية، ونصف التزام قمـن العـروس، وإقطـاع برمبال ولما علم محمـد باشـا النشـنجى (١١٣٣- ١١٣٨هـــ/ ١٧٢١-١٧٢٦م) بذلك وعد ذا الفقار بك أنه إذا تمكن من قتل ابن إيـواظ فسـوف يمنحه إقليم المنوفية، وعلى هذا الأساس تم الاتفاق بين كل من جركس بـك، وذى الفقار بك على قتل إسماعيل بك بالديوان، على أن يكون جركس بـك حاضرا(٨٨).

وفى ٩ صفر ١١٣٦هـ/ ١٨ نوفمبر ١٨٢٣م، طلـع ذو الفقـار بـك وجماعته للديوان، ثم طلع إسماعيل بك ابن إيواظ، وتابعـه إسـماعيل بـك جرجه، ثم طلع محمد بك جركس، ومماليكه، ثم عقد الـديوان، وتـم تنفيـذ المؤامرة، فقد قام ذو الفقار بك بتقديم فرمان الباشا بحقه فى نصـف التـزام ناحية قمن العروس إلى إسماعيل بك، وعندما أخذ الأخير فى قراءته، استغل ذو الفقار بك هذه الفرصة، وطعن إسماعيل بك فأرداه قتيلاً، وقتلوا إسماعيل بك جرجه، فى حين هرب جركس بك، ومماليكه، ويعتبر مقتل إسماعيل بك بن إيواظ نهاية لوجود بيت الإيواظية.

وبعد تنفيذ هذه المؤامرة منح ذو الفقار بك ما وعد به من قبل الباشا[٨٩] وأعطاه جركس بك أربعة بلدان فى الغربية من أهم بلاد ابن إيواظ، وأعطاه ستة بلدان فى الصعيد[٩٠] وبموت إسماعيل بك صار الحل والربط فى البلاد لجركس بك واستغل هذا النفوذ فى نهب البلاد وظلم الرعية، والاستيلاء على أموال كبار التجار ونهب بيوتهم[٩١].

وبعد القضاء على العدو المشترك لكل من جركس بك، وذو الفقار بك، انفصم عرى التحالف بينهما، وتحول هذا التحالف إلى عداء، وصراع شرس حاول فيه كل منهما القضاء على الآخر، ومن أجل ذلك أرسل محمد بك جركس إلى الباشا يطلب منه فرمانًا بتجريده على المنوفية للقضاء على ذى الفقار بك، ومن معه من الفقارية، فرفض الباشا، خوفًا من ازدياد نفوذ محمد بك جركس، فما كان من الأخير إلا أن نزل إلى بيته، ورفض الطلوع للديوان هو وأتباعه، فلما ضاف الباشا ذرعًا من ذلك قرر رفع صنجقية جركس بك، وأرسل فرمانًا إلى الأوجاقات السبعة والعلماء يخبرهم بذلك، فلا يجب أن يدخل أحد بيته، أو يجتمع به، وكل من يخالف ذلك فسوف يعرض نفسه للهلاك، فما كان من جركس إلا أن أرسل إلى اختيارية الأوجاقات، والعلماء للاجتماع فى بيته فى أمر ما، فلما حضروا هددهم بالقتل إذا لم يوافقوا على عزل الباشا، وتم ذلك بالفعل، وعين محمد بك ابن إبراهيم بك أبو شنب الدفتردار قائمقام، ومنح محمد بك جركس الصغيركشوفية المنوفية، وقائدًا للتجريدة الموجهة للمنوفية للقضاء على ذى الفقار بك، ونزلت هذه التجريدة عند منوف، ولما بلغ الأخير ذلك فر هاربًا إلى القاهرة[٩٢].

ونتيجة لما سبق ازدادت العداوة بين جركس بك الكبير، وذى الفقار بك، وصمم الأخير القضاء على الأول نهائيًا، ولما رأى على باشا (٢١ ربيع الأول ١١٣٨- ٨ جماد أخر ١١٣٨هـ/ ٢٧ نوفمبر ١٧٢٥ – ١١ فبراير ١٨٢١م) مدى ما وصل إليه جركس بك الكبير من قوة ونفوذ، أحضر

العلماء، والصناجق، والأغوات، وأعيان العسكر، ونقيب الأشراف، وقاضى القضاة، وحضر محمد باشا المعزول - النشنجي - وأظهر على باشا خطًا شريفًا بتعيين محمد بك جركس الكبير حاكمًا على غزة، ولكنه رفض قبول هذا المنصب، فما كان من الباشا إلا أن أخذ من العلماء إذنًا بإعلان عصيانه، ووجوب محاربته، ودارت المعارك بين الطرفين، وتزعم حزب الباشا ذو الفقار بك، وتبادل الطرفين النصر والهزيمة بعد أن قتل عدد كبير منهما، وتمكن ذو الفقار فى نهاية الأمر بمعاونة قوة كبيرة من الهجوم على بيت محمد بك جركس الكبير، وهزيمته، فما كان من الأخير إلا أن فر هاريًا مع أتباعه الباقين، ثم قام ذو الفقار بك بنهب بيوتهم .

وواصل جركس بك الكبير فراره إلى أن وصل إلى حوش عيسى، ومنها توجه إلى مدينة درنة الليبية، وأثناء تواجده فى درنه استقل أحد المراكب الروسية، وأخذ معه محمد بك جركس الصغير، ومملوكين، وفراشًا وطباخًا وتوجه إلى موسكو.

بعد خروج جركس بك الكبير من مصر عاد إليها الأمان لحد ما، وأصبحت الزعامة فى مصر بيد الفقارية، وكان على باشا قد عزل من باشوية مصر، وتولى مكانة محمد باشا النشنجي ثانيًا (١١٣٨- ١١٤١هـ/ ١٧٢٥- ١٧٢٨م) فعقد ديوانًا حضره جميع الصناجق والأغوات، وجميع اختيارية السبع أوجاقات وألبس قيطاس بك الصغير (الأعور) قفطانًا على إمارة الحج، وألبس على بك الهندى قفطانًا على دفتردارية مصر، وألبس ذا الفقار بك قفطانًا على شياخة البلد، وقسم الباشا مناصب مصر قسمين على موجب العادة القديمة، نصفها للفقارية، والنصف الأخر للقاسمية، وصار أوجاق الإنكشارية طرف ذى الفقار بك، وأوجاق العزب طرف على بك الهندى[٩٣].

وفى ٣ صفر ١١٣٩هـ/ ٢٠ سبتمبر ١٧٢٦م توفى قيطاس بك الأعور أمير الحج أثناء قيادته لقافلة الحج، فتم تعيين ذى الفقار بك مكانه، ولكى يعمل الفقارية على زيادة نفوذهم ضد خصومهم القاسمية، أرسلوا للدولة العثمانية بضرورة حضور محمد بك قطامش إلى مصر، فلما حضر أنعموا عليه بالدفتردارية، ولكنه لم يتمكن منها إلا بعد قتل على بك الهندى[٩٤]، وانتهت الزعامة فى مصر لذى الفقار بك، وأصبح فيما بعد قائمقام باكير باشا (١١٤١- ١١٤٢هـ/ ١٧٢٨- ١٧٢٩م)[٩٥].

وفى ١١٤٠هـ/ ١٧٢٧م تمكن محمد بك جركس الكبير من العودة إلى مصر، فلما بلغ ذلك ذا الفقار بك، اجتمع مع محمد بك قطامش، وقررا إرسال تجريدة بصنجقين، بعد أن تحمل التجار تكاليفها الباهظة، ثم طلع ذو الفقار بك، ومحمد بك قطامش عند باكير باشا فخلع على على بك قطامش، وعثمان بك تابع ذى الفقار بك صنجقتين وجعلهما قائدين على التجريدة، أما جركس فقد نزل إلى البحيرة، ومنها إلى الفيوم، ثم بنى سويف، ثم توجه إلى جرجا وعندها حدث اللقاء بين الطرفين أسفر عن هزيمة منكرة لتجريدة ذى الفقار بك، وتعرضها للنهب، وأخذ جركس بك الكبير يطارد تلك التجريدة حتى البدرشين.

ولما بلغ ذو الفقار بك ذلك اشتاظ غضبًا، وقرر إرسال تجريدة أخرى، وكتب عرضاً إلى الباشا يطلب منه فرمانًا بخمسمائة كيس؛ كى يتمكن من إعداد تلك التجريدة، ولكن الباشا رفض متعللاً بعدم وجود أموال كافية لذلك، فما كان من ذى الفقار بك إلا أن قام بعزل باكير باشا، وعين محمد بك قطامش قائمقام، وأخذ منه فرمانًا بالخمسمائة كيس، وتم جمعها من التجار، وبالفعل تم إعداد التجريدة، وأرسلوا إلى سالم بن حبيب للاستعانة به فى محاربة جركس بك الكبير، وجعلوا على رأس التجريدة على بك قطامش تابع محمد بك قطامش – والذى تولى إمارة الحج – وتم تعيين عثمان بك جاويش

القازدغلى سردارًا على طائفة الإنكشارية، وعلى كتخدا الجلفى سرادرًا على طائفة العزب، علاوة على الإمـدادات الأخـرى التـى أرسـلها اختياريـة الأوجاقات الأخرى من جنود وسلاح.

وقد تمكنت هذه التجريدة من الانتصار على قوات سليمان بك أبوشـنب الموالى لجركس فى البدرشين، وقتله، ولما بلغ ذلك محمد بك جركس الكبير توجه إلى البحيرة فعاث فيها فسادًا بالقتل والنهب، وأخذ يتهرب من البهنسـا إلى الواحات إذا ما أحس بقدوم تجريدة عليه، واستمرت مطاردته حتى مات غريقًا فى ٢ شوال ١١٤٢هـ/ ١٨ أبريل ١٧٣٠م، عندما كان يحاول عبور النيل إلى البر الشرقى متجهًا لناحية شرونه، ولم يشأ الحظ أن يعلم ذو الفقار بك بوفاة محمد بك جركس الكبير؛ لأنه اغتيل قبل وفاة الأخير بخمسة أيـام على يد القاسمية، وبوفاة محمد بك جركس الكبير صارت الكلمة الأولى فـى مصر للفقارية، ولم تقم لطائفة القاسمية قائمة بعدها.

وبعد وفاة ذى الفقار تزعم طائفة الفقارية بيت القطامشة بزعامة محمـد بك قطامش، الذى تولى منصب إمارة الحج هو وتابعه على بك قطامشفضلاً عن تولى منصب الدفتردارية، ثم ازدادت مكانة محمد بك قطـامش بتعيـين قائمقام بعد عزل محمد باشـا السـلحدار (١١٤٤- ١١٤٦هـ/ ١٧٣١ – ١٧٣٣م) علاوة على شياخة البلد، وفى ١٤ جمـاد آخـر ١١٤٦هـ/ ٢٢ نوفمبر ١٧٣٣م، تولى إمارة الحج ثانيًا.

وكما هى العادة فى طبيعة العلاقة بين البيوتات المملوكيـة، فلـم تكـن البيوتات الأخرى تسمح بمثل هذا التفوق الذى حازه بيت القطامشة، فـدبرت مؤامرة تم فيها استئصال شأفتهم، وملخصها أن صالح كاشف القاسـمى قـد تزوج من هانم بنت إيواظ، وكان ملتجئًا إلى عثمان بك الفقارى، فطلب منـه أن يتوسط لدى محمد بك قطامش زعيم البلاد فى أن يحصل له على الإمارة

والصنجقية، ولما عرض عثمان بك الفقارى هذا الأمر علـى محمـد بـك قطامش رفض بشدة قائلاً **"تريد أن تفتح بيتًا للقاسمية فيقتلونا على غفلـة هذا لا يكون أبدًا ما دمت حيًا"**[٩٦] ولما بلغ صالح كاشف ذلـك، اتفـق مـع عثمان كتخدا القازدغلى على قتل محمد بك قطامش، وعلى بـك قطـامش، وأيدهم فى ذلك باكير باشا (١١٤٧- ١١٤٩هـ/ ١٧٣٥- ١٧٣٧م)، ويتضح من ذلك رغبة عثمان كتخدا القازدغلى فى أن ينفرد بالأمور فى مصر.

وتم تدبير المؤامرة بالاتفاق بين صالح كاشف، وعثمان كتخـدا أثنـاء انعقاد الجمعية لمناقشة أمر الخزينة فى بيت محمد بك الـدفتردار، ودعـى الأمراء المطلوبون، وبعض أتباعهم، وحضر عثمان بك الفقارى، وعثمـان كتخدا القازدغلى، وحضر أيضًا عددًا كبيرًا من الأمراء، وبمجرد أن انتهـت الجمعية من مناقشة الموضوعات المطروحـة، وأراد الأمـراء المجتمعـون الإنصراف، وقف الدفتردار، وقال **"هاتوا شربات"** وكانت هذه الكلمة إشـارة لإطلاق النار، ووسط دخنة البارود قتل عدد من الأمراء، هـم محمـد بـك قطامش، وعلى بك قطامش، وعن طريق الخطأ قتل عثمان كتخدا القازدغلى، وتمكن عثمان بك الفقارى من الفرار.

وعلى أثر وفاة عثمان كتخدا القازدغلى، انفرد بالأمور فى مصر عثمان بك الفقارى، فقد تولى إمارة الحج، وأصبحت له الكلمة الأولى فـى الـبلاد، وعن ذلك يقول الجبرتى، ولكن زعامة عثمان بك لم تدم وقتًا طويلاً، فقد دار صراع بينه، وبين إبراهيم جاويش القازدغلى لأمور لا تخلوا عن الرئاسـة والزعامة، وفى النهاية أطاح إبراهيم جاويش بعثمان بك وفر إلى استانبول.

وملخص ذلك أن طهطا كانت فى التزام كل من عبـدالرحمن جـاويش القازدغلى، وعلى كاشف الذى كان يسانده عثمان بك الفقارى، ثم قام الأخير باستئجار حصة عبدالرحمن جاويش، وقد توجه على كاشـف إلـى طهطـا

لمباشرة حصة التزامه، وحصة حليفه عثمان بك الفقارى، وهناك أغراه رجل على قتل شيخ بلد تلك الناحية، واشترط على كاشف على أبناء شيخ البلد المقتول دفع مبلغ كبير من المال إذا أراد أحد منهم أن يتولى شياخة البلد مكان والده، فلجأ أحد هؤلاء الأبناء إلى إبراهيم جاويش، يشكو له سوء تصرفات على كاشف، فتوجه إبراهيم جاويش إلى عثمان بك الفقارى، يشكو له ما فعله حليفه على كاشف، ويطلب منه تعيين هذا الابن مكان والده المقتول، ولكن عثمان بك رفض بحجة أن هذه الأرض تقع فى دائرة التزامهم، فما كان من إبراهيم جاويش القازدغلى نكاية فى عثمان بك إلا أن قام باستئجار حصة عبدالرحمن جاويش القازدغلى منه لنفسه، لأن مدة عثمان بك قد انتهت، وأرسل إبراهيم جاويش إلى الباشا يطلب منه فرمانًا بالتصرف فى هذه الناحية، فرفض الباشا بإيعاز من عثمان بك، ولما بلغ إبراهيم جاويش ذلك، صمم على الإطاحة بعثمان بك، ولكن على كتخدا الجلفى تدخل وأصلح بينهما، وأصبح لإبراهيم جاويش حق التصرف فى ناحية طهطا، وعين ابن شيخ البلد محل والده[٩٧]، وعلى الرغم من ذلك ظل العداء كامنًا فى النفوس بين إبراهيم جاويش، وعثمان بك لأن الأول أيقن أنه لن تكون له الكلمة الأولى فى مصر ما دام عثمان بك موجودًا بينهم.

وعلى هذا الأساس استغل إبراهيم جاويش الخلاف الذى بينه، وبين همام ابن يوسف شيخ قبيلة هوارة كى يقضى على عثمان بك، فقد رهن الثانى عند الأول ناحية برديس نظير مبلغ معين، على أن يكون لإبراهيم جاويش الحق فى التصرف فى تلك الناحية، لو تأخر الشيخ همام عن سداد المبلغ المتفق عليه فى الميعاد المحدد له، وعمل همام على التحلل من الاتفاق المبرم مع إبراهيم جاويش واتصل بعثمان بك الفقارى كى يسانده فى ذلك، وأرسل الأخير للباشا يحرضه على عدم إعطاء فرمان لإبراهيم جاويش بحقه فى الناحية المذكورة، فوافق الباشا على ذلك، وزاد هذا الموقف من العداء بين

عثمان بك وإبراهيم جاويش، وعمل الأخير على التخلص من عثمان بك، بعد أن انضم إليه رضوان كتخدا الجلفى[٩٨].

وقد استغل إبراهيم جاويش ورضوان كتخدا فرصة طلوع عثمان بـك، وبعض أتباعه إلى الديوان فقاموا بمهاجمتهم، وقتل البعض منهم، وأصـيب عثمان بك إصابة طفيفة، فر على أثرها إلى الصعيد، حيث التف حوله بقايـا القاسمية اللاجئون هناك خوفًا من اضطهاد الفقارية، ولكى يـتمكن إبـراهيم جاويش ورضوان كتخدا من القضاء على عثمان بك، قاما بإرسال تجريـدة إلى الصعيد بقيادة خليل بك قطامش، ووعداه بولاية جرجا إذا تمكـن مـن القضاء على عثمان بك، فذهب هو الآخر على رأس مدد من القوات لمساندة خليل بك، ولما بلغ عثمان بك ذلك فر هاربًا إلى استانبول وبقى إلى أن مات سنة ١١٩٠هـ/ ١٧٧٦م، وكان فراره من مصر سنة ١١٥٦هـ/ ١٧٤٤م.

وبعد فرار عثمان بك انتهت الرئاسة فى مصر لكل من إبراهيم جاويش القازدغلى، ورضوان كتخدا الجلفى، وبدأت شخصـية الأول تطغـى علـى شخصية الأخير؛ لأن رضوان كتخدا ترك أمور السياسة واعتكف على ملذاته وشهواته، وقوى نفوذ إبراهيم جاويش بتوليه كتخدائية باب متسخفظان ثلاثة أشهر، وأصبح يعرف بإبراهيم كتخدا القـازدغلى، واسـتكثر مـن شـراء المماليك، وقلد بعضهم الصنجقيات أمثال على بك الكبير "الغزاوى"، وحسين بك كشكش، وعثمان بك الجرجاوى، وحسين بك الصابونجى، وعلـى بـك "بلوت قبان" أى مبيد اللصوص، وحمل هو الآخر لقب الكبير وأثنـاء تـولى إبراهيم كتخدا الأمور نعمت مصر بفترة استقرار دامت ست سنوات[٩٩].

وفى عام ١١٦٨هـ/ ١٧٥٤م، توفى إبراهيم كتخدا القازدغلى، وبعدها بستة أشهر توفى رضوان كتخدا الجلفى، بعد أن قام مماليك الأول بطرده من القاهرة إلى الصعيد، وتعتبر وفاته بمثابة النهاية لبيت الجلفية[١٠٠].

بعد وفاة إبراهيم كتخدا، تولى زعامة القازدغلية عبدالرحيم كتخدا مستحفظان، ولكنه لم يتمكن من الوصول لشياخة البلد؛ لأنه لم يكن لديه من المماليك ما يسمح له بانتزاع هذا المنصب من منافسيه، وقد تولى شياخة البلد عثمان بك الجرجاوى، ولكنه لم يستمر فيها وقتًا طويلاً، فتولى بدلا منه حسين بك الصابونجى عام ١١٧١هـ/ ١٧٥٧م، وكان بطبعه يميل إلى نصف جرام، فعمل على التخلص من خصومه البارزين، فقام بنفى على بك "بلوت قبان" إلى النوسات، ونفى عثمان بك الجرجاوى إلى أسيوط، وأراد نفى على بك الغزاوى إلى جهة العادلية، ولكنه لم يتمكن من ذلك لأن الأخير سكن فى بيت صهره محبوسًا، ونقل حسين بك كشكش من جرجا إلى البحيرة، وكان غرضه من ذلك على حد قول الجبرتى "**إظهار دولة نصف حرام**" ولكن حسين بك كشكش استمال إليه رجال الصابونجى، وقاموا باغتياله فى قصره فى ١٣ ربيع أول ١١٧١هـ/ ٢٥ نوفمبر ١٧٥٧م(١٠١).

وتولى شياخة البلد بعد الصابونجى على بك الغزاوى، ثم تولى إمارة الحج عام ١١٧٣هـ/ ١٧٥٩م، وترك شياخة البلد لخليل بك القازدغلى الدفتردار، واتفق الأول مع الثانى على قتل عبدالرحمن كتخدا، ولكن الأخير نما إلى علمه نبأ هذه المؤامرة، فعمل على تعيين على بك "بلوت قبان" شيخًا للبلد، وكان هدفه من ذلك أن يحكم من ورائه ريثما يوطد سلطته، ولكن بلغ على بك الغزاوى ذلك أثناء عودته بقافلة الحج تركها وتوجه إلى غزه، ومكث بها ثلاثة أشهر، ولذا سمى بالغزاوى، وتولى إمارة الحج حسين بك كشكش، ثم تمكن الغزاوى من العودة إلى مصر، ومات بعدها بثمانية أيام.

وكما هى العادة عندما يصل إلى أمير مملوكى إلى الزعامة، يعمل على التخلص من زملائه المماليك حتى ممن قدموا له العون فى سبيل الوصول لهذا المنصب، وبالفعل قام بنفى عبدالرحمن كتخدا إلى الحجاز بفرمان من الباشا فى عام ١١٧٩هـ/ ١٧٦٦م، ولم يبق أمامه سوى صالح بك القاسمى،

وحسين بك كشكش، فنفى الأول إلى رشيد وعين الثانى صنجقًا لجرجا، ولكن صالح بك تمكن من الفرار إلى جرجا عام ١١٧٩هـ/ ١٧٦٦م، وفى جرجا التفت حوله بقايا القاسمية، وأمده شيخ العرب همام بن يوسف بكل ما يحتاج إليه من ذخيرة وعتاد، وحاول على بك أن يقضى على ذلك، فقام بإرسال تجريدة بقيادة حسين بك لقتال صالح بك، حتى يتخلص منهما فى وقت واحد، ولكن هذه التجريدة لم تقم بأى دور إيجابى، وربما يرجع ذلك إلى اتصال صالح بك بحسين بك، وعادت التجريدة مرة أخرى إلى القاهرة، وحاول على بك أن يتخلص من حسين بك؛ فاستصدر فرمانًا من الباشا بنفيه، إلا أنه رفض تنفيذ هذا الأمر، ولما رأى على بك ضعف موقفه فر إلى الشام، واصطحب معه أتباعه، وكان أبرزهم محمد بك أبوالذهب، وعلى أثر ذلك عاد خليل بك إلى شياخة البلد، وتولى حسين بك إمارة الحج، وبعد فترة عاد على بك، ومحمد بك أبوالذهب إلى مصر، فتم نفى الأول إلى النوسات، ونفوا بقية رجاله وعلى رأسهم أبوالذهب إلى أسيوط.

وأثناء تواجد على بك بالدقهلية دبر مؤامرة أسفرت عن قتل عثمان بك الجرجاوى، وجرح فيها حسين بك كشكش فاتهموا حمزة باشا (١١٧٩-١١٨٠هـ/ ١٧٦٥- ١٧٦٦م) باشتراكه فى هذه المؤامرة فعزلوه، وعينوا خليل بك بلفية قائمقام، كما قاموا بنفى على بك إلى أسيوط، وأثناء تواجده فى أسيوط قام بالاتصال بالشيخ همام كى يتمكن من عقد الصلح بينه، وبين صالح بك القاسمى، وكان هدف على بك من ذلك كسب حليف قوى كى يعود إلى مركزه القديم، وبالفعل تمكن الشيخ همام من عقد الصلح بينهما، شريطة أن يمنح على بك صالح بك جهة قبلى مدى الحياة.

وعلى أثر التحالف بين على بك، وصالح بك تقدما بقواتهما قاصدين القاهرة، فما كان من حسين بك إلا أن خرج على رأس تجريدة فى ١٥ جماد الأول ١١٨١هـ/ ١٢ أكتوبر ١٧٦٧م؛ ولكن على بك تمكن من هزيمة هذه

التجريدة شمالى بنى سويف عند بياضة، فما كان من كشكش بك أن فر هاربًا إلى غزة، وعلى أثر ذلك تمكن على بك من دخول القاهرة، وتولى شياخة البلد، وعمل على التقرب من الوالى العثمانى، فأظهر له الطاعة والولاء، وعمل على كسب ود السلطان بإرسال الخزنة إلى استانبول.

وفى شهر ذى الحجة ١١٨١هـ/ مارس - أبريل ١٧٦٧م، عاد حسين بك، وخليل بك بجموع كثيرة من المماليك، والعربان فنزلوا دمياط، ثم تقدموا إلى المنصورة، فأرسل على بك تجريدة فتلاقوا عند سمنود وتمكن حسين بك من هزيمة تجريدة على بك، ثم واصل حسين بك وخليل بك تقدمهما نحو الغربية قاصدين القاهرة، فأخذ على بك فى إعداد تجريدة لمواجهتما، وساعده فيها الشيخ همام، كما أيده الباشا العثمانى، وقاد هذه التجريدة صالح بك، ومحمد بك أبو الذهب، وقام هذان القائدان بمحاصرة المتمردين فى طنطا، ولما نفذ ما لديهم من مؤن وذخيرة طلبوا الأمان من أبى الذهب، فمنحهم إياه، ولكن الأخير غدر بهم فقتل حسين بك، أما خليل بك فقد نقل إلى قلعة الإسكندرية حيث قتل هناك، ولم يبق أمام على بك سوى صالح بك القاسمى فأمر بقتله غدرًا فى ١١٨٢هـ/ ١٧٦٨م وبذلك قضي على بك على أقوى ثلاثة منافسين له.

ولكى يحكم على بك سيطرته التامة على البلاد قام بالقضاء على نفوذ سويلم ابن حبيب زعيم عربان الحبايبة، وقام بالقضاء على نفوذ همام فمات مكمودا مقهورًا، ويقول الجبرتى "**وخلص الإقليم بحرى وقبلى إلى على بك وأتباعه**"(١٠٢).

وأراد على بك أن يدعم سلطته، فاستغل الحرب الدائرة بين روسيا والدولة العثمانية عام ١١٨٢هـ/ ١٧٦٨م، فاستصدر أمرًا من الديوان، وعزل الباشا، وتولى القائمقامية حتى آخر عهده، ولم يسمح للباشوات

العثمانيين بدخول مصر، ولم يبق من مظاهر السيادة العثمانية سوى الخطبة، والعملة، والخزنة السنوية، أما الأولى فقد بقيت كما هى، وأحدث فى الثانية تغييرًا طفيفًا، أما الخزنة فقد أوقف إرسالها منذ سنة ١١٨٢هـ/ ١٧٦٨م.

وبعد أن دعم على بك سلطته داخليًا، أراد أن يدعمها خارجيًا، فأرسل قائده محمد بك أبوالذهب على رأس حملة إلى الحجاز لفرض نفوذه عليها، ونجح فى ذلك لحد ما، وشجعه ذلك على إرسال حملة أخرى إلى بلاد الشام، معتمدًا على مساعدة كل من الشيخ ظاهر العمر فى عكا، والروسيا، وقد استطاع أبوالذهب أن يحرز بعض الانتصارات، فسقطت فى يده العديد من مدن الشام، ومنها دمشق، وقد ساعده الشيخ ظاهر مساعدة صادقة فى ذلك ولعل دافع على بك من وارء ذلك رغبته فى عودة دولة المماليك إلى سابق عهدها، ولكن أبا الذهب قضى على ذلك الحلم لسببين، أولهما أن النصر الذي حققه أبوالذهب إنما ينسب لعلى بك، ثانيهما اتصال الباب العالى بأبى الذهب ليكسبوه إلى صفوفهم، وجعلوه يطمع فى مركز سيده، لذا قرر العودة إلى مصر فجأة، مما زاد ذلك من حدة العداء بين على بك وتابعه محمد بك أبوالذهب، لذا عمل الأول على اغتيال الأخير ولكنه فر إلى الصعيد فى ١١٨٥هـ/ ١٧٧٢م، والتف حوله بقايا القاسمية، والهوارة نكاية فى على بك(١٠٣) وبدأت جولة جديدة من الصراع بين على بك، ومحمد بك أبوالذهب، أى بين بيتى العلوية والمحمدية.

رأى على بك الكبير أن ملكه الذى أسسه على وشك الزوال، فقرر القضاء على محمد بك أبوالذهب بالقوة، فقام بإرسال تجريدة إلى الصعيد، وأسند قيادتها لمملوكه إسماعيل بك، ولكن الأخير انضم لمحمد بك أبوالذهب، ولما بلغ على بك ذلك ازداد حنقًا على محمد بك أبوالذهب، فجهز تجريدة جعل على قيادتها سبعة من مماليكه وقلدهم الصنجقية، ولكن هذه التجريدة لم تكن على المستوى المطلوب، فما كان من على بك إلا أن أعد تجريدة أخرى

جعل على قيادتها مملوكه على بك الطنطاوى، وبالفعل خرجت هذه التجريدة فى شهر المحرم سنة ١١٨٦هـ/ أبريل ١٧٧٢م، وتوجه على بك إلى ناحية البساتين للإشراف على تحصين الضفة الشرقية للنيل، وتلاقت قوات على بك مع قوات محمد بك أبو الذهب عند بياضة شمالى بنى سويف، ومنيت قوات الأول بهزيمة ساحقة، فلما بلغ على بك الكبير ذلك ارتد إلى القاهرة، وتحصن بالقلعة، فى حين أن طلائع قوات أبوالذهب قد وصلت قرب القاهرة، فما كان من على بك إلا أن فر هاربًا من مصر إلى حليفه ظاهر العمر، فى حين أن أبا الذهب دخل القاهرة، وتولى شياخة البلد، ثم أمر بإبطال العملة التى تحمل علامة اسم على بك(١٠٤).

وقد أيقن محمد بك أبوالذهب أنه لا بقاء له بمصر ما دام على بك على قيد الحياة، لذا أوعز لبعض زعماء المماليك على كتابة الرسائل إلى على بك يعدونه فيها بالمساعدة إذا عاد إلى مصر، وحاول الشيخ ظاهر منع على بك من العودة إلى مصر لشكه فى صحة هذه الرسائل، ولعدم يقينه من المساعدة الروسية له، ولكن الأخير لم يستمع لرأى الشيخ ظاهر، وعلى الرغم من ذلك زوده الأخير ببعض قواته، وخرج على بك من الشام متجهًا إلى مصر، وعند الصالحية دارت المعركة الفاصلة بين قوات على بك بقيادة على بك الطنطاوى، وقوات محمد بك أبوالذهب فى ٥ صفر ١١٨٧هـ/ ٢٨ أبريل ١٧٧٣م، وقد هزمت قوات على بك الكبير، وقتل على بك الطنطاوى، ولما رأى على بك الكبير ذلك نزل يقاتل فى ساحة المعركة، حتى جرح، وما لبث أن توفى فى ١٥ صفر ١١٨٧هـ/ ٨ مايو ١٧٧٣م، وانتهت الزعامة فى مصر لمحمد بك أبوالذهب ولكنه ما لبث أن توفى هو الآخر فجأة فى ٨ ربيع ثانى ١١٨٩هـ/ ٨ يونيو ١٧٧٥م أثناء حروبه فى بلاد الشام.

وبعد وفاة محمد بك أبوالذهب تولى مملوكاه إبراهيم بك، ومراد بك مقاليد الأمور فى البلاد، حيث تولى الأول شياخة البلد، فى حين تولى الثانى

الدفتردارية، وصار لكل منهما أتباعه ومماليكه، فكون إبـراهيم بـك بيـت الإبراهيمية، ومراد بك بيت المرادية، وقد نافسهما على الزعامة إسماعيل بك الكبير تابع على بك الكبير، ودار بينه، وبينهما صراع عنيف أسفر عن تغلب إسماعيل بك، على إبراهيم بك ومراد بك، وطردهما إلى الصعيد، وأصـبح إسماعيل بك شيخا للبلد.

وباستيلاء إبراهيم بك ومراد بك على الصعيد، شعر إسـماعيل بـك أن مركزه فى خطر، سيما وأنهما منعا إرسال المال الميرى من الصـعيد إلـى العاصمة، فما كان من إسماعيل بك إلا أن قرر إرسال تجريدة إلى الصـعيد للقضاء عليهما، وخرج إسماعيل بـك مـن القـاهرة فـى ٢١ ذى القعـدة ١١٩١هـ/ ٢١ ديسمبر ١٧٧٧م، ولما علم إبراهيم بك ومراد بك بخبر هذه التجريدة فرا إلى المنيا، فعاد إسماعيل بـك إلـى القـاهرة فـى ٩ محـرم ١١٩٢هـ/ ٧ فبراير ١٧٧٨م، سيما وأن بعض قواته قد تخلت عنه مما أثر على وضعه، ومركزه فى القاهرة فشجع ذلك قوات إبراهيم بك، ومراد بـك على التقدم نحو القاهرة، فما كان من إسماعيل بك إلا أن فر إلى غزة، ومنها توجه إلى استانبول، ويقول الجبرتى **"فكانت مدة إمارة إسماعيل بك وأتباعه على فى هذه المرة ستة أشهر وأيامًا بما فيهـا أيـام سـفره إلـى قبلـى ورجوعه"**(١٠٥).

وعلى أثر فرار إسماعيل بك دخل إبراهيم بك، مراد بك القاهرة، وفـى ٢١ محرم ١١٩٢هـ/ ٢٠ فبراير ١٧٧٨م خلع الباشا علـى إبـراهيم بـك قفطانًا، واستقر فى شياخة البلد كما كان، وبعد فترة تمكن إسماعيل بك مـن العودة إلى مصر، ولكنه لم يتوجه إلى القاهرة بل توجه إلى الصـعيد، ولـم يتمكن إبراهيم بك ومراد بك من القضاء عليه(١٠٦).

وكما هى طبيعة العلاقة بين الأمراء المماليك، فعندما يزول العدو المشترك – ولو مؤقتًا – يدخل هؤلاء الأمراء فى نزاعات، وحروب فيما بينهم، وهو ما حدث بين إبراهيم بك، ومراد بك، لأمور لا تخلو عن الزعامة، ففى سنة ١١٩٤هـ/ ١٧٨٠م حدث خلاف بينهما فتوجه إبراهيم بك على أثره إلى الصعيد، وتولى مراد بك مشيخة البلد، علاوة على القائمقامية، ولكن الأخير أرسل إلى إبراهيم بك وصالحه فعاد إلى القاهرة، ولكن حدث بينهما خلاف مرة ثانية خرج على أثره مراد بك إلى الصعيد فأرسل إليه إبراهيم بك كى يصالحه، ولكنه أبى الصلح، وتقدم نحو الجيزة، فخرج إبراهيم بك لقتاله، وقد دارت بينهما مناوشات حربية توجه على أثرها مراد بك إلى الصعيد مرة أخرى، وفى نهاية الأمر تمكن علماء الأزهر من عقد الصلح بينهما، وظلا يحكمان البلاد دون منازع، وعانت مصر من جراء حكم إبراهيم بك، ومراد بك معاناة شديدة اقتصاديًا، واجتماعيًا، علاوة على أنهما منعًا إرسال الخزينة إلى استانبول، ولذا قررت الدولة العثمانية إرسال حملة حسن باشا القبطان إلى مصر من أجل العمل على استقرار الأوضاع فى البلاد.

وفى ١٣ رمضان ١٢٠٠هـ/ ١٢ يوليو ١٧٨٦م، وصل حسن باشا إلى الإسكندرية ثم تقدم نحو رشيد، وحاول جذب قلوب الأهالى، فأرسل فرمانات باللغة العربية إلى شتى فئات الشعب، يعلمهم فيها بتخفيض الضرائب، ورفع الظلم عن الرعية، وإعادة تطبيق قانون نامه سليمان **"حتى كادت الناس تطير من الفرح"** وتشير سجلات محكمة البحيرة إلى العديد من الفرمانات التى أصدرها حسن باشا لرفع المظالم عن الرعية – وإن كانت بعد دخوله القاهرة – فنذكر منها على سبيل المثال أن حسن باشا قد أرسل إلى كاشف وقاضى البحيرة، وأصحاب الكلمة فى الولاية بضرورة رفع المظالم بأنواعها عن

أهالى ناحية بسطرة بولاية البحيرة فكان من الطبيعى أن تميل قلوب الأهالى نحو حسن باشا، وتنصرف عن الأمراء والمماليك.

ولما نما إلى علم إبراهيم بك، ومراد بك ذلك قررا مقاومة حسن باشا عسكريًا، فقاد مراد بك تجريدة عسكرية لمنع حسن باشا من دخول القاهرة، ولكن الأخير تمكن من هزيمته عند الرحمانية، فى الوقت الذى كان يحاول فيه إبراهيم السيطرة على الأمور فى القاهرة، ولكنه فشل، ولما وصلت الأمور لهذا الحد لم يكن أمام إبراهيم بك ومراد بك سوى الفرار إلى الصعيد، ولذا عرفا بالأمراء القبالى، وعلى أثر ذلك دخل حسن باشا القاهرة فى ١٢ شوال ١٢٠٠هـ/ ٨ أغسطس ١٧٨٦م.

وقد وصلت إمدادات لحسن باشا بقيادة كل من عابدى باشا، ودرويش باشا، فعمل الأول على القضاء على إبراهيم بك ومراد بك، فأقلعت بعض السفن فى النيل جنوبًا، واشتبكت مع قوات الأمراء القبالى قرب أسيوط، ولكن هذا الاشتباك لم يسفر عن نتيجة حاسمة، فأرسل حسن باشا تجريدة عسكرية إلى الصعيد بقيادة عابدى باشا، ودرويش باشا ودارت عدة اشتباكات قرب أسيوط، ولكنها لم تسفر عن نتيجة حاسمة، فعاد العثمانيون إلى سفنهم، والمماليك إلى معسكراتهم(١٠٧)، ولكى يدعم حسن باشا موقفه فى القاهرة، ويعمل على إيجاد قوى توازن قوى المماليك فى الصعيد، أرسل إلى إسماعيل بك، وعينه شيخًا للبلد كما كان فى ١٤ محرم ١٢٠١هـ/ ٦ نوفمبر ١٧٨٦م(١٠٨).

ولما رأى الأمراء القبالى ذلك أرسلوا إلى حسن باشا طالبين منه الأمان، وعقد الصلح، فما كان من حسن باشا إلا أن عقد ديوانًا فى شهر المحرم عام ١٢٠١هـ/ أكتوبر - نوفمبر ١٧٨٦م، جمع فيه الأمراء والأعيان، وعرض عليهم الأمر، فاتفق رأيهم، إن كان غرض الأمراء القبالى عقد الصلح، فعلى

إبراهيم بك ومراد بك الحضور، ويأخذ لهم حسن باشا أماناً من السلطان بحيث لا يقيمون فى مصر، أما بقية الأمراء المماليك، فإذا جاءوا إلى القاهرة طائعين كانوا من عسكر السلطان، وإذا رفضوا فليستقروا بالصعيد فى أماكن محددة لهم، وإن لم يرضوا بهذين الشرطين فستكون الحرب، ولما بلغ البكوات المماليك ذلك أظهروا الامتثال لكل ما يؤمرون به ما عدا الخروج من مصر، لأن فراق الوطن صعب(١٠٩)، وذلك على حد تعبيرهم.

ولما بلغ حسن باشا ذلك قرر القضاء على الأمراء القبالى الذين وصلوا إلى بر الجيزة، ودارت مناوشات حربية بين الجانبين على طول البر الغربى للنيل، وحاول الأمراء القبالى فى ١٢ صفر ١٢٠١هـ/ ٤ ديسمبر ١٧٨٦م، اختراق المتاريس التى أقامها حسن باش هناك، ولكنهم فشلوا، فرجعوا إلى دهشور، وعلى أثر ذلك كتب الأمراء القبالى لحسن باشا يطلبون منه أن يحدد لهم أماكن يقيمون فيها بالوجه القبلى، فوافق على ذلك وترك لهم حرية اختيار المكان الذى سيقيمون فيه، بشرط أن يكونوا قلة، ويحضر باقى الأمراء والعسكر إلى القاهرة بالأمان، ولكنهم لم يوافقوا؛ لأن ذلك سيؤدى إلى تفرقهم وإضعافهم، فصمموا على مواصلة القتال واستقروا فى بنى سويف(١١٠).

ولما رأى حسن باشا ذلك أرسل خلفهم تجريدة بقيادة عابدى باشا، ودارت معركة بين الطرفين أسفرت عن هزيمة القبالى، وأخذت تلك التجريدة تطاردهم حتى أجلوهم إلى إبريم، ثم عاد عابدى باشا إلى القاهرة، وعلى الرغم من ذلك واصل القبالى تقدمهم شمالاً مما أشعل الموقف من جديد(١١١).

ونتيجة لاندلاع الحرب بين الروسيا والدولة العثمانية أرسلت الأخيرة إلى حسن باشا تستدعيه للاشتراك فى الحرب ضد الروسيا، التى استأنفت توسعاتها مرة أخرى على حساب الدولة العثمانية فى بلاد القرم، وقبل مغادرة

حسن باشا القاهرة أبقى إسماعيل بك شيخًا للبلد، وترك له كمية من العتاد الحربى، علاوة على عدد من الجنود، ثم أصدرت الدولة العثمانية العفو عن إبراهيم بك ومراد بك شريطة أن يقيم الأول فى قنا والثانى فى إسنا ويحرم عليهما دخول القاهرة، وأخذ حسن باشا معه بعض الرهائن من المماليك لضمان طاعة المتمردين[١١٢]

بعد سفر حسن باشا بقى عابدى باشا بالقلعة متوليًا أمور مصر (١٢٠١-١٢٠٣هـ/ ١٧٨٦- ١٧٨٨م) على حين أن شياخة البلد ظلت مع إسماعيل بك، وكان صدور العفو عن إبراهيم بك، ومراد بك إيذانًا بعودة الاضطرابات لرغبتهما القوية فى استعادة مركزهما القديم[١١٣].

وعلى هذا الأساس واصلت قوات إبراهيم بك ومراد بك تقدمها شمالاً إلى أن وصلت إلى أسيوط، فما كان من الباشا إلا أن حصل على فتوى من العلماء بقتالهم، وردًا على ذلك أرسل القبالى للسلطات الحاكمة فى القاهرة تقترح عليها أن تترك لهم المنطقة الواقعة جنوب أسيوط، ويتركوا لهم الجهة البحرية، ويبدو أن ذلك كان تمويهًا من الأمراء القبالى بهدف كسب الوقت، بدليل أنهم واصلوا تقدمهم حتى بنى سويف بقيادة مراد بك، ومن الواضح أنهم كانوا لا يرضون عن القاهرة بديلاً، فما كان من الباشا إلا أن أرسل فرمانًا لإسماعيل بك شيخ البلد بقتالهم، ودارت مناوشات حربية بين الطرفين، ولكنها لم تسفر عن نتيجة حاسمة لأى منهما[١١٤].

وأثناء المعارك الدائرة بين الطرفين دارت المراسلات بين الأمراء القبالى وعابدى باشا لعقد الصلح، فاجتمع الأخير مع أحمد أغا مندوب إبراهيم بك ومراد بك، وتم الاتفاق بينهما على ترك الإقليم الواقع جنوبى أسيوط على البرين الشرقى، والغربى للأمراء القبالى، على أن يقوم الأخيرون بدفع ميرى البلاد التى تحت سيطرتهم من المال والغلال، وأن

يطلقوا سراح المراكب المحجوزة لديهم، وتم عقد الصلح بين الطرفين، ولكن هذا الصلح لم يكتب له البقاء، فقد استدعت الدولة العثمانية عابدى باشا، وعينت بدلاً منه إسماعيل باشا (١٢٠٣- ١٢٠٥هـ/ ١٧٨٨- ١٧٩٠م) فنقض الأمراء القبالى الصلح؛ بحجة أنهم عقدوه مع باشا معزول، فعقد الباشا الجديد ديوانًا بحضور المشايخ، والقضاة الذين وافقوا على الاستمرار فى القتال، ويعنى ذلك الاستمرار فى جمع الأموال اللازمة لإعداد حملة جديدة ضد الأمراء القبالى(١١٥).

وفى شهر رجب ١٢٠٥هـ/ مارس – أبريل ١٧٩١م، انتشر وباء الطاعون فى مصر، وكان من أبرز ضحاياه إسماعيل بك شيخ البلد، فحل محله تابعه عثمان بك طبل، ولكنه كان شخصية ضعيفة، مما شجع إبراهيم بك، ومراد بك على التقدم نحو القاهرة، وتمكنت قواتهما من دخولها، فى ٢١ ذى القعدة ١٢٠٥هـ/ ٢٢ يوليو ١٧٩١م(١١٦).

وفى ٢٦ ذى القعدة ١٢٠٥هـ/ ٢٧ يوليو ١٧٩١م، صعد إبراهيم بك ومراد بك إلى الديوان، فخلع عليهما الباشا الخلع، ثم توسط لهما لدى السلطان العثمانى، فوصل مرسوم سلطانى بالعفو عنهما(١١٧)، ونتيجة لذلك انفرد إبراهيم بك ومراد بك بالأمور فى البلاد، وظلا يحكمان دون منازع حتى وصول الحملة الفرنسية فى ١٢١٣هـ/ ١٧٩٨م، وكان من الطبيعى أن تقاسى مصر أثناء فترة حكمهما المحن والأهوال الكثيرة.

ثانيًا : آل العظم في سوريا .

أسرة آل العظم اشتهرت في منطقة معرة النعمان ـــ حماة، وتوصلت إلى حكم هذه المنطقة في الربع الأول من القرن الثامن عشر، وكان إسماعيل باشا العظم، أول ولاة آل العظم في بلاد الشام، كان فلاحًا من المعرة (اختصار معرة النعمان) . ويشير ابن كنان المعاصر إلى إسماعيل باشا بأنه ابن العظم النعماني، أي من معرة النعمان، وعندما عزل سليمان باشا عن

ولايته الثانية على دمشق، ذكر ابن كنان أنه خرج من دمشق وذهب إلى بلاده، أي إلى حماة حيث أقامت أسرة سليمان باشا وحيث بنى سرايا، وتعني هنا بيتًا كبيرًا، وأعطى آل العظم، اثر ازدياد سلطتهم، معرة النعمان وحماة وحمص على شكل، مالكانة، وذلك في الربع الأول من القرن الثامن عشر، ويذكر الخوري ميخائيل بريك المعاصر أن : " أولاد العضم أصلهم من معرة حلب أولاد عرب "، ويقصد بتعبير "أولاد عرب" أنهم من السكان المحليين. واعتبر بريك وصول آل العظم المحليين إلى الحكم في ١٧٢٠ حادثًا هامًا جعله، بالإضافة إلى أسباب أخرى، يبدأ تأريخه لحوادث الشام من هذه السنة، وكان بريك حريصًا على إبراز اختلاف هوية السكان المحليين عن الأروام (وتعني هذه اللفظة العثمانيين عادة، ولكن بالنسبة لبريك فإنها تعني الروم الأرثوذكس)، فذكر أن أحد بطاركة دمشق في أوائل العشرينات من القرن الثامن عشر كان من أولاد العربيين، وذكر القناصل الفرنسيون المعاصرون المقيمون في بلاد الشام بأن آل العظم كانوا عربًا .

ويذكر المؤرخ الحلبي عبد الله بن ميرو، الذي عاصر ولاة آل العظم، أن إبراهيم العظم، والد إسماعيل باشا، كان جنديًا في المعرة في حوالي منتصف القرن السابع عشر، وقد قتل في المعارك التي نشبت بين أهل المعرة والتركمان المجاورين، وولد ابنه إسماعيل في المعرة قبيل سنة ١٠٧٠ / ١٦٥٩ - ١٦٦٠، ثم أصبح في الربع الأول من القرن الثامن عشر حاكمًا على المعرة وحماة، وبوساطة والي حلب، عارفي أحمد باشا، أعطى إسماعيل طوخين، وعين واليًا على طرابلس في أوائل العشرينات من القرن الثامن عشر، وأعطى بهذه المناسبة إمارة جردة الحاج، وفي عام ١٧٢٥ عين واليًا على الشام (١١٨).

لقد تمتع آل العظم بغنى من "مالكاناتهم" في المعرة وحماة وحمص، واستفادوا من الازدهار الاقتصادي في ولاية طرابلس. فقد نشطت في هذه

الولاية تجارة التبغ والحرير، بعد انقطاع حرير فارس الذي كان يستورده التجار الانجليز عبر حلب والاسكندرونة، آثر غزو قيصر روسيا بطرس الأكبر لبلاد فارس الشمالية؛ صدرت منها مادة القلي إلى أوروبا لصناعة الصابون والزجاج فيها، واشترى آل العظم بمالهم المتزايد الدعم لهم في استنابول، وكان لهم وكيل فيها يرعى مصالحهم يسمى خليل أفندي الذي استمد نفوذه من الصدر الأعظم كاخيا.

وتميز حكم إسماعيل باشا العظم في دمشق باحتكاره بيع المواد الغذائية، وخاصة اللحوم، واستفاد من ذلك ببيعه المواشي التي يملكها بالأسعار التي يريدها، واعتمد إسماعيل باشا على قواته من المغاربة في تدعيم سلطته ومنع حدوث ثورة ضده على غرار الثورة التي قام بها الدمشقيون، قبل قليل، ضد عثمان باشا أبي طوق، كما أرضى الرأي العام الدمشقي بحمايته، في أول ولايته، الدمشقين الذي نفاهم أبو طوق من دمشق وأرسلهم إلى استانبول، فتحطم مركبهم قرب طرابلس، وأنقذهم حاكمها، سليمان باشا العظم، بناء على أوامر أخيه إسماعيل باشا، ورحب أيضًا في دمشق بشريف مكة المعزول، الشريف يحيى، الذي اضطهدم سابقًا أبو طوق وأرضى الرأي العام الديني أيضًا ببنائه مدرسة وحمامًا في سوق الخياطين، وبنى حمامًا أخرى في حى الخراب. وأمن إسماعيل باشا سلامة الحاج من البدو، باستثناء سنة حكمه الأخيرة في الشام، في ١٧٣٠، حين هاجم بدو بني حرب في الحجاز قافلة الحاج الشامي [١١٩].

ظل إسماعيل ممسكًا بزمام الأمور حتى اختفى من على مسرح الأحداث في دمشق في عام ١٧٣٠، إذ تأثر مركزه بما حدث داخل القصر السلطاني في استانبول ونجم عنه عزل السلطان الذي كان يدافع عن أسرة العظم، وتم استبعاده أفراد الأسرة من جميع الوظائف التي كانوا يشتغلونها. ولكن بعد عام واحد تبوأ أفراد أسرة العظم مرة أخرى السلطة، أما إسماعيل فلم يعد

إطلاقًا إلى سورية بل مات في جزيرة كريت . وفي عام ١٧٣٣ عين أخـوه سليمان باشا العظم في باشوية دمشق، وظل في هذا المنصب لمـدة خمس سنوات. وفي خلال هذه الفترة قام سليمان بنفي عدد كبير من الإنكشـارية، وظل مسيطرًا على زمام الأمور . وعندما عين واليًا على مصر فـي عـام ١٧٣٨ ترك وراءه في دمشق موقفًا سياسيًا مضطربًا . ففي عـام ١٧٤٠ " وقعت الشواشر بين القبي قول والانيكجرية، وسكرت دمشق، وتفرقت القبي قول في الحارات، وعملوا المتاريس، وسكروا البوابات لئلا أحد يهجم عليهم " . وأثناء ذلك وصلت فرقتان جديدتان من القابيقول مـن اسـتانبول، وزاد وصولها من أعمال الشغب بسبب اضطهاد أهل الحرف في المدينة، وانضم العلماء إلى الوالي والأعيان للاحتجاج لدى السلطان والمطالبـة بطـردهم، ووافق السلطان على ذلك، واتخذت بعض الإجراءات ضدهم، فقتل منهم من قتل وطرد الآخرين، أما من بقى منهم فسمح لهم بالبقاء في دمشق وارتـداء الملابس المدنية (١٢٠).

ولما فشل الولاة غير المحليين في السيطرة على الموقف، عين سـليمان باشا العظم مرة أخرى واليًا على دمشق في عام ١٧٤١. وبعد انهيـار قـوة القابيقول تزايد نفوذه اليارلية ولكن سـليمان كـان حريصًـا علـى تجنـب الاصطدام بهم ولم يستمر سليمان العظم هذه المرة فترة طويلـة إذ أدركتـه المنية في العام التالي بينما كان يحاصر الشيخ ظاهر العمر في طبرية .

وتولى الحكم بعده ابن أخيه أسعد باشا العظم، الذي كان واليًا على صيدا من قبل، واستمر أسعد في ولاية دمشق من عام ١٧٤٣ إلـى عـام ١٧٥٧، وفي بداية حكمه واجه أسعد تحديًا من جانب اليرلية التي كان يتزعمها فـتح الله أفندي الفلاقمنسي أو فتحي الدفتري، وكان الدفتري قد عـين دفتـردارًا لدمشق حوالي عام ١٧٣٥، وقام بجمع ثروة كبيرة وكان على اتصال وثيـق باليارلية، وحينما بلغت أنباء وفاة سليمان العظم دمشق قام فتحـي الـدفتري

بالتحفظ على ممتلكاته وفي اليوم الذي أحضر فيه جثمان سليمان إلى دمشق هاجمت اليارلية بعض قوات سليمان الخاصة وقتلتها. ولكن أسعد استطاع في عام ١٧٤٦ أن يقبض على فتحي الدفتري وعلى عدد كبير من اليارلية وأن يقتلهم جميعًا. وسيطرت قوات أسعد على المدينة، وذهب جزء من الفارين إلى ظاهر العمر، ولجأ الآخرون إلى لبنان أو إلى القبائل العربية، وأرسل الباب العالي دفتردارًا جديدًا من استانبول وشهدت باشوية دمشق خلال السنوات العشر التالية فترة من النظام والهدوء (١٢١).

ولكن الخدمات التي قدمها باشوات أسرة العظم إلى كل من ولاية دمشق والباب العالي، لم تقض على شكوك الديوان في ميول هذه الأسرة . ففي أثناء باشوية أسعد، أعطيت باشوية طرابلس وباشوية صيدا لأقاربه وأتباعه بزعم القضاء على أطماع ظاهر العمر. كما أعطيت له ولاية حلب في عام ١٧٥٥. وفي نفس الوقت، قام حسين أغا، المشهور بابن مكي الذي كان نائبًا عنه في بيت المقدس والذي أصبح في عام ١٧٥٦ حاكمًا على صيدا، بانتزاع دمشق من أسعد باشا الذي فر إلى الصحراء. ولكن هذه المحاولة لإقصاء أسرة العظم لم تنجح. فما أن وطئت أقدام ابن مكي دمشق حتى عادت الفوضى وتجددت الاضطرابات . وزاد من تدهور الموقف تعرض قافلة الحج التي كانت عائدة من مكة في أواخر صيف عام ١٧٥٧ لهجوم قبائل البدو، فهرب حسين باشا إلى غزة، وعادت الاضطرابات إلى دمشق واشترك فيها الدروز الذين قاموا بمساعدة اليارلية ضد القابيقول . ولم يقم الباب العالي بأي عمل حتى أواخر ١٧٥٨ عندما سلم باشوية دمشق لعبد الله باشا الذي كان واليًا على حلب . وأحضر عبد الله معه قوة عسكرية كبيرة تحالفت مع القابيقول ضد اليارلية . وبعد قتال عنيف تمكن عبد الله بمساعدة هذه القوات من إعادة النظام إلى دمشق، وعندما توفى عام ١٧٦١ عادت أسرة العظم إلى الحكم مرة أخرى نحو عشر سنوات. وكان عثمان باشا الملقب بعثمان

الصادق ـ أحد مماليك أسعد باشا العظم السابقين ـ هو الحاكم في دمشق . وكان ازدياد خطر ظاهر العمر في إيالة صيدا قد أجبر الباب العالي على تأييد آل العظم في باشوية دمشق وتعيين أقاربهم وأتباعهم في ولايات صيدا وطرابلس وفي حلب أحيانًا، حتى فاجأ الغزو المملوكي لسورية لمساعدة ظاهر العمر ـ عثمان باشا والحكومة العثمانية نفسها . فاستسلمت دمشق دون مقاومة تذكر في عام ١٧٧١ . ولكن الجيش المملوكي بقيادة أبي الدهب انسحب فجأة، وعين الباب العالي شخصًا آخر يسمى عثمان باشا المصري واليًا على دمشق وكلفه بالقضاء ظاهر العمر . ولكنه لم ينجح في تحقيق ذلك، مما دفع الباب العالي إلى عزله وتعيين محمد باشا العظم في مكانه في عام ١٧٧٣. وحكم محمد باشا العظم ما يقرب من عشر سنوات، وكان موفقًا إلى أبعد الحدود حتى قال عنه المؤرخ الدمشقي القاضي خليل المرادي إنه أفضل حكام دمشق في القرن الثاني عشر الهجري . وبعد وفاة محمد العظم في عام ١٧٨٣، حكم إبراهيم دلي باشا من عام ١٧٨٦ حتى عام ١٧٩٠ . وخلفه في باشوية دمشق أحمد الجزار الذي يعتبر حكمه أسوأ حكم شهدته ولاية دمشق [١٢٢].

ثالثًا : ظاهر العمر وأحمد الجزار في فلسطين

ينتمي ظاهر العمر في نسبه إلى جده زيدان من أشراف بني زيد بن الحسين بن علي بن أبي طالب، الذي ارتحل مع أسرته إلى الشام في أواخر القرن السابع عشر، واستقر بهم المقام في منطقة صفد وحول بحيرة طبرية، وكانت تتبع إيالة صيدا. وتزعم زيدان مزارعي تلك المنطقة، وأخذ التزام طبرية من والي صيدا. ولما توفى، تمكن ابنه عمر من أن يصبح شيخًا على بلاد صفد عام ١٦٩٨ بكفالة الأمير بشير الشهابي أمير الدروز وصديق والي صيدا . ولما توفى عمر اتجهت أنظار أهل طبرية وصفد إلى ابنه ظاهر فاختاروه حاكماً عليهم، وإضطر محمد باشا والى صيدا إلى تثبيته عام

١٧٣٣. وقد ساعدت مجموعة من الظروف على ظهور حركة الشيخ ظاهر العمر من أهمها ضعف الدولة العثمانية وإنشغالها بالصراع الدائر مع الدروز. كما أن تألق نجم الزيدانيين إنما يرجع أساساً إلى النزاع بين القيسية واليمنية وفَضّل الأمير بشير الشهابى ظاهراً الذى ينتمى إلى أسرة زيدان القيسية.

ولقد بدأ ظاهر بعد ذلك يوسع منطقة نفوذه على حساب إيالتى دمشق وصيدا، رغم أنف واليهما، حتى صار متصرفاً فى صيدا عام ١٧٣٣ ويافا وحيفا والرملة ونابلس عام ١٧٣٥ وصفد عام ١٧٣٩. ثم أقام ظاهر علاقات تجارية وودية مع التجار الفرنسيين فى عكا وأمدهم بالقمح والقطن. وكان ميناء عكا فى ذلك الوقت فى حالة من الدمار الجزئى منذ عهد الصليبيين، وكانت عكا تتبع حاكم صيدا ويتولى إدارة شؤونها ملتزم عثمانى. وأخذ ظاهر التزام عكا فى عام ١٧٤٦ وبدأ فى تحصين المدينة وجعلها مقراً له. وعلى هذا النحو لم يقبل إزدياد نفوذ ظاهر العمر بأية معارضة من جانب أسعد باشا العظم، باشا دمشق، فقد أقام علاقات سلمية مع ظاهر خلال فترة حكمه التى إمتدت من عام ١٧٤٣ حتى عام ١٧٥٧، وإن كان قد حدث صدام قبل ذلك بين سليمان العظم وظاهر العمر أدى إلى قيام الأول بتجهيز حملتين على طبرية فى عامى ١٧٣٣ و١٧٤٣(١٢٣).

وكان تعيين حسين باشا مكى على دمشق إشارة إلى تجدد محاولات الدولة العثمانية كبح جماح توسع ظاهر العمر بعد فترة طويلة من الهدوء النسبى على الجبهة مع ولاة الشام. فلما هوجمت قافلة الحجاج ونهبت البضائع الكثيرة من التجار المرافقين لها، أتهم حاكم عكا بالتعاون معهم. ووصلت أخبار ذلك إلى إستانبول، فاهتم ظاهر العمر بالتعاون مع العربان العصاة وربما تشجيعهم سراً على مهاجمة قافلة الحج ونهبها. ولكن ظاهراً نفى تلك الإتهامات وأشار إلى مسؤولية حسين باشا نفسه الذى رفض دفع

الصرة المعتادة إلى عشائر البدو على طريق الحج، كما أرسل بيرق القافلة، الذى نهبه العربان وباعوه فى عكا مع البضائع الأخرى، إلى إستانبول فى محاولة لإرضاء رجال الدولة. لكن السلطات العثمانية كانت تراقب توسع ظاهر العمر فى حيفا وغيرها من المناطق المجاورة، لم تكن مقتنعة تماماً بالتفسيرات التى قدمها حاكم عكا بشأن سياسته وأعماله(١٢٤).

دخلت علاقة ظاهر العمر بولاة الشام مرحلة جديدة عندما عينت الدولة العثمانية سنة ١١٧٣هـ / ١٧٥٩م، عثمان باشا الكرجى والياً على الشام، والذى عمل منذ تعيينه على إستعادة المناطق التى سيطر عليها ظاهر العمر. وحدث أول إصطدام بين الطرفين عندما خرج عثمان باشا لجمع أموال الميرى، فإحتل قلعة الطنطورة التى تتبع ولاية الشام، لكن ظاهر عاد فإحتلها بعد إنسحاب عثمان باشا منها، كما حاول عثمان باشا إستعادة حيفا وعكا سنة ١١٧٤هـ / ١٧٦٠م.

وإزاء تهديد عثمان باشا لظاهر العمر بعد تعيين إبنه درويش باشا والياً على صيدا سنة ١١٨٤هـ / ١٧٧٠م، الأمر الذى دفع ظاهر العمر إلى التحالف مع القوى الخارجية فى البحر المتوسط، فأدى ذلك إلى دخول المنطقة فى سلسلة من الحروب والإضطرابات التى إنتهت بسقوط ظاهر العمر. وظهر ذلك واضحاً فى تعاونه مع على بك الكبير فى مصر الذى كان يحاول أن يعيد حكم المماليك فى سورية وفلسطين كما كان قبل مجئ العثمانيون. وذلك لأنه رأى فى ضعفهم فرصة مناسبة لتحقيق أغراضه. فأرسل محمد بك أبو الذهب سنة ١١٨٥هـ / ١١٧١م ليستولى على دمشق وسائر المدن السورية. وقد وجد ظاهر العمر فى أبى الذهب حليفاً طبيعياً. وبينما كان الأسطول الروسى الذى كان يتعاون معها، يقصف مدينة صيدا دخلتها جيوش ظاهر وإستولت عليها عام ١١٨٦هـ / ١٧٧٢م. وقصف الأسطول الروسى مدينة بيروت وأعمل بحارته فيها النهب أما الأمير يوسف

الشهابى فإنه حالف هذه المرة والى دمشق ضد الخطر الجديد من الجنـوب. فأرسلت إستانبول كتيبة لتساعد والى دمشق والأمير يوسف الشهابى. وبعـد أعمال حربية بحرية وبرية إستعاد مدينة صيدا مـن ظـاهر العمـر عـام ١١٨٩هـ / ١٧٧٥م وأرغم على التراجع إلى عكا المحصنة حيث ضـربت عليها دمشق الحصار. فى الوقت الذى أرسل فيه العثمانيون حملـة بحريـة بقيادة القبطان حسن باشا الذى إحتل حيفا وحاصر عكا فإضطر ظاهر العمر إلى الهرب. لكنه قتل على يد أحد جنود المغاربة خارج أسوار عكـا سـنة ١١٨٩هـ / ١١٧٥م فقطع رأسه وأرسل إلى استانبول ليعلق علـى سـور سراى السلطان وقد كان من جملة الجنود، الذين دافعوا عن صيدا وبيـروت لما كان الأسطول الروسى يقصفهما وعندما كانت جنود ظاهر وأبى الـذهب تهاجمها براً، ظهر جندى اسمه أحمد الجزار الذى تتضاءل مغمرات ظـاهر العمر إزاء مغامراته(١٢٥).

وبعد القضاء على ظاهر العمر ظهرت شخصية مغامرة جريئـة هـى شخصية أحمد الجزار. وكان أحمد الجزار الذى ولد حـوالى عـام ١٧٢٠ أرناؤوطياً من البوسنة، ولذلك عرف باسم أحمد البوشناقى، وفى عام ١٧٥٦ عمل فى مصر تحت إمرة المماليك، وكان قاسياً على أعدائـه حتـى لقـب بالجزار لكثرة من قتلهم غيلة وإنتقاماً من عرب الهنادى بصفة خاصة. وقـد شعر بأن على بك الكبير، وقد إختلف معه، لن يتركه ففر من مصر متنكـراً فى زى المغاربة، وذهب إلى استانبول. وكانت الدوائر الحاكمة هناك تتعاون مع أمثاله ممن يخونون حكام الولايات الثائرة، ثم رحل إلى بلاد الشام واضعاً خدماته أمام كل من يريد الإستعانة به، حتى وصل إلى دير القمر ويوسـف الشهابى فيها. فعينه على بيروت حيث قوّى أمره فيها، وأخذ يبتاع المماليـك حتى صار له قوة منهم، فخرج على الأمير وحاول أن يستقل عنه. وقد أدى أحمد الجزار خدمات عسكرية جليلة للدولة العثمانية عندما أعلن الشيخ ظاهر

العمر عصيانه عليها. وبعد سقوط ظاهر، أعطاه العثمانيون – بالإضافة إلى باشوية صيدا – مدينة عكا فاتخذها مقراً له. وأخذ أحمد الجزار يعمل على تحويل نظام الولايات العثمانية المتدهور إلى سيطرة شخصية، فقضى على بقية الزيدانيين وقتل على بن ظاهر العمر وفرض ضرائب على المناطق التى حكمتها هذه الأسرة. كما قام بتقوية حصون عكا وجمع لذلك رجال القرى المجاورة؛ وأنشأ جيشاً من مماليك البوسنة والأرناؤوط والمغاربة والبدو(١٢٦). ولقد بلغ الجزار الذروة فى القوة عام ١٢١٤هـ / ١٧٩٩م عندما أوقف زحف جنود بونابرت الذى كان قد بدأ به مصر فى السنة التى قبلها. ولقد دافع الجزار عن عكا بمساعدة الأسطول البريطانى الذى كان بقيادة سدنى سميث. وإضطر الجيش الفرنسى الذى فقد كثيراً من الأرواح بسبب الطاعون وقلة المؤن إلى التراجع. فكانت عكا التى كان يعتبرها نابليون مفتاح الآستانة والهند عثرة فى سبيل الفوز بفتح العالم وترك الفرنسيون بعض جرحاهم فى يافا وغزة وأخذوا فى مقابل رهائن من الأهالى ورحل نابليون فى ١٠ محرم ١٢١٤هـ / ١٤ يونيو ١٧٩٩م.

وكان يظن بعد رحيل نابليون ومعاونة الإنجليز للدولة العثمانية على إخراجه من الشام، أن الدولة تبدل شيئاً من أصول إدارتها وترجع عن إستسلامها لعمالها الذين يجبون الجبايات ويرضونها بجزء منها ويحتفظون بالباقى لأنفسهم ولكن الأحوال بقيت بحالها، واستعانت الدولة العثمانية الاستعانة بالجزار وقامت بتعيينه والياً على مصر إضافة إلى حكمه على دمشق وطرابلس وصيدا. وأرسل الجزار بالمراسيم إلى أنحاء متعددة لنشر هذه البشارة بتعيينه على الإقليم المصرى وعلى الرغم من أن هذا التعيين، الذى جاء أشهراً قليلة فقط قبل وفاته، لم ينفذ، فإنه يدل على المكانة العالية التى وصل إليها الجزار فى سنواته الأخيرة. وكان حاكم عكا فى تلك الأثناء شيخاً هرماً، فعين أحد كبار مماليكه، سليمان باشا لقيادة قافلة الحج الشامية

١٢١٨هـ / ١٨٠٣، ١٨٠٤م. ولم يعمر الجزار حتى يسمع من مملوكه أخبار الوهابيين الذين توغلوا من نجد إلى المدن المقدسة فى الحجاز فتوفى فى آخر محرم ١٢١٩هـ / مايو ١٨٠٤م وترك رحيل حاكم عكا فراغاً سياسياً لأنه لم يوص بمن يخلفه فى الحكم. لذا نشب صراع بشأن السلطة والحكم إستمر عدة أشهر حتى رجع سليمان باشا من الحج ونجح مع قواته فى التغلب على منافسيه وعُين رسمياً خليفة للجزار على ولاية صيدا[١٢٧].

رابعاً- تدهور أحوال العثمانيين فى اليمن

يعد مدخل البحر الأحمر من المناطق الإستراتيجية المهمة، والتى أولتها الدولة العثمانية عناية خاصة لدرء الخطر البرتغالى، لذا بذلت كل ما فى وسعها لتأمينه لدرء الأخطار الخارجية، فكان لزاماً عليها أن تخضع اليمن لسيطرتها.

وكانت مهمة إخضاع اليمن للسيادة العثمانية مهمة شاقة، فقد كلفها ذلك الكثير من مال وعتاد بداية من عام (٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م) حتى عام (٩٧٧هـ/ ١٥٦٩م)؛ ففى عهد سليم الثانى (٩٧٤ - ٩٨٢هـ/ ١٥٦٦ - ١٥٧٤م) عُقد الصلح مع الإمام المطهر أحد أئمة الزيدية، فاعترف بالسيادة العثمانية على أن تكون الخطبة والسكة باسم السلطان العثمانى، نظير أن يحتفظ بالمنطقة التى يحكمها، والتى تشتمل على ثلاء، والظواهر، وصعده، وبعض المناطق الأخرى المجاورة، وبذلك استعاد سليم الثانى السيطرة على اليمن، ويرجع الفضل فى ذلك، إلى مساعدة والى مصر سنان باشا، فقد قاد حملة عسكرية فى (٩٧٧هـ/ ١٥٦٩م) من أجل ذلك[١٢٨].

وظلت الأوضاع مستقرة فى اليمن حتى بداية القرن السابع عشر، فقد قامت بعض الحركات الثورية من قبل الإمامة لخلع السيادة العثمانية عن اليمن، وكان لولاية مصر موقف إزاء ذلك بناء على أوامر من الدولة العثمانية.

فقد قامت ثورة الإمام قاسم بن محمد (١٠٠٦ - ١٠٣٠هـ/ ١٥٩٧ - ١٦٢٠م) ضد الحكم العثمانى فى اليمن، واصفاً العثمانيين بأنهم أعداء الله ظلموا العباد، وأظهروا فى الأرض الفساد، وكان ذلك فى عهد الوالى حسن باشا (٩٨٨ - ١٠١٣هـ/ ١٥٨٠ - ١٦٠٥م) تمكن الإمام قاسم من فرض سيطرته على أغلب الأقاليم الشمالية بين صنعاء وصعده، وحاول حسن باشا أن يقضى على هذه الحركة فى بدايتها،ولكنه فشل؛ فسارع فى طلب الإمدادات من استانبول ومصر[١٢٩]، ففى عام (١٠١٧ هـ/ ١٦٠٩م) أرسلت مصر فرقة عسكرية من مختلف الأوجاقات[١٣٠] لليمن للمساهمة فى القضاء على هذا التمرد، وتكلفت هذه الحملة ١٤،٤٨٠قرشاً[١٣١] فقد اقترض صالح بك أمير الحج المصرى، لموكله والى اليمن، هذا المبلغ من بعض الأفراد على سبيل الأمانة لتمويل هذه الحملة،وعلى الرغم من ذلك قاوم الإمام هجمات العثمانيين قرابة ثمانية عشر عاماً، خسر العثمانيون خلالها كثيراً من الأرواح والعتاد، وفى النهاية اضطر الوالى محمد باشا (١٠٢٥ - ١٠٣١هـ/ ١٦١٦ - ١٦٢١م) إلى عقد الصلح، وتم ذلك فى عام (١٠٢٩هـ/ ١٦١٩م) على أن يكون للإمام ما تحت يده من أقاليم الشمال[١٣٢].

بعد ذلك سادت اليمن حالة من الهدوء إلى أن تولى حيدر باشا (١٠٣٤ - ١٠٣٩هـ/ ١٦٢٤ - ١٦٢٩م) فأتبع سياسة أدت إلى تدهور موقف العثمانيين؛ ففى عام (١٠٣٦هـ/ ١٦٢٦م) قتل أحد الفقهاء من كبار أتباع المؤيد بن القاسم (١٠٣٠ - ١٠٥٥هـ/ ١٦٢٠ - ١٦٤٥م) أثناء زيارته لصنعاء متهماً إياه أنه كان يدعو الأهالى لمبايعة الإمام؛ فهاجمت قوات الأخير مراكز العثمانيين المهمة فى المناطق الشمالية، وحاصرت قوات الإمام صنعاء مدة عامين حتى فر منها إلى زبيد فى عام (١٠٣٩هـ/ ١٦٢٩م) (١٣٣). وعن ذلك يقول أحمد الرشيدى "**وخرج عن الطاعة - المؤيد - وأظهر غاية المحاربة والشرور، وحاصر حيدر باشا الذى كان من جانب السلطان ابن عثمان، ثم أخرجه منها، واستقل باليمن وخطب له بالإعلان، وأظهر المخالفة والعصيان، وبالغ فى الخروج، وزاد فى الطغيان، ثم أفحش فى مخالفة مولانا السلطان مراد، وتعرض لأهالى اليمن القاضى منهم والدانى، وانتزع جميع بلاد اليمن من عساكر السلطان، وأعطى بعض الخوارج من عنده الأمان، وادعى لنفسه الملك والسلطنة، ونصب الحروب بعساكر فى جميع الأمكنة**(١٣٤).

وإزاء تدهور الوضع العثمانى فى اليمن استجاب السلطان مراد الرابع، لاقتراح محمد باشا والى مصر (١٠٣٨ - ١٠٤٠هـ/ ١٦٢٨ - ١٦٣٠م) بتعيين أحمد قانصوه بك والياً على اليمن برتبة باشا، وبذل جهوداً كبيرة من أجل إعادة سيطرة العثمانيين على اليمن من (١٠٣٩ - ١٠٤٥هـ/ ١٦٢٩ - ١٦٣٥م)، ولكنه لم يتمكن من ذلك نظراً لسوء أحوال العثمانيين هناك، فاضطر فى صفر (١٠٤٥هـ/ يوليو ١٦٣٥م،

إلى عقد الهدنة مع الإمام المؤيد، وبعد شهر من عقد الهدنة سلم نفسه إلى أحد القواد اليمنيين، وفر إلى مصر[١٣٥].

ولكن تصرف قانصوه باشا أغضب السلطان العثماني، فعلى الفور أرسل أمراً إلى والى مصر حسين باشا (١٠٤٥ - ١٠٤٧هـ/ ١٦٣٥ - ١٦٣٧م) بضرورة إحضاره إلى استانبول لمجازاته على هروبه من اليمن إلى مصر سراً، دون علم السلطان، وعلى الفور كلف الباشا درويش بك أمير اللوا الشريف السلطانى بالديار الرومية (استانبول) والأمير مصطفى قابيجى باشي، بهذه المهمة، وتمكنا من إرسال قانصوه باشا إلى استانبول[١٣٦]، وعلى أثر فرار قانصوه باشا قررت الدولة العثمانية إنهاء وجودها فى اليمن، وإجلاء قواتها؛ فصارت اليمن أول ولاية عربية تنفصل عن الدولة العثمانية

حواشى الفصل الرابع

(١) أحمد شلبى:المصدر السابق،، ص٢٨٣- ٢٨٤.

(٢) عبدالرحمن الجبرتى: عجائب الآثار فى التراجم والأخبـار، جــ١، بولاق، ١٢٩٧هـ/ ١٨٧٩- ١٨٨٠م، ص٣١- ٣٣).

(٣) أحمد جودت: تاريخ جودت، المجلد الأول، ترجمة عبـدالقادر الـدنا، بيروت، ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م، ص٣٣٩- ٣٤١.

((٤) أحمد شلبى:المصدر السابق،، ص٢٨٣- ٢٨٤.

(٤) عبدالرحمن الجبرتى: عجائب الآثار فى التراجم والأخبـار، جــ١، بولاق، ١٢٩٧هـ/ ١٨٧٩- ١٨٨٠م، ص٣١- ٣٣).

(٤) أحمد جودت: تاريخ جودت، المجلد الأول، ترجمة عبـدالقادر الـدنا، بيروت، ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م، ص٣٣٩- ٣٤١.

٤) عبدالكريم رافق: المرجع السابق، ص٢٦٥- ٢٦٦.

(٥) أحمد الدمرداشى كتخدا عزبان: كتاب الدرة المصانة فى أخبار الكنانـة فى أخبار ما وقع بمصر فى دولة المماليك من الصناجق والكشاف والسـبعة أوجاقات والدولة وعوايدهم والباشا إلى أخر سنة ثمان وستين ومائة وألـف، تحقيق عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم، المعهد العلمى الفرنسـى للآثـار الشرقية، القاهرة، ١٩٨٩، ص٢- ٤.

(٦) مصطفى بن الحاج إبراهيم تابع الأمير حسن كتخدا عزبان الدمرداشى، تاريخ وقائع مصر القاهرة المحروسة كنانة الله فى أرضه، تحقيق، صـلاح أحمد هريدى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٩، ص٦٧- ٦٨.

(٧) عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم: مقيمة تحقيق الدرة المصـانة، ص ق.

(٨) عبدالرحمن الجبرتى: المصدر السابق، جـ١، ص٣٣.

(٩) أحمد شلبى:المصدر السابق،، ص٢٨٣- ٢٨٤.

---

(٩) عبدالرحمن الجبرتى: عجائب الآثار فى التراجم والأخبـــار، جـــــ١، بولاق، ١٢٩٧هـــ/ ١٨٧٩- ١٨٨٠م، ص٣١- ٣٣).

(٩) أحمد جودت: تاريخ جودت، المجلد الأول، ترجمة عبـــدالقادر الـــدنا، بيروت، ١٣١٨هـــ/ ١٩٠٠م، ص٣٣٩- ٣٤١.

((٩) أحمد شلبى:المصدر السابق،، ص٢٨٣- ٢٨٤.

(٩) عبدالرحمن الجبرتى: عجائب الآثار فى التراجم والأخبـــار، جـــــ١، بولاق، ١٢٩٧هـــ/ ١٨٧٩- ١٨٨٠م، ص٣١- ٣٣).

عبدالكريم رافق: المرجع السابق، ص٢٦٥- ٢٦٦.

(١٠) نشأت من الفقارية بيوت بلفية، والصابونجى، والخشاب، والقطامشة، والدمايطة، والجلفية، والقازدغلية، والإبراهيميـــة، والعلويـــة، والمحمديـــة، وغيرهم، ومن القاسمية بيتا الإيواظية، وأبو شنب (انظـــر: محمـــد رفعـــت رمضان، على بك الكبير، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٥٠، ص١٦؛ عمر عبدالعزيز عمر، تاريخ المشرق، ص١٤١) وكان هناك بيوت مملوكية أخرى ولكنها لا تنسب إلى أحد الأمراء أو إلى هاتين الطائفتين، وإنما تنسب إلـــى أحد السراة أو الأعيان المصريين كبيت الشرابيى، وجماعة الفلاح.

(١١) عراقى يوسف محمد: الوجود العثمانى المملوكى فى مصر فى القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشـــر، دار المعـــارف، القـــاهرة ١٩٨٥، ص٤٦.

(١٢) **Holt. P. M., The Exalted Lineage of Ridwan Bey Some Observations on a Seventeenth Century Mamluk Genealog (BSOAS) XXIV, p.2, London, 1969, p.229.**

(١٣) محمد بن أبى السرور البكرى: الكواكب السائرة، ورقة ٧١أ.

(١٤) عبدالكريم رافق: المرجع السابق، ص٢٦٩.

---

(١٥) سميرة فهمى على عمر:إمارة الحج فـــى مصـــر العثمانيـــة ٩٢٣-١٢١٣/١٥١٧-١٧٩٨، رسالة ماجستير غير منشورة،آداب الاسكندرية،قسم التاريخ،١٩٨٣، ص٧٣.

(١٦) محمد بن أبى السرور البكرى: الكواكب السائرة، ورقة ٧١أ.

(١٧) محمد بن أبى السرور البكرى: الكواكب السائرة، ورقة ٧١ب، ٧٢أ؛ عراقى يوسف محمد:المرجع السابق،ص٩٢

(١٨) أحمد شلبى: المصدر السابق، ص١٤٧- ١٤٨؛

Holt. P. M., Egypt., p.81.

(١٩) محمد بن أبى السرور البكرى: الكواكب السائرة، ورقة ٧٢ أ- ب؛

Holt. P. M., The Exalted Lineage, p.225.

(٢٠) محمد بن أبى السرور البكرى: الكواكب السائرة، ورقة ٨٤ب، ٨٥أ؛ يوسف الملوانى: المصدر السابق، ص١٩٢- ١٩٣؛ أحمد شلبى: المصـــدر السابق، ص١٥٢.

(٢١) محمد بن أبى السرور البكرى: الكواكب السائرة، ورقة ٨٥أ.

(٢٢) عبدالكريم رافق: المرجع السابق، ص٢٧٢.

(٢٣) محمد بن أبى السرور البكرى: الكواكب السائرة، ورقة ٨٥ب، ٨٦أ.

(٢٤) عبدالكريم رافق: المرجع السابق، ص٢٧٢.

(٢٥) محمد بن أبى السرور البكرى: الكواكب السائرة، ورقة ٨٧ ب.

(٢٦) عراقى يوسف محمد: المرجع السابق، ص٩٤.

(٢٧) محمد بن أبى السرور البكرى: الكواكب السائرة، ورقة ٩٠ب ٩١أ؛

Holt. P. M., Egypt. p.81.

(٢٨) Holt. P. M., the Exalted Lineage, p.226

---

(٢٩) Holt. P. M., the Beylicate in Ottoman Egypt during the Seventeenth Century (BSOAS). XXIV, p.2. London, 1961, p.230, Idem, Egypt, p.82.

(٣٠) أحمد شلبى، المصدر السابق، ص١٥٥- ١٥٦.

(٣١) إبراهيم بن أبى بكر الصوالحى العوفى الحنبلى: تراجم الصواعق فى واقعة الصناجق، تحقيق، عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم، المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٨٦، ص٩٤؛ صلاح هريدى: دور الصعيد، ص١٩٨.

(٣٢) عراقى يوسف محمد: المرجع السابق، ص٩٥- ٩٦.

(٣٣) إبراهيم الصوالحى العوفى: المصدر السابق، ص٩٩ وما بعدها.

(٣٤) نفسه، ص١٠٢ وما بعدها.

(٣٥) عراقى يوسف محمد: المرجع السابق، ص٩٦.

(٣٦) إبراهيم الصوالحى العوفى: المصدر السابق، ص٤٣- ٤٤؛ صلاح أحمد هريدى: دور الصعيد فى مصر العثمانية ٩٢٣-١٢١٣/١٥١٧-١٧٩٨،دار المعارف الاسكندرية،١٩٨٤، ص١٩٩.

(٣٧) إبراهيم الصوالحى العوفى: المصدر السابق، ص٤٥ وما بعدها؛ أحمد شلبى: المصدر السابق، ص١٥٨- ١٥٩.

(٣٨) إبراهيم الصوالحى العوفى: المصدر السابق، ص٥٢، وما بعدها.

(٣٩) نفسه: ص٦١- ٦٢؛ عمر عبدالعزيز عمر، تاريخ المشرق، ص١٤٠.

(٤٠) أحمد شلبى: المصدر السابق، ص١٦٠؛ صلاح أحمد هريدى: دور الصعيد، ص٢٠٠؛

Holt. P. M., The Beylicate, pp.218- 219.

(٤١) عبدالكريم رافق: المرجع السابق، ص٢٧٩.

---

(٤٢) عراقى يوسف محمد: المرجع السابق، ص٩٩- ١٠٠.

(٤٣) عمر عبدالعزيز عمر: تاريخ المشرق، ص١٤١.

(٤٤) عبدالجواد صابر إسماعيل: المرجع السابق، ص١١٦.

(٤٥) أحمد شلبى: المصدر السابق، ص١٦٢- ١٦٣.

(٤٦) عمر عبدالعزيز عمر: تاريخ المشرق، ص١٤١.

(٤٧) عبدالرحمن الجبرتى: المصدر السابق، جـ١، ص١٢٤.

Holt. P. M., the Career of Kucuk Mohammed (1676- 94) (BSOAS) XXVI, p.2, London, 1963, pp.278- 280.

(٤٨) أحمد شلبى: المصدر السابق، ص١٧٧ وما بعدها، عبدالكريم رافق: المرجع السابق، ص٢٨٥.

(٤٩) **Holt. P. M., the Career, p.280.**

(٥٠) أحمد كتخدا عزبان، المصدر السابق، ص٧.

(٥١) أحمد شلبى: المصدر السابق، ص١٨٧- ١٨٨؛ عبدالرحمن الجبرتى: المصدر السابق، جـ١، ص٣٥- ١٢٠- ١٢٤؛

Holt. P. M., the Career, p.284.

(٥٢) أحمد كتخدا عزبان: المصدر السابق، ص١٤- ١٧

(٥٣) مصطفى بن الحاج إبراهيم: المصدر السابق، ص٨٦- ٨٧.

(٥٤) أحمد كتخدا عزبان، المصدر السابق، ص٢٤ وما بعدها.

(٥٥) نفسه: ص٧٩.

(٥٦) مصطفى بن الحاج إبراهيم، المصدر السابق، ص١٥٧- ١٥٨.

(٥٧) أحمد شلبى: المصدر السابق، ص٢١٨- ٢١٩؛ أحمد كتخدا عزبان: المصدر السابق، ص٧٧- ٧٨؛ عبدالرحمن الجبرتى: المصدر السابق، جـ١، ص٤٧- ٤٨.

(٥٨) أحمد شلبى: المصدر السابق، ص٢٢٢.

---

(٥٩) نفسه، ص٢٢٥.

(٦٠) نفسه: عبدالرحمن الجبرتى: المصدر السابق، جـ١، ص٥١.

(٦١) نفسه: عبدالكريم رافق، المرجع السابق، ص٢٩١.

(٦٢) أحمد شلبى: المصدر السابق، ص٢٣٠- ٢٣١؛ أحمد كتخدا عزبان: المصدر السابق، ص٨٠

(٦٣) مصطفى بن الحاج إبراهيم: المصدر السابق، ص١٨٧- ١٨٨؛ عبدالرحمن الجبرتى: المصدر السابق، جـ١، ص٥٣- ٥٠.

(٦٤) نفسه: أندرية ريمون: فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية، ترجمة زهير الشايب، روز اليوسف، القاهرة، ١٩٧٤، ص٢٣٦- ٢٣٧.

(٦٥) أحمد شلبى: المصدر السابق، ص٢٣٥ وما بعدها؛ مصطفى بن الحاج إبراهيم: المصدر السابق، ص١٩٢ وما بعدها.

(٦٦) أحمد شلبى: المصدر السابق، ص٢٣٧؛ سميرة فهمى عمر: دور عربان الوجه البحرى فى تاريخ مصر العثمانية (٩٢٣- ١٢١٣هـ/ ١٥١٧- ١٧٩٨م) رسالة دكتوراه غير منشورة، آداب إسكندرية، قسم التاريخ، ١٩٩٢، ص٨٨- ٨٩).

(٦٧) أحمد شلبى: المصدر السابق، ص٢٣٩؛ صلاح هريدى: دور الصعيد، ص٢١١.

(٦٨) نفسه، ص٢٤١.

(٦٩) أحمد كتخدا عزبان: المصدر السابق، ص٩٠- ٩١؛

Holt. P. M., Egypt. p.89; Idem, The Pattern of Egyptian Political History from (1517- 1798) in Political and Social Change in Modern Egypt, London, 1968, p.86.

(٧٠) عمر عبدالعزيز عمر: تاريخ المشرق، ص١٤٣.

(٧١) عراقى يوسف محمد: المرجع-السابق، ص١١٢.

---

(٧٢) أحمد كتخدا عزبان: المصدر السابق، ص١٠٠؛ مصطفى بن الحـاج إبراهيم: المصدر السابق، ص٢٢٥؛ أندريـه ريمـون: المرجـع السـابق، ص٢٥٢، ٢٥٣.

(٧٣) أحمد شلبى: المصدر السابق، ص٢٥٠.

(٧٤) مصطفى بن الحاج إبـراهيم: المصـدر السـابق، ص٢٣٦- ٢٣٧؛ سميرة فهمى عمر: إمارة الحج، ص٨٧.

(٧٥) أحمد شلبى: المصـدر السـابق، ص٢٦٤؛ عبـدالرحمن الجبرتـى: المصدر السابق، جـ١، ص٧٠.

(٧٦) سميرة فهمى عمر: إمارة الحج، ص٨٨.

(٧٧) أحمد كتخدا عزبان: المصدر السابق، ص١١٥- ١١٦؛ مصطفى بن الحاج إبراهيم: المصدر السابق، ص٢٥٧ وما بعدها.

(٧٨) أحمد كتخدا عزبان: المصدر السابق، ص١١٧.

(٧٩) أحمد شلبى: المصدر السابق، ص٢٥٧ وما بعدها.

(٨٠) عراقى يوسف محمد: المرجع السابق، ص١١٦.

(٨١) **Deherain. Henri. op.cit., p.101**

(٨٢) أحمد شلبى: المصدر السابق، ص٣٠١، ٣٠٢؛ أحمد كتخدا عزبـان: المصدر السابق، ص١٣١.

(٨٣) أحمد شلبى: المصدر السابق، ص٣٣٨؛ سميرة فهمـى عمـر: دور عربان، ص٩٧.

(٨٤) أحمد شلبى: المصدر السابق، ص٣٤٣.

(٨٥) عراقى يوسف محمد: المرجع السابق، ص١٢٣.

(٨٦) أحمد شلبى: المصـدر السـابق، ص٣٧٠؛ عبـدالرحمن الجبرتـى: المصدر السابق، جـ١، ص١٧٦.

---

(٨٧) أحمد كتخدا عزبان: المصدر السابق، ص١٤٣؛ مصطفى بن الحاج إبراهيم: المصدر السابق، ص٣١٣- ٣١٤.

(٨٨) مصطفى بن الحاج إبراهيم: المصدر السابق، ص٣١٤.

(٨٩) نفسه: المصدر السابق، ص٣١٧.

(٩٠) أحمد شلبي: المصدر السابق، ص٣٩٠.

(٩١) عبدالرحمن الجبرتي: المصدر السابق، جـ١، ص١٧٢؛ عراقي يوسف محمد: المرجع السابق،ص١٢٥

(٩٢) أحمد كتخدا عزبان: المصدر السابق، ص١٤٥، عبدالرحمن الجبرتي: المصدر السابق، جـ١، ص٧٥- ١٦٨- ١٦٩.

(٩٣) أحمد شلبي: المصدر السابق، ص٤٧٧.

(٩٤) أحمد كتخدا عزبان: المصدر السابق، ص١٦٩ وما بعدها، عبدالرحمن الجبرتي، المصدر السابق، جـ١، ص١٧١.

(٩٥) أحمد شلبي: المصدر السابق، ص٥٣٤.

(٩٦) أحمد كتخدا عزبان: المصدر السابق، ص٢٠٣.

(٩٧) عبدالرحمن الجبرتي: المصدر السابق، جـ١، ص٢٣٧- ٢٣٨؛ صلاح هريدي، دور الصعيد، ص٢٢٠- ٢٢١.

(٩٨) أحمد كتخدا عزبان: المصدر السابق، ص٢٣٠؛ عبدالرحمن الجبرتي: المصدر السابق، جـ١، ص٢٣٧.

(٩٩) عبدالرحمن الجبرتي: المصدر السابق، جـ١، ص٢٥٠- ٢٥١؛ عراقي يوسف محمد: المرجع السابق، ص١٣٩؛ عمر عبدالعزيز عمر: تاريخ المشرق، ص١٤٤.

(١٠٠) عبدالرحمن الجبرتي: المصدر السابق، ص٢٦٣- ٢٦٤.

(١٠٠) **Holt. P. M., Egypt, p92.**

(١٠١) عبدالرحمن الجبرتى: المصدر السابق، جـــ١، ص٢٦٩- ٢٧٠؛ محمد رفعت رمضان، المرجع السابق، ص٢١- ٢٢؛ جلال يحيى: المرجع السابق، ص٢٣٩.

(١٠٢) عبدالرحمن الجبرتى: المصـــدر الســابق، ص٣٩٧- ٤٣٧؛ ليلــى عبداللطيف أحمد: الصعيد فى عهد شيخ العرب همام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،١٩٨٧، ص١٤٢ وما بعدها؛ صلاح هريدى: دور الصعيد، ص٢٢٦؛

Holt. P. M., The Pattern, p.88.

(١٠٣) عبدالرحمن الجبرتى: المصدر السابق،جـ١، ص٤٧٩ وما بعـدها؛ سيد رجب حراز: المدخل إلى تاريخ مصر الحديث والمعاصر مــن الفــتح العثمانى إلى الاحتلال البريطانى (١٥١٧- ١٨٨٢) دار النهضة المصــرية، القاهرة ١٩٧٠، ص٢٧- ٢٨.

(١٠٤) عبدالرحمن فهمى: المرجع السابق، ص٥٦٠.

(١٠٥) عبدالرحمن الجبرتى: المصدر السابق، جـ٢، ص٢٧.

(١٠٦) عبدالكريم رافق: المرجع السابق، ص٤١٣.

(١٠٧) جلال يحيى: المرجع السابق، ص٢٨٩- ٢٩٠؛ صـــلاح هريــدى: دور الصعيد، ص٢٣٩.

(١٠٨) عبدالرحمن الجبرتى: المصدر السابق، جـ٢، ص١٩١؛ عبدالكريم رافق: المرجع السابق، ص٤١٦.

(١٠٩) عبدالرحمن الجبرتى: المصدر السابق، جـــ٢، ص١٩٣- ١٩٤؛ عراقى يوسف محمد: المرجع السابق، ص١٥٠.

(١١٠) عبدالرحمن الجبرتى: المصدر السابق، جـ٢، ص١٩٥ وما بعدها.

---

(١١١) نفسه:، جـ٢، ص٢٠١- ٢٠٢؛ جلال يحيى: المرجـع السـابق، ص٢٩٢- ٢٩٣؛

Holt. P. M., Egypt. p.110.

(١١٢) عبدالرحمن الجبرتي: المصدر السابق، جـ٢، ص٢١٤.

(١١٣) جلال يحيى: المرجع السابق، ص٢٩٥.

(١١٤) عبدالرحمن الجبرتي: المصدر السابق، جـــ٢، ص٢٢٧- ٢٣٥- ٢٥٤- ٢٥٤؛ صلاح هريدى: دور الصعيد، ص٢٤١.

(١١٥) عبدالرحمن الجبرتي: المصدر السابق، جـــ٢، ص٢٥٥- ٢٥٦؛ جلال يحيى: المرجـع السـابق، ص٣٠١- ٣٠٢؛ صـلاح هريـدى: دور الصعيد، ص٢٤٣.

(١١٦) عبدالرحمن الجبرتي: المصدر السابق، جـــ٢، ص٢٨١- ٢٨٥؛ ص٥٨؛ حسن عثمان: المرجع السابق، ص٢٨٤.

(١١٧) عبدالرحمن الجبرتي: المصدر السابق، جـ٢، ص٢٨٧.

(١١٨) عبد الكريم رافق : بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني حتى حملـة نابليون بونابرت (١٥١٦ – ١٧٩٨) دمشق، ١٩٦٧، ص ٣١٥ – ٣١٧ .

(١١٩) نفسه : ص ٣١٨، ٣١٩ .

(١٢٠) عمر عبد العزيز عمر : تاريخ المشرق، ص ١٦٠ .

(١٢١) نفسه : ص١٦١ .

(١٢٢) نفسه : ص ١٦١، ١٦٢ .

(١٢٣) نفسه : ص ١٧٦، ١٧٧ .

(١٢٤) صلاح أحمد هريدى : المرجع السابق، صـ٣٧٣.

(١٢٥) نفسه : صـ٣٧٤، ٣٧٥.

(١٢٦) عمر عبد العزيز عمر : تاريخ المشرق، صـ١٨١، ١٨٢.

---

(١٢٧) صلاح أحمد هريدى : دراسات في تاريخ العرب، ص٣٧٦ - ١٧٨.

(١٢٨) يوسف الملوانى: المصدر السابق، ص١٤٤؛ عمر عبدالعزيز عمر: تاريخ المشرق، ص١٠٤، ١٠٥؛ عبدالجواد صابر إسماعيل:المرجع السابق، ص١٤٠ - ١٤٥.

(١٢٩) عمر عبدالعزيز عمر: تاريخ المشرق، ص٢٠٢؛ صلاح أحمد هريدى: المرجع السابق، ص٣٧٠.

(١٣٠) أوجاق أو وجاق: معناه الأول فى التركية الموقد والمدخنة، ثم أطلق على كل ما تنفخ فيه نار فأطلق على البيت من وبر أومدر ثم أطلق على أهله، ثم على الجماعة تتلاقى فى مكان واحد، ثم أطلق على الطائفة من طوائف أرباب الحرف، وعلى الصنف من أصناف الجند (انظر: أحمد السعيد سليمان، المرجع السابق، ص١٩٤).

(١٣١) قرش: فى الأصل تعريب (**Groshen**) الألمانية، وهى تعنى البياستر (**Piastre**) أى النقد الأسبانى الفضة، الذى بدأ ضربه وتداوله فى مطلع القرن السادس عشر، ثم استقر فى التعامل التجارى مع بلدان الشرق العربى، فأطلق عليه اسم (غرش) و (قرش) أو (أرش) كما يسميه العامة فى مصر، وقد ضرب هذا النقد فى تركيا لأول مرة فى عهد سليمان الثانى (١٠٩٩ - ١١٠٢هـ/ ١٦٨٧ - ١٦٩٠م)، وفى مصر ضربت القروش فى عهد على بك الكبير لأول مرة سنة (١١٨٣هـ/ ١٧٦٩م)، ولكن محمد بك أبو الذهب أبطلها سنة (١١٨٦هـ/ ١٧٧٢م)، ثم أعاد الفرنسيون أثناء احتلالهم لمصر ضرب القروش،واستمر القرش يضرب فى مصر بقيمة تقدر بأربعين نصف فضة، أو أربعين بارة، وأطلق عليه أحياناً اسم القرش الرومى، أو القرش التركى، وكانت لهذا القرش أجزاء منها نصف القرش،

وهى قطعة قيمتها عشرون نصف أو بارة، وفى عام (١٣٣٥هـ/ ١٩١٦م) حدد قيمة القرش المصرى بعشرة مليمات وأصبح المليم هو أصغر وحدات النقود فى مصر (انظر: عبدالرحمن فهمى، المرجع السابق، ص٥٧٤، ٥٧٥).

(١٣٢) صلاح أحمد هريدى: المرجع السابق، ص٣٧٠.

(١٣٣) عمر عبدالعزيز عمر: تاريخ المشرق، ص٢٠٢، ٢٠٣.

(١٣٤) أحمد الرشيدى: حسن الصفا والابتهاج بذكر من ولى امارة الحاج،تحقيق ليلى عبد اللطيف أحمد،القاهرة،١٩٨٠،ص١٧٥، ١٧٦.

(١٣٥) أحمد شلبى: المصدر السابق، ص١٤١؛ عمر عبدالعزيز عمر: تاريخ المشرق، ص٢٠٣.

(١٣٦) حكمة رشيد: س٥٤، ص٣٢١، م٦٦٤ بتاريخ ١٥صفر ١٠٤٦هـ/ ١٩ يوليو ١٦٣٦.

الفصل الخامس
المشرق العربى في مطلع القرن التاسع عشر

أولاً : الحملـة الفرنسـية علـى مصـر(١٧٩٨-١٨٠١)

ثانيًا : الدعوة الوهابية
ثالثا: الحملة الإنجليزية على مصر

الفصل الخامس

المشرق العربى في مطلع القرن التاسع عشر

أولاً- الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨-١٨٠١)

فى الوقت الذى تهيأ فيه المصريون للخلاص من الحكم العثمانى قدمت الحملة الفرنسية إلى مصر والتى كانت إحدى أدوار التنازع الذى قام بين فرنسا وإنجلترا على الفتح والاستعمار، ذلك التنازع الذى يرجع عهده إلى القرن السابع عشر، واستمر خلال القرن الثامن عشر ثم اتخذ طورًا جديدًا بعد الانقلاب العظيم المعروف بالثورة الفرنسية والتى كانت من نتائجها سقوط الملكية، وإعلان الجمهورية سنة ١٧٩٢م.

كان لحملة نابليون بونابرت[1] على مصر (وفلسطين فيما بعد) عدة أسباب منها ما يتعلق بفرنسا (أسباب داخلية)، ومنها ما يتعلق بالوضع الدولى والمصالح التجارية، والسيادة على المناطق الغنية والإستراتيجية (أسباب خارجية) فجاءت كالآتى.

أولاً- أطماع فرنسا الاستعمارية بغرض سيادتها، وسيطرتها على الطرق التجارية القصيرة بين البحر المتوسط، والهند والتى تمر بالشرق الأوسط.

ثانيًا- الانتقام من بريطانيا العدو الرئيسى لفرنسا فى تلك الفترة، والتى أعلنت الحرب على فرنسا، واستمرار التنافس الاستعمار القديم بينهما، وحينما فشلت محاولات فرنسا بمهاجمة بريطانيا واحتلالها، فالشرق الأدنى ومصر كان ميدانًا آخر للإلحاق الضرر بإنجلترا العظمى.

ثالثًا- كانت مصر من أغنى ولايات الدولة العثمانية اقتصاديًا بسبب خصوبة أراضيها، وإمكانية استغلالها لإنتاج المحاصيل الزراعية في المستقبل.

رابعًا- ضعف الإمبراطورية العثمانية وسقوط هيبتها كدولة عظمى.

خامسًا- البحث عن فتح أسواق جديدة لتصريف البضائع الفرنسية.

سادسًا- كان اضطهاد التجار الفرنسيين من قبل حكام مصر، المماليك الموالين لإنجلترا دفع بالحكومة الفرنسية للعمل على توفير الحماية لرعاياها، والإعلان المباشر لفرنسا عن إرسال حملتها إلى مصر لتوفير الحماية للتجار الفرنسيين من ظلم واعتداء المماليك عليهم، لا بهدف الاعتداء على أملاك السلطان العثماني.

سابعًا- كره رجال الحكومة الفرنسية لنابليون الذى تميز بالحنكة والتكتيك العسكرى فسعوا للتخلص من وجوده فى فرنسا، وإبعاده إلى منطقة بعيدة عن مركز السلطة على أمل ألا يعود مطلقًا إلى فرنسا.

ثامنًا- الطموح والأطماع الشخصية لنابليون بونابرت بإقامة إمبراطورية فرنسية عظمى تكون صاحبة السيادة فى الشرق والغرب بدون منازع[٢].

وقبل قيام الحملة الفرنسية على مصر قدم شارل مجالون القنصل الفرنسى فى مصر تقريره إلى حكومته فى ٩ فبراير ١٧٩٨م يحرضها على ضرورة احتلال مصر، ويبين أهمية استيلاء بلاده على منتجات مصر وتجارتها، ويعدد لها المزايا التى ينتظر أن تجنيها فرنسا من وراء ذلك.

وبعد أيام قليلة من تقديم تقرير مجالون تلقت حكومة فرنسا تقريـرًا آخر من – تاليران – وزير الخارجية، ويحتل هذا التقرير مكانة كبيرة فـى تاريخ الحملة الفرنسية على مصر حيث عرض فيه للعلاقات التى قامت من قديم الزمن بين فرنسا ومصر، وبسط الآراء التى تنادى بمزايـا الاسـتيلاء على مصر، وقدم الحجج التى تبين أن الفرصة، وقد أصبحت سانحة لإرسال حملة على مصر وفتحها، كما تناول وسائل تنفيذ مشروع الغزو من حيـث إعداد الرجال، وتجهيز السفن اللازمة لهم، وخطة الغزو العسكرية، ودعـا إلى مراعاة تقاليد أهل مصر، وعاداتهم، وشعائرهم الدينية، وإلى اسـتمالة المصريين، وكسب مودتهم لاسيما العلماء لمكانتهم الكبيـرة فـى المجتمـع المصرى.

فكان من أثر التقريرين أن نال موضوع غزو مصر اهتمام حكومة الإدارة التى قامت بعد الثورة الفرنسية، وخرج من مرحلة النظر والتفكيـر إلى حيز العمل والتنفيذ، وأصدرت قرارها التاريخى بوضع جيش الشـرق تحت قيادة نابليون بونابرت فى ١٢ أبريل ١٧٩٨م.

وتضمن القرار مقدمة وست مواد اشتملت المقدمة علـى الأسـباب التى دعت حكومة الإدارة إلى إرسال حملتها على مصر، وفـى مقـدمتها عقاب المماليك الذين أساءوا معاملة الفرنسيين، واعتـدوا علـى أمـوالهم وأرواحهم، والبحث عن طريق تجارى آخر بعد اسـتيلاء الإنجليـز علـى طريق رأس الرجاء الصالح وتضيقهم على السفن الفرنسية فى الإبحار فيه، وشمل القرار تكليف نابليون بطرد الإنجليز من ممتلكاتهم فى الشرق، وفـى الجهات التى يستطيع الوصول إليها، وبالقضاء على مراكزهم التجارية فـى البحر الأحمر والعمل على شق قناة برزخ السويس(٢).

بعدها أخذ نابليون عقب قرار الحكومة يعد معدات الحملة ويبذل فى سبيل ذلك ما أوتى من المقدرة، وقوة التنظيم، فاختار معظم جنوده من (جيش إيطاليا) الذى خاض به المعارك وأحرز به الانتصارات العظيمة، وضم إليهم بعض كتائب من جيش الراين، وبلغ عدد من تألفت منهم الحملة ٣٦.٠٠٠ مقاتل، ووقع اختيار نابليون على صفوة القواد الذين ظهرت كفايتهم وخبرتهم، وتجلت مواهبهم فى حروب إيطاليا، وحرب الراين أمثال برتييه Berthier وكافريللى Caffareili، وكليبر Kleber، ورينيه Reynier، وديزيه Desaix، ودوجا Dugua وفوبوا Vaubois، وبون Bon، ومورا Murat، وبليار Belliard.

اختار الجنرال كافريللى Caffarelli رئيسًا لفرقة المهندسين، والجنرال دومارين Dommartin لقيادة المدفعين، والجنرال برتييه Berthier الذى كان رئيسا لأركان حرب الجيش الفرنسى بإيطاليا رئيسًا لأركان حرب الحملة، وعهد بالإدارة الصحية للحملة إلى الطبيبين الشهيرين لارى Larrey كبير الجراحين، وديجنت Desgenette كبير أطباء الحملة، وعهد إلى سوسى Sucy بإدارة مهمات الجيش، وإلى لروا Le Roy بإدارة مهمات البحرية، وجهز الحملة بمطبعة عربية، وأخرى فرنسية، وأخرى يونانية(٤).

كما اصطحب معه طائفة من علماء فرنسا ونوابغها فى الرياضية، والهندسة، والطب، والجغرافيا، والفلك، والأدب، والكيمياء، والاقتصاد السياسى، والآثار، والمعادن، وطبقات الأرض، والحيوان، والنبات، وفن المعمار، وهندسة الرى، والقناطر، والجسور، والميكانيكا، وطائفة من رجال الفنون من المصورين، والرسامين، والموسيقيين والنقاشين، والمثالين، فبلغ عدد هؤلاء ١٤٦ عضوًا ما بين عالم، وأديب، ومهندس، ومثال تتألف منهم

لجنة العلوم والفنون، وجهزهم بمجموعة كاملة من الآلات الطبيعية والرياضية، وكان من بينهم جماعة من أقطاب العلوم ممن يشار إليهم بالبنان فى فرنسا أمثال مونج Monge العالم الرياضى، وبورتيليه Berthollet العالم الكيميائى، وهما اللذان عهد إليهم نابليون اختيار أعضاء البعثة وفورييه، ودلوميو، وجرفوا سان هيلر، وغيرهم[٥] وزعم الفرنسيون للسلطان أنهم قدموا لتأديب المماليك الذين اعتدوا على التجار الفرنسيين فى مصر، ووعدوا السلطان بأنهم سيعملون على إعادة سيطرته على مصر، وزعم الفرنسيون للمصريين أنهم قد قدموا لتحريرهم من الحكم العثمانى، ومن استبداد المماليك، وأنهم مبعوثو العناية الإلهية للأخذ بيد المصريين لينهضوا ويتحرروا، ويرتقوا[٦].

وخرجت الحملة من مياه مالطة فى ١٩ يونية ١٧٩٨ وصلت تجاه الإسكندرية فى أول يوليه أى بعد شهر ونصف من إقلاعها من طولون جنوب فرنسا.

بدأ جنود الحملة ينزلون غرب الإسكندرية ليلة ٢ يوليه وزحفوا على المدينة فاحتلوها فى ذلك اليوم، وبعد أن ثبت نابليون قدمه فى الإسكندرية أخذ يزحف على القاهرة بطريق دمنهور.

وفى دمنهور تلاقت الفرق فى ٧ يوليه فى انتظار قدوم نابليون إليها الذى نجح فى السيطرة عليها ثم خرج منها قاصدًا الرحمانية الذى احتلتها أيضًا فى ١٠ يوليه.

أما الجنرال دوجا فقد سار من الإسكندرية إلى رشيد فاحتلها يوم ٦ يوليه ثم سار منها إلى الرحمانية، وانضم بفرقته إلى باقى قوات الجيش.

وبالقرب من شبراخيت التقى مراد بك بالجيش الفرنسي في ١٣ يوليه فهزمه نابليون، واضطره إلى التقهقر إلى القاهرة استعدادًا للمعركة الفاصلة فالتقى الجيشان في إمبابة وهناك على مقربة من الأهرام هزم جيش مراد بك في معركة فاصلة كان فيها القضاء على قوة البلاد الحربية، وهي المعركة المعروفة عند المصريين بواقعة إمبابة، وعند الفرنسيين بواقعة الأهرام(٧) في ٢١ يوليه ففر مراد بك بالبقية الباقية من فلول جيشه المهزوم إلى الجيزة، وعن ذلك يقول الجبرتي **"وفر مراد بك، ومن معه إلى الجيزة فصعد إلى قصره، وقضى بعض أشغاله في نحو ربع ساعة ثم ركب، وذهب إلى الجهة القبلية، وبقيت القتلى، والثياب، والأمتعة، والأسلحة، والفرش، ملقاة على الأرض يبر إمبابة تحت الأرجل"(٨).**

وفي هذه المعركة قتل عددًا كبيرًا من المماليك، والمصريين على السواء على حين كانت خسائر الجانب الفرنسي قليلة(٩). أما إبراهيم بك الذي كان مرابطًا بالبر الشرقي من النيل فإنه لما رأى الهزيمة قد حلت بصاحبه غادر القاهرة، ومعه من تبعه من مماليك مصريين، ويبلغ عددهم نحو ألف وخمسمائة، واصطحبهم قاصدين بلبيس، وخلت العاصمة من قوة الدفاع، وصارت وجهًا لوجه أمام الجيش الفرنسي(١٠) وصل نابليون إلى بلبيس في ٩ أغسطس ولكنه لم يجد بها إبراهيم بك الذي غادرها إلى الصالحية، وفي ١١ أغسطس اشتبك الفرنسيون مع إبراهيم بك بالقرب من الصالحية، فأظهر فرسان المماليك قدرة فائقة حتى كاد النصر يفلت من بونابرت، لولا أن وصلت إليه النجدات سريعًا، وقد ساعده انشغال إبراهيم بك برد اعتداء العربان على متاعه في إحراز نصر كلفه جهدًا بالغًا فانسحب إبراهيم، وعاد بونابرت إلى القاهرة، وفي أثناء عودته إلى القاهرة بلغه نبأ تحطيم الأسطول الفرنسي في واقعة أبي قير البحرية(١١)، على يد الأسطول الإنجليزي بقيادة

نلسون، وقد اعتبر ذلك خسارة جسيمة وقضى على كل أمل فى إمكان إحياء هذه البحرية من ناحية، ومن ناحية أخرى فرض الإنجليز حصارًا شديدًا على الشواطئ المصرية حتى بات من المتعذر تمامًا على فرنسا أن ترسل النجدات من عتاد حربى أو أية إمدادات أخرى إلى جيشهم بمصر.

بعد ذلك فر مراد بك إلى الصعيد بعد هزيمته فى موقعة إمبابة فى ٢١ يوليه ١٧٩٨ أخذًا معه الباقين من جنوده، وكان عددهم يبلغ ثلاثة آلاف فشكل ذلك خطرًا على نابليون لأنه لن يحس بالأمان فى الدلتا ما دام المماليك مسيطرين على نهر النيل جنوبى القاهرة إذ كان معنى ذلك أن فى استطاعتهم – فى أى لحظة – أن يكروا عليه بهجوم مفاجئ من مصر العليا، والواقع أنه كان معروفًا أن مراد بك راح يجمع بالفعل جيشًا جديدًا إلى صعيد مصر[١٢] ثم استقر عند ناحية البهسنا، ولحق به المماليك الذين لم يرضوا أن يتبعوا إبراهيم بك فى فراره إلى سوريا[١٣].

اعتزم نابليون إخضاع الوجه القبلى إذ رأى أن بقاء قوة معادية فى الصعيد يهدد سلطة الحكومة المركزية، ويعطل الملاحة فى النيل، ويحبس الغلال عن الوجة البحرى مما يعرض سكان القاهرة والدلتا، وجنود الحملة للمجاعة[١٤].

لكن أراد نابليون قبل تجريد جيشه أن يسعى إلى الاتفاق مع مراد بك على أن يترك له مديرية جرجا، وما يليها إلى الشلال، ويكون تابعًا للحكومة الفرنسية فيؤدى الخراج الذى كان يخرج من هذه الجهات، وكان المسيو روستى Rosetti قنصل النمسا فى مصر رسول المفاوضة بينهما[١٥] والذى زوده نابليون بتفويض كتابى يخوله حق توقيع المعاهدة مع مراد بك وتوجه القنصل المذكور إلى مراد بك، وأعطاه المكتوب، وأفهمه باللسان

فكان جواب مراد بك "**إن هذا الكلام نحن لا نقدر أن نسمعه ولكن قول إلى الجنرال بونابرته بأخذ عساكره، ويرجع إلى إسكندرية، ونحن ندفع له عشرة آلاف كيس ويتوجه إلى بلاده**[١٦] **فإن فعل حقن دماء جنوده ووفر على مشقة محاربته**"[١٧].

لكن رفض مراد شروط الصلح لاعتقاده أن اعتصامه بالوجه القبلى يمنع الفرنسيين من أن ينالوا منه، إزاء ذلك أرسل نابليون حملة بقيادة الجنرال ديزيه، وقد اصطحب الأخير معه المعلم يعقوب القبطى ليدبر لهم الأمور، ويعمل لهم أنواع الحيل، والمكر، والخداع بحكم معرفته التامة بالصعيد لكونه صعيدى الأصل[١٨].

ولم تكن مهمة ديزيه سهلة فلم تنجح أسلحته الحديثة فى إخماد الروح الثورية فى نفوس المصريين فقد لاقى مقاومة شعبية جارفة تجلت فى أول مدينة واجهته أثناء زحفه، وهى مدينة الفيوم فقد خرج أهلها يقاومون مدافع الفرنسيين بما يحملون من بنادق قديمة، وعصى، وجعلوا من أجسادهم سدودًا تمنع زحف الفرنسيين، ونجح ديزيه فى دخول الفيوم، وظن أنه قد فاز بانتصار حاسم، ولكن خاب ظنه، فقد قام أهالى المدينة بالثورة فى ٨ نوفمبر ١٧٩٨، وكانت ثورة ملتهبة جعلت ديزيه يبعث برسله إلى نابليون يطلب فى إلحاح مده بالسلاح، والعتاد حتى يواجه المقاومة الشعبية حتى نجح أهالى الفيوم فى إبادة عدد كبير من الجند الفرنسيين[١٩].

استمر ديزيه فى حملاته التى تنقلت بين مدن الصعيد وتناقص عدد جنده يومًا بعد يوم، ورغم ما لاقاه فى حملاته هذه من مقاومة شعبية فى قرى الصعيد أثرت على نجاح تلك الحملات، وعودة الجنود الفرنسيين من الصعيد يقصون على نابليون ما لاقوة من الأهالى طوال زحفهم الشاق فقد

كافأ نابليون الجنرال ديزيه إلى جانب الجنرالين بليار، وفريان على حسن بلائهم فى الحملة على الصعيد فقد أهدى ديزيه سيفًا جميلاً مكتوبًا على صفحته "فتح مصر العليا"، كما أهدى بليار سيفًا مكتوبًا عليه "معركة أبنود – فتح القصير" إلى جانب إعطاء سيفًا آخر إلى فريان(٢٠).

لكن على الرغم من هذه الانتصارات التى حققها الفرنسيون فى صعيد مصر فقد ظلت الاضطرابات فى الصعيد، وكان من الواضح أنه ما دام حرًا – مراد بك – طليقًا فإنه يسبب قلقًا للفرنسيين حتى وجد كلبير أن من الخير أن يصل إلى اتفاق مع مراد بك الذى شعر من جانبه هو الآخر أن من المتعذر عليه الاستمرار على مقاومة الفرنسيين بصورة جدية فعقد الاثنان معاهدة فى ٥ إبريل سنة ١٨٠٠م ليدخل الصعيد منذ ذلك الوقت مرحلة جديدة ينقسم فيها الصعيد إلى شطرين، شطر يحكمه مراد بك ويكون تابعًا للإدارة الفرنسية، وشطر آخر تحت الإدارة الفرنسية(٢١).

أما عن سياسة نابليون تجاه الشعب المصرى فقد حاول استمالة المصريين إلى تأييد الحكم الفرنسى عن طريق تطبيق ما يعرف بالسياسة الإسلامية الوطنية فى مصر، والتى استندت إلى قواعد ثلاث هى احترام الدين الإسلامى، والمحافظة على تقاليد أهل البلاد وعاداتهم الدينية، وانتزاع المصريين من أحضان الخلافة العثمانية ببذر بذور التفرقة بين المصريين والعثمانيين، والقيام بدعاية واسعة بين الشعوب الإسلامية فى الأقطار المجاورة لإظهار مبلغ احترام الفرنسيين للدين الإسلامى والمسلمين، ولإقناع كبار حكامهم بأن إنشاء صلات الود والصداقة مع الفرنسيين فى مصر، واستئناف النشاط التجارى بين بلادهم وبين مصر سوف يعود بفوائد كبيرة على هؤلاء الحكام، وأخيرًا إنشاء حكومة وطنية لتكون أداة تمكنه من معرفة

رغبات المصريين، والوقوف على حقيقة نياتهم وآرائهم، ويتخذ منها وسيلة لإذاعة أوامره، وتحقيق مآربه بصورة تضمن استقرار الحكم الجديد، وعدم إثارة المصريين عليه.

نتيجة لذلك شرع نابليون فى بذر بذور التفرقة بين المصريين والعثمانيين ليظهر السلطان العثمانى فى صورة لا يهتم بمصلحة الإسلام، ولا يحرص على الشريعة الإسلامية(٢٢).

فكان على الدولة العثمانية – إزاء ذلك – أن تختار بين أمور ثلاثة وهى أن تقاوم الحملة الفرنسية علانية وبقوة السلاح، أو تتحالف مع الجمهورية الفرنسية، أو أن تتظاهر بموافقتها على بقاء مصر فى أيدى الفرنسيين، ولكن تعمل سرًا على إقامة العراقيل فى طريقهم(٢٣).

بالنسبة للأمر الأول فقد كان لدى العثمانيين أكثر من سبب يمنعهم من اتخاذ هذا الإجراء فلكى يحققوا ذلك كان عليهم أن يعقدوا معاهدات مع أعدائها التقليديين التى ستهرع عندئذ لنجدتها، وبالإضافة إلى ذلك فإن الجنود الفرنسيين الذين يرابطون فى جزر الإيونيان يستطيعون بسهولة السير إلى الآستانة، ومعاقبة الباب العالى قبل وصول حلفائه، ولم تستطع الإمبراطورية العثمانية بدافع الكرامة أن تختار الطريق الثانى. أما الأمر الثالث فقد كان مطابقًا لروح الحكومة العثمانية فقد صرح السلطان العثمانى بأنه لن يفرط فى حفنة من رمال مصر، ويطالب المماليك بألا يثقوا فى مناورات الكفرة، وفى الوقت نفسه يرسل إلى الولايات منشورًا لكى توضح أن الفرنسيين ما يزالون أصدقاء الإمبراطورية العثمانية، ولابد أن يعاملوا معاملة حسنة بالرغم من أن "شريرًا يدعى نابليون قد غزا مصر"(٢٤).

وتبع ذلك أن أرسل الباب العالى سلسلة بأكملها من الفرمانات إلى مختلف الأقسام الإدارية للإمبراطورية لتجنيد القوات[٢٥].

إزاء ذلك حاول بونابرت أثناء وجوده فى مصر أن يوطد النفوذ الفرنسى بها، وأن يسعى إلى إيجاد نوع من الصداقة، والتحالف إن أمكن ذلك بينه وبين الحكام العرب والمسلمين المحيطين بمصر فحاول الاتصال بأمراء طرابلس والشام، وعرض صداقته ونواياه الطيبة نحوهم، كما حاول فى الوقت نفسه الاتصال بشريف مكة وبأمراء الهند لتأليبهم على الاستعمار البريطانى هناك باذلاً لهم الوعود بمساعدة فرنسا لهم فى التحرر والاستقلال، ولكن لم تأت تلك الجهود بالثمرة المرجوة لأن الحكم الفرنسى فى مصر لم يكن مستقرًا، كما أن فترة بقاء نابليون فى مصر كانت قصيرة، وأهم من ذلك أن الدول الأوروبية قد تحالفت على إخراج الحملة من مصر، وعندما أعلن السلطان العثمانى الحرب على فرنسا أصبح مركز بونابرت فى مصر معرضًا لأخطار جديدة داخلية وخارجية، فلقد كانت الفرمانات الآتية من عند السلطان تحث على طرد عدو الإسلام، وعندما علم نابليون بعزم الحكومة العثمانية على إرسال حملة إلى مصر لإخراجه منها بمساعدة الأسطول البريطانى المحاصر للشواطئ المصرية صمم على الخروج من هذا المأزق، وغزو الشام[٢٦].

أما عن حملة نابليون على الشام فقدهدفت هذه الحملة القضاء على الأخطار التى تهدد وجود الفرنسيين بمصر وعلى رأسها المماليك التى كانت قد انسحبت بعد معركة الصالحية إلى سوريا الجنوبية إلى جانب خطر التجمعات العثمانية التى أخذت الدولة فى القيام بها بعد إعلانها الحرب على فرنسا[٢٧].

غادر نابليون القاهرة فى فبراير ١٧٩٩ على رأس قوة تقترب من ١٣.٠٠٠ جندى متجه إلى الشام بمحاذاة الساحل الشرقى للبحر المتوسط فوصل إلى العريش فى ١٧ فبراير، واحتشدت جموع الفرنسيين ومدفعتيهم تحت أسوارها، واشتد إطلاق نيران المدافع على العريش حتى اضطر إبراهيم أغا حاكمها إلى توقيع شروط التسليم فى ٢٠ فبراير فأخليت القلعة، واحتل الفرنسيون العريش واستؤنف الزحف بعدها إلى سوريا؛ وذلك بهدف دعم الوجود الفرنسى فى مصر، وإرغام الباب العالى على توضيح موقفه بصورة تساعد على نجاح المفاوضات التى لاشك فى أن حكومة الإدارة.قد بدأتها مع الباب العالى فى استانبول، وكذلك حرمان الأسطول الإنجليزى فى البحر المتوسط من تموين سفنه من سوريا(٢٨).

واصل الجيش زحفه بعد سقوط العريش، فأحتل الفرنسيون خان يونس ثم سقطت غزة، واللد، والرملة، ويافا ثم اتجه إلى عكا فكتب إلى واليها أحمد باشا الجزار يدعوه إلى ترك القتال، والعيش فى سلام مع الفرنسيين، والانضمام إليهم ضد أعدائهم المماليك والإنجليز، لكن رفض الجزار ذلك، وأعلن موقفه العدائى للفرنسيين(٢٩).

فقرر نابليون مهاجمة عكا فحاصرها فى ١٩ مارس لكن دون جدوى، فانسحب بونابرت، ولكنه سرعان ما خشى من أن يؤثر الانسحاب على معنوية جنوده، فعاد إلى حصارها من جديد، وحاول اقتحامها فى أول أبريل، وتمكنت المدفعية من فتح ثغرة فى الأسوار، ولكن المدافعين استماتوا في منع الفرنسيين من المرور منها، الأمر الذى أدى إلى فشل الهجوم الثانى(٣٠).

استمات أحمد باشا الجزار فى الدفاع عن مدينته وقد ساعده على المقاومة وجود سفينتين حربيتين أمام الميناء ويمثل وصول الإنجليز كارثة بالنسبة للفرنسيين حيث تعذر على نابليون نقل عتاده المخصص للحصار بسبب محاصرة الأسطول الإنجليزى الصغير والمكلف بنقل مدفعية الحصار للميناء[٣١].

فى الوقت نفسه أرسلت الدولة العثمانية جيشًا لمهاجمة بونابرت من الخلف أثناء حصاره لعكا، ولكنه استطاع التغلب على هذا الجيش، والقضاء عليه فى موقعة "تل طابور" فى ١٦ أبريل ١٧٩٩ – لكن بونابرت وجد أن استيلاءه على عكا عنوة سيكلفه كثيرًا فاضطر إلى رفع الحصار عن المدينة، والإسراع بالعودة إلى مصر لأنه علم بأنباء إرسال حملة بحرية وبرية إلى مصر، أيًا ما كان الأمر فقد حقق بونابرت بعض أهداف تلك الحملة، وهى القضاء على قوة المماليك المعتصمة فى تلك الجهات، والقضاء على قوة الباشوات، مثل باشا دمشق، وباشا عكا حتى لا يفكرا فى الزحف على مصر. أما فشل نابليون الذى نسبه المؤرخون إلى تلك الحملة استنادًا إلى فشل نابليون فى الاستيلاء على عكا فهو قول يجانبه الصواب لأن نابليون لو استطاع الاستيلاء على عكا لما أمكنه تحصينها نظرًا لمحاصرة الأسطول الإنجليزى لسواحل الشام[٣٢].

بعد ذلك عاد بونابرت بجيشه إلى القاهرة فى ١٤ يونيو ١٧٩٩ ولم يلبث أن علم بوصول حملة عثمانية إلى أبى قير فى ١١ يوليو بقيادة كوسه مصطفى باشا سر عسكر الروميلى فأصدر أوامره إلى قواده ليلتقوا به عند الرحمانية حيث قرر اتخاذها قاعدة الهجوم على الجيش العثمانى – كما أصدر تعليماته إلى الجنرال ديزيه فى الصعيد بأن يترك القوة، والذخائر الكافية فى قلعتى قنا، والقصير ويرسل نصف قوته إلى الرحمانية، وتجمعت

القوات الفرنسية عند الرحمانية، وقادها نابليون لمواجهة الحملة العثمانيـــة، واستطاع نابليون القضاء عليها فى موقعة أبى قير البرية فـــى ٢٦ يوليـــو وأسر قائدها، وفر من بقى، وكان من بينهم محمد على ثم عاد بونابرت إلى القاهرة فى ١١ أغسطس.أما عن نتائج تلك الموقعة فهى:

١- كانت هذه الموقعة نصرًا كبيرًا لنابليون لأنها بمثابة فتح جديـــد لمصر كما كانت واقعة الأهرام من قبل.

٢- فقد العثمانيون ما يقرب من ثمانية آلاف بين قتيـــل، وجـــريح، وغريق، واستولى الفرنسيون على ثلاثة آلاف أسير، كان من بينهم مصطفى باشا، وغالبية ضباط أركان حربه، كما استولوا على مدفعية الجيش العثمانى وذخائره.

٣- زال خطر العثمانيين على مصر لفترة قليلة[٢٣].

وكان بونابرت يعلم أنه رغم انتصاره فى معركة أبى قير فقد كـــان عليه أن يواجه خطرًا جديدًا يتمثل فى قدوم جيش آخر مـــن ســـوريا كـــان الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا قد أتم إعداده، فلم تكن موقعة أبـــى قيـــر البرية إذن سوى مقدمة لمعركة ثانية، وكان على الجنرال بونابرت أن يستعد لهذا الخطر الجديد، ويحيى الأمل فى نفوس جنوده بقرب وصول المدد لهـــم من فرنسا نفسها، ولكن بونابرت كان يرغب فى الوقت نفسه فـــى ســـرعة الإفادة من نتائج انتصاراته فى موقعة أبى قير البرية لكى يجبر إنجلترا على عقد صلح مع فرنسا، وهو بذلك يضع نفسه، وقواته الموجودة فـــى مصـــر كعامل له قيمته فى ميزان القوى الأوروبية نفسها.

ولكن سرعان ما بلغته أنباء عن طريـــق الســـير ســـيدنى ســـميث والصحف التى حصل عليها منه، عن اضطراب الأحوال فى فرنسا نفسها،

وهزيمة الجيوش الفرنسية في كل من النمسا وإيطاليا وبشكل جعلـه يـوقن باستحالة وصول مدد له من فرنسا في مثل هذه الظروف، ويفكر كذلك فـي عدم جدوى بقائه في مصر ما دامت فرنسا نفسها قد أصبحت مهددة، ولكن عملية انسحاب الحملة الفرنسية من مصر ستحرم فرنسا من عامل إيجـابي يمكنها أن تضغط به على أعدائها، أو يمكنها في حالة بقائها في مصر مـن أن تحول هذا الإقليم إلى مستعمرة تعوض عليها بعض ما خسرته فيما وراء البحار، ولذلك فإن بونابرت قد فكر في انتهـاز الفرصـة السـانحة بعـد الانتصار لكي يعود إلى فرنسا، ويقوم بدور فعال في إنقاذها، فـي الوقـت نفسه الذي يبقي فيه على الحملة الفرنسية في مصر، ويفيد فيه من هذا البقاء إلى أكبر درجة ممكنة بالنسبة لفرنسا، وبالنسبة لسلامة الحملة وأمنها[٣٤].

بدأت فكرة الرحيل إلى فرنسا تستقر في ذهن الجنرال بونابرت منذ وجوده في الإسكندرية، ولكنه أخفاها عن الجميع، وأخذ يستعد مـن أجـل الاطمئنان على تحصين سواحل مصر، ومداخلها الشرقية، وإعادة توزيـع القوات الفرنسية في البلاد، سواء في الوجه البحري، أو في الوجه القبلـي، كما اهتم بطريق قنا - القصير خاصة وأنه كان قد علـم بإمكـان توجيـه البريطانيين إحدى ضرباتهم بواسطة هذا الطريق؛ من ناحية أخرى شـارك بونابرت أثناء وجوده في القاهرة في احتفالات المولد النبـوي، وحضـرها وبصحبته مصطفى باشا، وكبار الضباط العثمانيين الذين كانوا قد أسروا في أبي قير، وسافر من القاهرة دون أن يعلم أحد أنه سيترك البلاد، وأدعى أنه ذاهب إلى منوف، وطلب إلى السلطات أن تراسله هناك، ولكنه استمر فـي سفره، وطلب إلى الجنرال كليبر الذي كان قد عاد إلى مقر قيادته في دمياط أن يقابله في رشيد لكي يتباحث معه في شـئون مهمـة. ولكـن الجنـرال بونابرت لم يتمكن من التوقف في رشيد خاصة وأنه علـم بابتعـاد السـفن

العثمانية والإنجليزية عن السواحل المصرية، وَرغب فى انتهاز الفرصة، والسفر إلى فرنسا فى أسرع وقت، ولذلك فإن بونابرت ترك تعليماته مع الجنرال مينو، وأقلع من الإسكندرية فى يوم ٢٢ أغسطس سنة ١٧٩٩، ومعه عدد من كبار الضباط، وعدد من العلماء الذين كانوا قد اصطحبوا الحملة إلى مصر.

والجدير بالذكر أن نابليون – أثناء وجوده فى القاهرة – حاول أن يعقد الصلح بينه وبين الدولة العثمانية، وفى سبيل ذلك كلف مصطفى باشا أن يتصل بالصدر الأعظم فى هذا الشأن، وترك له رسالة أعرب فيها عن حُسن مشاعر فرنسا تجاه الدولة العثمانية، والصداقة القديمة التى كانت تربط بين البلدين، وعدائهما التقليدى لكل من روسيا والنمسا، وشرح فيها إن احتلال فرنسا لمصر لم يكن مبنياً على روح عدائية للدولة العثمانية بل كان يهدف محاربة المماليك، وأنه لم يكن يهدف فصل مصر عن الدولة العثمانية، بل يهدف محاربة إنجلترا فى الهند، وذكر أن الحملة الفرنسية قد احترمت حقوق السلطان ورعاياه، وصفته، وأعلامه، وأبدى أسفه لتعجل الدولة العثمانية الأمر، وإعلانها الحرب على فرنسا، وأعرب عن أمله فى قيام المفاوضات سريعًا بين الطرفين، إما عن طريق سفير عثمانى يصل إلى باريس، أو عن طريق مندوب يصل إلى مصر؛ هكذا وضع الجنرال بونابرت قبل ذهابه من مصر أسس سياسة جديدة يمكنها أن تغير الموقف فى صالح فرنسا بشكل عام، وفى صالح الحملة الفرنسية فى مصر بنوع خاص.

وفى الواقع كانت عملية سفر نابليون من مصر بهذه الطريقة قد أثارت دهشة المصريين خاصة، وأنهم كانوا يعلمون بمحاصرة سفن الأسطول البريطانى للسواحل المصرية[٣٥].

وقد ترك الجنرال بونابرت – عقب مغادرته مصر – رسالة للجنرال كليبر تضمنت أحوال مصر العامة، وأعطاه فيها التوصيات اللازمة ومضمونها أن يعمل على كسب ثقة العلماء، والمشايخ فى القاهرة حتى يحصل على ثقة الأهالى، وأشار عليه بالاستمرار فى عمل الاستحكامات اللازمة للإسكندرية والعريش، وإقامة خطوط تحصينات، واستحكامات عند الصالحية إذ أنها كانت مفاتيح البلاد، كما نصحه بالتريث فى إدخال الإصلاحات على نظام الضرائب، وعملية تحصيلها، كما أوصاه باعتقال خمسمائة أو ستمائة من المماليك، أو من رهائن العرب، ومشايخ البلاد، أو العمد وإرسالهم إلى فرنسا فى حالة استئناف المواصلات البحرية ليبقوا بها سنة أو سنتين، وهكذا لم ينس الجنرال بونابرت وقت سفره من مصر، إعطاء كل التوجيهات اللازمة، وكل السلطات المطلوبة للجنرال كليبر حتى يستفيد منها إلى أقصى درجة ممكنة من أجل فرنسا أولاً، ومن أجل الحملة الفرنسية الموجودة فى مصر ثانيًا(٣٦).

تولى كليبر القيادة العامة لقوات الحملة الفرنسية فى فترة دقيقة من تاريخ وجودها فى مصر، فرغم أن بونابرت كان قد انتصر على الحملة العثمانية فى أبى قير، فإن الفرنسيين كانوا يشعرون بأن وجودهم فى مصر مهدد بقوى داخلية وخارجية تتعارض مصالحها الفعلية مع مصالح الفرنسيين، وترغب فى الوصول إلى إخراجها من مصر، وفى الوقت نفسه بدأت فكرة الجلاء عن مصر تختمر فى أذهان قادة الحملة فكانت أول تجربة يقوم بها كليبر فى هذا الميدان هى تجربة الاتفاق من أجل الجلاء عن البلاد فكان:

وقد دعت العديد من الظروف كليبر إلى عقد هذا الاتفاق منها أن الحملة سيكون مصيرها الفشل لأنها تعيش بين شعب لا يرحب بها وينتظر فرصة خروجها من البلاد، لسوء أحوال البلاد الاقتصادية، كما أن الخزانة خاوية، ومرتبات الجند متأخرة، والجيش العثمانى على الأبواب، والمصريون متحفزون للثورة، فضلاً عن الحصار الإنجليزى القوى، لكل هذه الأسباب قرر كليبر عقد اتفاق العريش مع العثمانيين فرحبوا برغبته، ودارت المفاوضات بين بعض قطع الأسطول الإنجليزى فى شرقى البحر المتوسط، ولكنه لم يكن مندوبًا رسميًا من قبل حكومته، ولكنه اعتقد أن من صالح بلاده أن يجلو الفرنسيون عن مصر صلحًا قبل أن تضطر إنجلترا إلى التقدم لإخراجهم عنوة(٣٧).

وقد نص هذا الاتفاق بجلاء الفرنسيين عن مصر بكامل سلاحهم، وعتادهم، وعودتهم إلى فرنسا على نفقة الدولة العثمانية دون أن يتعرض لهم أحد فى البحر، وبدأ الفرنسيون يخلون بالفعل بعض المواقع استعدادًا للجلاء، كما شرع العثمانيون فى التأهب لدخول مصر، ونزلت قوة إنجليزية فى ميناء السويس.

لكن كان للحكومة الإنجليزية رأيًا آخر تجاه هذه المفاوضات فقد خشيت من عودة الجيش الفرنسى المحصور فى مصر إلى ميادين الحرب فى أوروبا فترجح كفة الجيوش الفرنسية المحاربة، ولهذا فضلت الحكومة الإنجليزية أن يبقى الفرنسيون بمصر أو يسلموا أنفسهم كأسرى حرب، لكن وجد كليبر أن هناك خيانة من جانب الحكومة البريطانية فتراجع عن موقفه ورفض الجلاء(٣٨).

وفى الوقت الذى دارت فيه معركة عين شمس، كان مركز هذه الثورة هو حى بولاق، وقاد هذه الثورة زعماء مخلصون منهم عمر مكرم، والسيد أحمد المحروقى، والحاج مصطفى البشيتلى والذى كان من كبار تجار بولاق، وأنفق كل أمواله التى جمعها طوال حياته من التجارة على الثورة، ثم استشهد أثناء كفاحه، وأقام المصريون المتاريس فى الشوارع والحارات وأنشاءوا معملاً للبارود فى حى الخرنفش، وصنعوا آلات الحرب بأيديهم، وأقاموا مصنعًا حربيًا فى حى بيت القاضى.

وعندما انتصر كليبر على الجيش العثمانى عاد إلى القاهرة لإخماد الثورة، والتى بذل المصريون الأموال فى سبيل الاستعداد لها ليوفروا لها أسباب النجاح لكن اتبع كليبر أساليب الغدر والخيانة بعد أن عجز عن قتل المصريين بمدافعه، فمنع الأقوات عن القاهرة مما أدى إلى انتشار المجاعة وبالتالى ارتفاع الأسعار، فضلاً عن إتباعه للوحشية والهمجية فأقام المذابح فى الميادين، وفرض الأتاوات، والضرائب الباهظة على كل حى، لكن لم تزد هذه الأساليب المصريين إلا حماسة وإصرارًا على المقاومة. وقد أكدت الإحصاءات الرسمية الفرنسية أن الفرنسيين خسروا من الجند فى شوارع القاهرة وباقى مدن القطر المصرى ما يفوق كل خسائرهم فى حروبهم ضد المماليك والأتراك مجتمعين.

من ناحية أخرى قام الأزهر الشريف بدور رئيس فى إذكاء روح الثورة، وفى قيادة المقاومة الشعبية فقد ولدت فكرة الانتقام من كليبر لقاء ما قام به من فظائع تبناها خمسة من الطلبة، ونفذها واحد منهم هو (سليمان الحلبى) الذى وفد من حلب، وظل يدرس فى الأزهر أكثر من ثلاث سنوات متصلة فقد أفزعه ما اقترفه كليبر والفرنسيون من جرائم فى حق إخوته فى

العروبة والإسلام، فرأى أن يثأر لهؤلاء الأخوة، وفـي ١٤ يوليـو ١٨٠٠ تمكن سليمان من الدخول إلى حديقة قصر الأزبكية حيث كان يقيم كليبـر، وقتله بخنجره، بعد أن اقتفى أثره ساعات طوال وعندما قبض عليه، ورفض الاعتراف على باقي شركائه في الحادث، ولكن الفرنسيين عـذبوه فـانطلق لسانه مرغمًا وباح بأسماء باقي شركائه فقبضوا عليهم، وأعدموهم جميعًـا، وافتخر سليمان بأنه وطني عربي (ابن عرب) لم يدفعه إلى قتل كليبـر إلا عروبته وقوميته دون أي دافع أجنبي سواء أكان بريطانيًا أو عثمانيًا، وكان الفرنسيون يظنون أنه قد حرضه البريطانيون أو العثمانيون.

وفي متحف باريس الجنائي يرى المشـاهد رأس الشـهيد سـليمان الحلبي وهي محنطة فوق لافتة مكتوب عليها (رأس قاتل) [٣٩].

وقد روى لنا الجبرتي فيما روى واقعة مقتل كليبر فقال: "**في ذلـك اليوم وقعت واقعة عجيبة، وهي أن سارى عسكر كليبر كـان مـع كبيـر المهندسين يسيران داخل البستان الذي بداره في الأزبكية، فـدخل عليـه شخص حلبي قصده – فأشار كليبر إليه وقال له: (ما فيش) وكررها فلـم يرجع وأوهمه أن له حاجة وهو مضطر في قضائها فلما دنا منه مد إليـه يده اليسرى كأنه يريد تقبيل يده، فمد كليبر يده فقبض سـليمان عليهـا، وضربه بخنجر كان أعده في يده اليمنى أربع ضربات متوالية فشق بطنه، وسقط إلى الأرض صارخًا فصاح زميله المهندس ؛ فذهب إليـه سـليمان وضربه أيضًا ضربات، وهرب، وسمع العسكر الذي خارج الباب صـرخة المهندس فدخلوا مسرعين فوجدوا كليبر مطروحًا، وبه بعض الرمق – ولم يجدوا القاتل فانزعجوا وضربوا طبلهم وخرجوا مسرعين، وجروا من كل ناحية يفتشون على القاتل، واجتمع رؤساؤهم، وأرسـلوا العسـاكر إلـى**

الحصون، والقلاع، فأحاطوا بالبلدة وعمروا المدافع، وقالوا لابد من قتل أهل مصر عن آخرهم. ووقعت هوجة عظيمة، وكرشة، وشدة انزعاج، وأكثر الناس لا يدرى حقيقة الحال، ولم يزالوا يفتشون عن القاتل، حتى وجدوه منزويًا فى البستان المجاور لبيت سارى عسكر المعروف بغيط مصباح بجوار حائط متهدم فقبضوا عليه"(٤٠)

بعدها تولى الجنرال مينو القيادة العامة للحملة وقد بلغ عمره خمسون عامًا، فكان أقل همة على المعارك والالتحام من غيره من القواد الذين كانوا يصغرونه في السن، وكان أقرب إلى الرغبة فى الاستقرار، خاصة وأنه كان قد تزوج من إحدى المصريات، وأشهر إسلامه، وسمى نفسه عبدالله باشا مينو، ورغم رغبته فى الاستقرار فى مصر أى إبقاء الاحتلال الفرنسى فى البلاد، ومجهوداته المتعددة التى بذلها من أجل تحقيق هذه السياسة فقد كتبت عليه هذه الظروف أن يواجه قوى ضغط كبيرة من جانب كل من الدولة العثمانية، ومن بريطانيا، وأجبرته هذه القوى على أن يخرج بالحملة الفرنسية من مصر ليعتبر حكمه هى الفترة الأخيرة والمرحلة النهائية من مراحل تاريخ مصر تحت الاحتلال الفرنسى.

سار الجنرال مينو فى سياسته على أساس بقاء الاحتلال الفرنسى فى مصر، وما دامت قوات الحملة عاجزة عن الاتصال بفرنسا فعليها أن تعيش فى البلاد، وبموارد البلاد أى النظر إلى مصر على أنها مستعمرة فرنسية، وتدل جميع الخطوات التى اتخذها مينو بالنسبة للإدارة، والضرائب، والصناعة، والتجارة، والزراعة، وكذلك بالنسبة لعلاقات الفرنسيين بالوطنيين على أن مصر مستعمرة فرنسية، أو يحاول الوصول بها إلى هذا الوضع(٤١).

انصرف مينو إلى العناية بحالة البلاد، فقد أخذ يجبى الباقى من الغرامة التى فرضها كليبر، وفرض عليها ضريبة جديدة فرضها على ملاك الدور، ومستأجريها، والملتزمين والتجار، وأرباب الحرف، وعهد إلى الفرنسيين أمر تحصيل الضريبة الجديدة إلى مشايخ الحارات الساكنين بالمدينة[٤٢]، وقد هدف مينو من ذلك توفير الأموال اللازمة لدى القيادة العامة للانفاق على جيش الشرق حتى تتحسن أحوال الجند[٤٣]، كما جدد ديوان القاهرة، وفكر فى إلغاء نظام الالتزام وأصدر قرارًا بإصدار صحيفة عربية تدعى (التنبية) ولكن تطور الموقف لم يفسح له المجال لتنفيذ مشروعاته حيث قررت الحكومة الإنجليزية أن تقوم بدور فعال فى إجلاء الفرنسيين، فوضع الإنجليز والعثمانيون خطة محكمة لمهاجمة مصر من نواح متعددة من ناحية الشمال بجيش إنجليزى عثمانى، ومن ناحية الشرق بجيش عثمانى، ومن الجنوب بحملة إنجليزية هندية تسيرها حكومة شركة الهند الشرقية فى البحر الأحمر ثم تنزل بالقصير، وتتقدم نحو القاهرة. وقد وصلت هذه الحملات كلها، واشتركت فى القتال ما عدا الحملة الهندية الإنجليزية فقد وصلت بعد أن سلم الفرنسيون، ولكن حضور هذه الحملة إلى مصر من الهند أمر له دلالته، وهو الارتباط بين المستعمرات البريطانية فى الشرق، ومصر كمركز متوسط فى حلقة المواصلات الإمبراطورية، لكن ارتكب مينو خطأً عسكريًا وذلك بتقسيم قواته حيث خرج بجزء منها للدفاع عن الإسكندرية وأرسل جزءً آخر إلى بلبيس، وآخر إلى دمياط، وترك بقية القوة بقيادة بليار للدفاع عن القاهرة فاستطاع الإنجليز أن ينزلوا فى أبى قير، وهزموا الفرنسيين فى كانوب فى ٢١ مارس ١٨٠١، بينما اعتصم مينو بالإسكندرية، وقنع الإنجليز بترك قوة لحصارها وقطعوا البرزخ الفاصل بين مريوط، وإدكو، وتقدموا إلى القاهرة.

وازداد موقف مينو حرجًا مع تزايد ضعف روح جنده المعنوية، وعدم وصول المساعدة التى وعد بها نابليون من فرنسا، كما أن القوات العثمانية تقترب من القاهرة، والقوة الإنجليزية الهندية أبحرت من بومباى، وعلى وشك أن تبلغ القصير ثم تعبر الصحراء إلى قنا ومنها تتجه شمالاً فى وادى النيل؛ وستنضم إليها قوة قامت من رأس الرجاء الصالح؛ بينما كان مراد بك و مماليكه يعتقدون أن حكم الفرنسيين إلى الزوال فينحازون إلى الإنجليز.

وعلى أثر ذلك قرر بليار قائد حامية القاهرة - وهو من أنصار الجلاء - التسليم بشروط اتفاق العريش، وشدد الإنجليز حصار الإسكندرية فاضطر مينو إلى التسليم بهذه الشروط فى سبتمبر عام ١٨٠١ وبذلك تم جلاء الفرنسيين عن مصر[٤٤].

لكن يمكن القول أن السبب الأول فى هذا الجلاء كان كفاح الشعب المصرى، وليس جهود الإنجليز أو العثمانيين، فلو استسلم المصريون للوجود الفرنسى ببلادهم وما صاحبه من استغلال مواردهم، وأعمالهم الوحشية، والهجمية لتفرغ الفرنسيون لقتال أعدائهم الخارجين، وربما نجحوا فى صدهم.

أيًا ما كان الأمر كان خروج الحملة الفرنسية من مصر بداية صفحة جديدة فى تاريخها - رغم قصر مدتها بها - تضمنت حدوث تغييرات واضحة فى أمورها السياسية والاقتصادية.

أما عن نتائج الحملة فكان لها بالغ الأثر التاريخى، والحضارى، والعسكرى، والاقتصادى، والتى غيرت تاريخ المنطقة برمتها فمع نزول قوات نابليون بونابرت فى الإسكندرية عام ١٧٩٨ تعتبر بداية النهاية لنفوذ

المماليك فى مصر، ونشوء ما عرف لاحقًا بالمَسألة المصرية، وبداية التدخل الأوروبى فى شؤون الإمبراطورية العثمانية، والولايات العربية التابعة بها وهو ما يعرف بالمسألة الشرقية.

ولعل النتيجة الأكثر أهمية وعمقًا تبقى بعدما فشل نابليون على مشارف عكا، وانكساره ورجوعه خاسرًا لفرنسا، تم فى الواقع القضاء على مطامع نابليون الشخصية بالسيطرة على الشرق، والطريق التجارى للهند، واحتلال أوروبا الشرقية بعد أن يتم القضاء على السلطنة العثمانية فى استانبول قبل ذلك، وتحقيق حلمه وطموحه بإقامة إمبراطوريته العظمى فى أوربا، والشرق على غرار الإسكندر المقدونى.

تتعددت نتائج تلك الحملة لتشمل النواحى العسكرية والإدارية، والاقتصادية، والاجتماعية، والعلمية.

أولاً: النتائج العسكرية

١- كان لهذه الحملة الأثر الأول فى تكوين مصر الحديثة إذ قضى الفرنسيون على فرسان المماليك مما مكن محمد على فيما بعد من القضاء عليهم فأصدر قرارًا بمنع جلب المماليك إلى مصر حتى لا يتمكن زعماؤهم من تجديد قواتهم التى أنهكتها المعارك[٤٥].

٢- لفتت هذه الحملة أنظار العالم الغربى لمصر، وموقعها الاستراتيجى وخاصة إنجلترا، مما كان لهذه النتيجة محاولة غزو مصر فى حملة فريزر ١٨٠٧ الفاشلة على رشيد بعد أن تصدى لها المصريون [٤٦].

٣- إذا كانت هذه الحملة قد فشلت فى تحقيق أهدافها العسكرية بالنسبة لفرنسا إلا أنها قد أعطيت نتائج حاسمة بالنسبة لمصير القوات العسكرية

الموجودة فى مصر سواء أكانت هذه القوات تتمثل فى الأوجاقات العسكرية أو فى قوات البكوات المماليك وهو أمر فى غاية الأهمية بالنسبة لمصر وشعبها، وستكون الهزائم التى نزلت بالقوات العثمانية فى مصر من بين الأسباب الرئيسية التى ستدفع الدولة العثمانية إلى محاولة تجديد قواتها العسكرية بشكل عام، والعمل على القضاء على فرق الإنكشارية حتى تتمكن من إصلاح قواتها العسكرية الأمر الذى ستتم مراحله فى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر، وأما بالنسبة لمصر فإن هذه النتائج العسكرية ستنعكس فى شكل نتائج سياسية فيما بين العثمانيين والمصريين، وعلى مواقف المصريين تجاه المماليك

ثانيًا- النتائج السياسية

انقسمت هذه النتائج بدورها إلى قسمين أحدهما يتعلق بالسياسة الخارجية، والأخرى بالسياسة الداخلية.

١- بالنسبة لسياسة الخارجية لفتت الحملة أنظار العالم عند نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر إلى أهمية مصر فى المحاولات الإستراتيجية، والاقتصادية، والسياسية، والمعنوية فظهرت مصر على أنها مركز عام، ونقطة اتصال، أو مفرق طرق يوصل بين البحر المتوسط، والبحر الأحمر، ويمكنه أن يوصل أوروبا بالشرق الأقصى، كم ظهرت على أنها سوق توزيع له قيمته بالنسبة لتصريف المنتجات الأوروبية، ومنطقة انتاج مواد خام تحتاج إليها الصناعات الأوروبية، وظهرت سهولة الاستيلاء على مصر نتيجة لضعفها العسكرى، وإنقسام القوى التى كانت تسيطر عليها، كل هذه العوامل تكاتفت معاً وبشكل حولت أنظار الدول

الاستعمارية إليها لدرجة أن بعض الفرنسيين - عقب خروج الحملة - يفكرون فى ضرورة العودة إليها للاحتفاظ ببعض العلاقات والصداقات فيها، وبالمثل حاولت إنجلترا أن تستبقى. قواتها على ضفاف النيل بها لأطول فترة ممكنة بعد خروج الحملة للاحتفاظ بنفوذها فى المنطقة وإن ساعدت الظروف الدول الأوروبية الاستعمارية التى حاولت السيطرة على مصر مثل فرنسا، وإنجلترا فيما يتعلق بالانقسام الموجود بين المماليك، وضعف المصريين عسكريًا عن مواجهة أية قوات عسكرية أجنبية.

٢- وفيما يتعلق بالسياسة الداخلية فقد انقسمت بدورها إلى نظم سياسية، وشعور سياسى، ورأى عام، فبالنسبة للنظم السياسية فقد عملت الحملة على خلق مؤسسات سياسية فى مصر بشكل لم يعهده المصريون من قبل وكان إنشاء الديوان خطوة أساسية على هذا الطريق.

أما الشعور السياسى فلاشك أنه كان شعورًا قوميًا أو وطنيًا واضحًا تزايد مع استمرار وجود الحملة فى مصر وما حملته من تحكمها فى النشاط الاقتصادى بفرض الضرائب، والغرامات، والإتاوات، إلى جانب التغيرات التى طرأت على الحياة الاجتماعية فيما يتعلق بسلوك قوات الاحتلال فى الشوارع، وبخاصة مع السيدات، وعدم تقديرهم للحرمات، والمقدسات، واستحداثهم بعض البدع مما يعد اختلافًا اجتماعيًا عن الفرنسيين فبتلور شعورهم هذا فى حركات المقاومة فى أقاليم مصر، وثورات القاهرة.

أما الرأى العام فلم يقتصر هذا الشعور على المصريين فقط بل كان هناك تضامنًا واضحًا مع عرب الحجاز، ومع السوريين، ومع المغاربة،

وحتى مع العثمانيين كان تضامناً عربياً إسلامياً، وإن كانت غالبية الأقلية المسيحية الموجودة فى مصر قد اضطرت إلى المشاركة فيه(٤٧).

ثالثًا- النتائج الإدارية

١- شهدت مصر فى ظل الحملة الفرنسية مجموعة من الدواوين أو المجالس التى أنشأتها نابليون وهى مؤلفة من كبار العلماء، والتجار، وممثلى الطوائف، ومشايخ الحرف للنظر فى الشئون العامة وبذلك كان بونابرت أول من أدخل المبدأ النيابى من مصر، ولاشك أن العلماء والمشايخ قد اشتد ساعدهم منذ الوقت ليكون لهم فيما بعد أثر كبيرًا فى اختيار محمد على لولاية مصر وإرغام الدولة العثمانية على تعيينه سنة ١٨٠٥م(٤٨).

٢- عممت الدواوين فى أقاليم مصر تنفيذًا لأمر بونابرت فى ٢٧ يوليو عام ١٧٩٨، وكان كل ديوان يتألف من سبعة أعضاء لإدارة مصالح الأقاليم، ونظر الشكاوى وفض المنازعات، ومعاقبة المفسدين، والخطيرين ومعاقبتهم، وحفظ الأمن داخل القرى، وبين القرى المجاورة أما الإدارة المالية فقد عهد بها إلى (مباشر)، ومعه وكيل فرنسى لجباية الأموال، والضرائب، وكافة الإيرادات ثم فى ٢٠ أكتوبر من نفس العام صار الديوان يتألف من تسعة أعضاء ينتخبون بمعرفة جمعية عمومية مؤلفة من علماء وأئمة، ومشايخ البلاد، وأكابر، وأعيان التجار، والصناع الذين يعينهم قومندان الإقليم، ولكل ديوان الرئاسة فى الإشراف على القضاة، ومشايخ البلاد على أن يرأس ديوان القاهرة دواوين الأقاليم. وقد ألغى مينو هذه الدواوين، وجعل على رأس كل إقليم قائدًا فرنسيًا(٤٩)

رابعًا- النتائج الاقتصادية.

١. أدى حصار الأسطول البريطاني للسواحل المصرية إلى منع الاستيراد، والتصدير بطريقة شبة كاملة من ناحية البحر رغم استمرار العلاقات التجارية مع الأقاليم المجاورة بطريق البر، وإن انخفضت قيمتها مع تغيير أوضاع البلاد.

٢. فرضت القيادة العامة للحملة مجموعة من الغرامات، والضرائب، والإتاوات حتى تتمكن من الانفاق على الحملة مما أدى إلى تقليل سيولة رأس المال الموجود فى أيدى التجار، وخوف الأهالى من إظهار ما لديهم من أموال، الأمر الذى انتهى إلى ركود الأموال أى حدوث ضائقة مالية قاس منها المصريين.

٣. وجهت الحملة ضربة قوية إلى النظام الإقطاعى، مما مهدت الطريق أمام سيطرة الطبقة الوسطى (الطبقة الرأسمالية).

٤. فكر مينو فى ضرورة وضع نظام ضرائبي جديد للبلاد ترتبط فيه الضرائب بالأرض، وتدفع مباشرة إلى خزانة الدولة دون وساطة الدولة أو صاحب الالتزام، ولو نفذ هذا المشروع لكان ضربة قوية تصيب النظام القديم فى أهم أساس من أسسه، وهو الأساس الاقتصادى، وتؤدى بالتالى إلى إضعاف نفوذ السادة فى مناطق الانتاج الزراعى، والقضاء على سطوتهم.

٥. جعل مصر سوقًا جديدة لرجال الحملة بما يحتاجوه من سلع وخدمات فإذا كانت هذه الحملة قد امتصت جزءًا من رأسمال المصريين سواء بالضرائب والإتاوات فإنها عادت إلى إنفاق جزء منه على ما يلزمها فى نفس البلد مما أدى ذلك إلى التغلغل الاقتصادى للبلاد.

٦. كان نتيجة الضغط المالى الذى مارسه الفرنسيين على البلاد دفع التجار إلى مشاركة العناصر الوطنية فى الثورة عليهم عن طريق إسهامهم فى تمويل هذه الثورة لشعورهم بأنهم أصحاب مصلحة.

٧. لم تسمح الفترة القصيرة التى بقيتها الحملة فى مصر بإنشاء مشروعات اقتصادية جديدة لها أهميتها بالنسبة للبلاد(٥٠).

خامسًا: النتائج الاجتماعية

منذ قدوم الحملة إلى مصر أظهر نابليون تقربه إلى العلماء واحترامه لعادات الأهالى، وتقاليدهم وفى سبيل ذلك عمل على:

١- تنفيذ سياسته الإسلامية الوطنية باهتمامه بالاحتفال بالأعياد الوطنية، أو الأعياد الإسلامية كالمولد النبوى، وشهر رمضان، وفيضان النيل. كما أصدر أوامره مشددة باحترام جنود الحملة لعادات الأهالى وتقاليدهم وكان لاشتراك المشايخ والعلماء فى الديوان – بناء على رغبة نابليون – أثرًا كبيرًا فى هذا المجال(٥١).

٢- اهتم نابليون بعمران البلاد حيث هدم أبواب الحارات، والأزمة بشكل يسمح لقواته بسهولة الحركة فى القاهرة، كما أمر بضرورة تنظيف الشوارع، ورشها، وإضاءتها ليلاً. كما وضع نظامًا لدفن الموتى فى أماكن مخصصة لهم بعيدة عن العمران(٥٢).

٣- اعتنى نابليون بشئون الصحة العامة فى البلاد حرصًا منه على عدم انتشار الأوبئة، وفتك الأمراض الخطيرة بجنوده كالطاعون، والزهرى، والرمد، وغير ذلك.

٤- شهدت القاهرة أنواعًا جديدة من النشاط الاجتماعى مثل خروج الرجال مع السيدات للتنزة؛ وكذلك إنشاء المطاعم، ودور الشراب، وهى أنواع غير معروفة لدى المصريين فنظروا إليها على أنها طفرة، وتحمل من السوء أكثر مما تحمل من الخير، وإن كانت تمثل تطورًا حتى وإن كان دخيلاً على مجتمع القاهرة(٥٣).

٥- أنزلت الحملة ضربة قوية بالطبقات الحاكمة حيث اختفت الطبقة العثمانية الحاكمة بمجرد دخول القوات الفرنسية إلى القاهرة، وحتى القاضى التركى فإنه استبدل فى أول فرصة بقاضى قضاة من المصريين. أما بالنسبة للمماليك فإن مكانتهم الاجتماعية قد ضعفت بشكل واضح نتيجة لخروجهم بعيدًا عن مناطق استغلالهم، ونتيجة لضياع جزء كبير من ممتلكاتهم، ومن ثم انقسم المماليك إلى مجموعتين: اضطرت إحداها إلى الخروج من مصر إلى سوريا بقيادة إبراهيم بك، وإلى العمل مع العثمانيين، واضطرت الأخرى إلى الذهاب إلى الصعيد والتنقل من مكان إلى آخر أمام ضغط الفرنسيين، وانتهى الأمر بكبيرها مراد بك إلى الاتفاق، والتحالف مع الفرنسيين وكان هذا تغييرًا واضحًا بالنسبة للمستوى الاجتماعى الذى عاشه المماليك، وتغييرًا واضحًا كذلك بالنسبة للخط الذى ساروا عليه فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر أى قبيل مجئ الحملة

الفرنسية إلى مصر، وهو الخط الذى كان يتمثـل فـى ازديـاد سلطة المماليك ونفوذهم بشكل مستمر، وبطريق يـؤدى إلـى استئثارهم بالسلطة فى مصر دون العثمانيين فقد أصبحوا إمـا ملحقين بالعثمانيين، أو ملحقين بالفرنسيين، وبعد جلاء الحملـة عن مصر سيظهر اتجاه ثالث بين المماليك يتمثل فى ضـرورة استعادة السلطة القديمة التى كانت لهم فـى الـبلاد، ويحـاول الاستناد إلى إنجلترا للوصول إلى هذا الهدف أى أن المماليك قد انقسموا على أنفسهم إلى ثلاث اتجاهات، وأصبحوا مـرتبطين بالقوة الخارجية بعد أن كانت أقدامهم راسخة فى مصر، وعلى شعبها.

أما الطبقة الوسطى والتى كانت تشتمل على العلمـاء، والمشـايخ، والتجار فكانت المقومات المادية لها لم تمكنها من النمو فى وقت الحملـة، ولكن المقومات المعنوية لهذا الطبقة تزايدت، وفى تضامن علـى الطبقـة الشعبية، وعلى حساب الطبقة العليا التى قلت هيبتها، وضعفت سلطتها فـى البلاد.

أما بالنسبة للطبقة الشعبية من صناع، وصغار حرفيين، وفلاحـين فهى التى دفعت ثمن العمليات الحربية، ودفعت القيمـة الفعليـة للغرامـات والاتاوات، وذلك من أجل طرد المحتلين الأجانب من بلادهم.

لكن فى مجمل القول أن الحملة الفرنسية قد هزت المجتمع المصرى من أساسه، ومهدت الطريق أمام حدوث تغييرات اجتماعية مهمة فى الفترة التالية[٥٤].

٦- حاول الفرنسيون تحويل مصر إلىَ باريس الصغيرة على حد قولهم بتصميم القهاوى، والمطاعم ذات الموائد والكراسى على الطراز الفرنسى بدلاً من الجلوس على المصاطب أو المقاعد الحجرية ثم مشارب البيرة أو البارات.

٧- أقام الفرنسيون مسرحًا لتمثيل الروايات (الكوميدية، والتراجيدية، والأوبرا كوميك) وصادفهم كذلك فى بداية الأمر صعوبة العثور على الممثلات، فصار الرجال يتزيون بزى النساء، ويقومون بأدوار السيدات فى هذه التمثيليات، واستمر الحال على ذلك فترة من الزمن حتى رضيت بعض الفرنسيات الاشتراك فى التمثيل، وقد ظل هذا المسرح قائمًا حتى أواخر الحملة الفرنسية[٥٥]

سادسًا: النتائج العلمية

١- تركت الحملة آثار واضحة فى ميدان العلوم، والفنون، والآداب على مصر، والدراسات المتعلقة بها، ويرجع ذلك إلى أنها قد اصطحبت معها فى مجيئها لمصر مجموعة من العلماء كانوا هم أعضاء لجنة العلوم والفنون، ثم قامت بإنشاء المجمع العلمى فى القاهرة[٥٦]، ورغم قصر الوقت الذى أمضته الحملة فى مصر، والصعوبات التى اعترضت طريقها كانت النتائج العلمية للحملة هى أهم نتائج ذلك الاحتكاك الحضارى بين مصر وفرنسا.

٢- تمثلت مهمة العلماء فى توحيد جمع المعلومات المتوافرة عن مصر فى شكل بيان للتحولات التى يجب الاضطلاع بها الذى حمل عنوان (وصف مصر) [٥٧] الذى ظهر من عام ١٨٠٩ إلى

عام ١٨٢٨م مؤلفاً من المقدمة التاريخية التى كتبها فورييه، ومن الأطالس الثلاثة التى نشرت فى عشرة مجلدات، ومن المجلدات التسعة التى تتضمن النص المكتوب، والموزعة كلها إلى ثلاث أقسام، العصور القديمة (والحالة الحديثة)، والتاريخ الطبيعى الذى يحوى أطلسًا يضم خريطة طبوغرافية، وجغرافية(٥٨).

٣- اشتملت النتائج العلمية للجنة العلوم والفنون، وللمجمع العلمى على محققات واضحة، وكبيرة الأهمية بالنسبة لمصر وهو دراسة برزخ السويس تمهيدًا لشق قناة تربط البحر الأحمر بالبحر المتوسط، ولقد شارك بونابرت بنفسه فى هذه الدراسة بعد احتلال مدينة السويس وقبيل خروجه فى حملته إلى سوريا، وقد وصلت هذه الدراسة إلى نتيجة ترجح ارتفاع مياه البحر الأحمر عن مياه البحر المتوسط بتسعة أمتار، وقد اعتبرت هذه النتيجة أساسًا لدراسات لاحقة عملت على تصحيح الخطأ الحسابى.

٤- العثور على حجر رشيد على يد بوشار فى يوليو ١٧٩٩، وحاول العلماء فك رموزه حتى تمكن العالم شامبليون فى سنة ١٨٢٢ من فك رموزه كاملة، وكان هذا العمل هو مفتاح اللغة المصرية القديمة، والأساس اللازم لمعرفة تاريخ مصر القديمة.

٥- دراسة بقية الآثار الفرعونية سواء الموجود بمصر أو صعيدها، ووصف العلماء تلك الآثار التى زاروها بكل دقة، ورسموا بضعًا منها، وكانت أعمالهم ثروة ضخمة بالنسبة للتاريخ.

٦- قام العلماء بجمع المعلومات الجغرافية، والطبوغرافية التي تساعد على وضع خريطة مفصلة لمصر، وشجع كل من كليبر، ومينو على الاستمرار في هذا العمل، وخاصة وأن مينو كان يرغب في عمل مسح تام للأراضي الزراعية في مصر، ويكون هذا المسح أساسًا لتنظيم الضرائب العقارية.

٧- حملت الحملة مطبعتها إلى مصر، وستكون هذه المطبعة فاتحة لمعرفة المصريين لشئون الطباعة وأهمية المطبوعات.

٨- اتضح التأثير الفكري للحملة في طائفة كانت بيئتها الخاصة تمهد لهذا التأثير كالجبرتي المؤرخ الذي تردد على مكتبة الفرنسيين وزار معاملهم؛ وحسن العطار الأديب حيث تعلم من معارف الفرنسيين، وعلمهم اللغة العربية إلى جانب طائفة أخرى نشأت في كنف الفرنسيين ورعايتهم مثل إلياس بقطر القبطي، ونقولا الترك السوري المولد والنشأة، والمعلم يعقوب الزعيم القبطي المعروف حيث شارك بفرقته صفوف الفرنسيين يقاتل معهم، ويعاونهم على تثبيت أقدامهم سواء في السلم أو في الحرب، واستمع إلى أحاديثهم، وآرائهم، في النظم، والتاريخ وبعد رحيل الفرنسيين هاجر يعقوب إلى أوروبا على رأس الوفد المصري لتحقيق آماله في استقلال البلاد، وإن وافته المنية في عرض البحر، ودخلت حياة أول مفكر عملي في استقلال مصر في ذمة التاريخ.

أما الأزهر فلم يحاول الفرنسيون أثناء احتلالهم للبلاد أن يدخلوا عليه شيئًا ذلك لوجود هوّة عميقة بينهم وبينه لاختلاف الطرفين فى التفكير، والعمل(٥٩).

وبعد خروج الحملة من مصر تصارع على السلطة فيها قوات أربع كل منها تريد أن يكون لها الغلبة، وتستأثر بحكم مصر ولا شك أن ضعف الأحوال الاقتصادية، والإدارية فى مصر، علاوة على وجود قوى عديدة فى البلاد كان يخلق وضعًا يتسم بالفوضى(٦٠). فقد حاول كل من العثمانيين، والفرنسيين، والإنجليز، والمماليك بسط نفوذهم على مصر، ولكن الشعب المصرى عقد العزم على ألا يسمح لأى جماعة من هذه الجماعات أن تطأ أرضه، أو تحتل شبرًا منه، فرأى المصريون أن يتحرروا تمامًا من الحكم العثمانى، وأن يضعوا نهاية لاستبداد المماليك بشئون مصر، وبدأ الشعب المصرى بزعامة عمر مكرم يعمل على تنفيذ هذه السياسة الوطنية.

وقد اتخذت هذه السياسة الشعبية المصرية الجديدة صورًا إيجابية عديدة فأعلن المصريون عدم رضاهم عن بقاء الجيوش البريطانية فى الأراضى المصرية، وكانت هذه الجيوش قد تلكأت فى الانسحاب بعد جلاء الفرنسيين وعندما أعلن الجند الألبانيون بزعامة طاهر باشا تمردهم على الوالى العثمانى خسرو باشا، والذى اضطر إلى الفرار إلى دمياط، واجتمع شيوخ الأزهر والعلماء فى ٦ مايو سنة ١٨٠٣ فى بيت القاضى لبحث الأمر، وأقروا طاهر باشا بذلك، وطلبوا منه رفع المظالم التى وقعت بالشعب المصرى، وبذلك أصبحت مقاليد الحكم فى يد الشعب.

واستمر الشعب المصرى صاحب السلطة الحقيقية فعندما وقع اختيار الإنكشارية بعد مقتل طاهر باشا على يد أحمد باشا والى المدينة، وكان

موجودًا حينئذ بالقاهرة، تقرب أحمد باشا من العلماء، والزعماء المصريين، ولكنهم رأوا أن أحمد باشا غير جدير بحكم مصر بل رأوا ضرورة خروجه هو والجند الإنكشارية من مصر، وساعدوا محمد على فى طردهم جميعًا من مصر فى مايو سنة ١٨٠٣، وقد تحالف محمد على مع المماليك، الذين تولوا الحكم قرابة عام عانى الشعب خلاله من الضرائب الباهظة، وارتفاع الأسعار، واعتداء المماليك على ممتلكات المصريين لكن امتنع المصريون عن دفع هذه الضرائب، واحتشدوا فى شوارع القاهرة واحتجوا على حكم المماليك، واتجهوا إلى الأزهر حيث التقوا بشيوخه وطلبوا منهم الاحتجاج لدى المماليك - وأدرك محمد على قوة الشعب المصرى فانقلب على حلفائه المماليك وانضم إلى صفوف العلماء، وشيوخ الأزهر، وتعهد لهم بالعمل على إلغاء هذه الضرائب، وأنزل جنوده إلى شوارع القاهرة، وأوصاهم بمعاملة الشعب معاملة طيبة، وحاول المماليك مقاومة الشعب وفرض إرادتهم، وحكمهم عليه، ولكن الشعب تحالف مع الجند الألبانيين، واضطر المماليك إلى الفرار إلى الصعيد(٦١)

ثانيًا : الدعوة الوهابية

ظهر تحرك جديد فى الفكر العربى الإسلامى خلال هذه المرحلة الإنتقالية، وتمثل فى الدعوة التى نادى بها الفقيه الحنبلى من نجد ((محمد بن عبد الوهاب)) (١١١٥ -١٢٠٧هـ / ١٧٠٣ - ١٧٩٢م)، إذ طالب بضرورة العودة إلى الأصول الأولى للدين الإسلامى، وتخليصه من البدع التى علقت به خلال القرون السابقة، لترجع إلى الدين حيويته المبدعة، ولحضارته، وللمجتمع العربى الإسلامى رفعته. ويشبه هذا التيار الفكرى الإسلامى الجديد، التيار الذى حمله فى القرن الرابع عشر الميلادى، العالم

الحنبلى ((ابن تيمية)) (٦٦١ -٧٢٨هـ / ١٢٦٣ - ١٣٢٨م)، وتلميذه ((ابن قيّم الجوزية)) (المتوفى ٧٥١هـ / ١٣٥٠م). وفى الحقيقة، لم تكن دعوة ((محمد بن عبد الوهاب)) رداً على تحدى الحضارة الأوروبية المتطورة للحضارة العربية المقوقعة على ذاتها، بل إن هذا التيار ولد فى الحقيقة من أعماق الفكر العربى الإسلامى ذاته. إن بذرة ((اليقظة الإسلامية)) تكونت فى الحقيقة فى المرحلة السابقة لهذه المرحلة، حيث بدأ صراع فكرى خفى فى أذهان بعض العلماء المسلمين، بين إتجاهين فى الدراسات الإسلامية، وهما : العودة إلى الأصول مباشرة، أو الإكتفاء بالمؤلفات القريبة منهم، من شروح، وتعليقات، وموجزات. ويتبدى هذا مثلاً فى حوار جرى بين عالمين فى القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى؛ وفى أقوال بعض العلماء الآخرين حول المتقدمين من العلماء والمتأخرين. وظهر هذا الفكر بشكل نقدى أكثر جلاء فيما بعد ضمنته أحد علماء الجزائر، وهو الفقيه ((عبد الكريم الفكون)) (المتوفى ١٠٧٣هـ / ١٦٦٢م) فى كتابه ((منشور الهداية))، من نقد لاذع للبدع التى علقت بالدين، ولأهل الطرق الصوفية بالذات، المنحرفين عن التصوف الإسلامى الحقيقى الأصيل، وطالب بحرارة، بضرورة الرجوع إلى الكتاب، والسنة، وإجماع الأمة مباشرة ودون وسيط، وإستخدام العقل، وتقديم الدراية على الرواية والسرد. وأنكر على فقهاء عصره تمسكهم بالتقليد لمجرد التقليد، بدل إتباع الحق. ويشبه العالم والمؤرخ الجزائرى ((ابن عمّار)) (المتوفى ١٢٧٦هـ / ١٨٥٩م) - وإن كان قد ظهر متأخراً نسبياً، فقد دعا هو الآخر إلى ((الإجتهاد فى الأحكام، والحد من نشاط الدراويش)) الذين أضروا بالمجتمع حتى أفتى بقتلهم. ونقد فقهاء عصره بشدة، ونادى بضرورة النهضة الإسلامية، وأخذ المسلمين بالإختراعات والمبتكرات الأوروبية. وكذلك الأمر فى تونس، حيث ألف

المفتى ((محمد بن حسين بيرم)) رسالة ((السياسات الشرعية))، التى إعتمد فيها على الإجتهاد فى الاحكام الشرعية[٦٢].

ونشأ مؤسس هذه الحركة محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣ – ١٧٩١) فى بلدة العيينة إحدى قرى نجد، وبدأ بالقرآن فأتم حفظه فى العاشرة من عمره، ثم تتلمذ على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، وكان منذ طفولته وصباه شغوفاً بالعلم والدراسة، لا يلهو كما يلهو الصبيان، بل يصرف وقته كله فى قراءة كتب الفقه والتفسير والحديث والعقائد. ثم بدأ الرحلة بعد ذلك ليستزيد من العلم، فذهب إلى مكة وأدى فريضة الحج، ثم إنتقل إلى المدينة ثم طوّف فى البلاد الإسلامية المجاورة يأخذ عن شيوخها وعلمائها، فزار الأحساء، وأقام فى البصرة نحو أربع سنوات، وفى بغداد خمس سنوات، ثم إنتقل إلى كردستان وأمضى بها سنة ثم رحل إلى بلاد فارس، فزار همذان وأصفهان حيث درس فلسفة الإشراق والتصرف، ثم زار مدينة قم، وعاد أخيراً إلى حريملة حيث كان يقيم والده، بعد تركه العيينة، وهناك إستأنف الدراسة على والده، وهناك بدأ دعوته[٦٣].

أما عن مبادئ الدعوة. فأولها التوحيد فيرى محمد بن عبد الوهاب أن التوحيد ليس مجرد توحيد الربوبية : إن الله وحده خلق العالم، بل الإقرار بأن الله هو المستحق وحده للعبادة مع الإلتزام بتنفيذ هذا الإقرار ... وذلك أن المشركين العرب كانوا يقرون بأن الله وحده خالق كل شئ، وكانوا مع هذا مشركين بقوله تعالى ((وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركين)) ((ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله)).

فكلمة لا إله إلا الله لا تنفع قائلاً إلا أن يعرف مدلولها نفياً وإثباتاً، ومن قالها على غير علم وإعتقاد وعمى فهو جاهل، ومن أشرك بالله عن

جهل وجب تعليمه. فإن أصر لزم حربه ويوضح الشيخ حقيقة التوحيد كما فهمها المسلمون من السلف الصالح وضروب الشرك التى سقط فيها بعض المسلمون من السلف الصلاح وضروب الشرك التى سقط فيها بعض المسلمين عندما تدهوروا فى القرون اللاحقة، وإعتقدوا إعتقادات فاسدة، وأقفلوا باب الإجتهاد، وقعدوا عنه.

والمعتقدات الفاسدة هى التى مكنت أعداء المسلمين من المسلمين بجهلهم خصائص الدين وأطفائهم شعلة العقل وتقليد قليل من الرجال أزمة تفكيرهم، والرضا بمجرد الحياة على وجه الأرض لا بالحياة التى ترفع المسلم درجات(٦٤).

وثانى مبادئ هذه الدعوة محاربة البدع والخرافات فلا تستقيم دعوة التوحيد دون محاربة نواقصه، ولذلك حارب الإمام محمد بن عبد الوهاب البدع والضلاله بالإستعانة بالأولياء والصالحين فقال : من الشرك الإستعاذه بغير الله أو الإستغاثة بغيره والإستشفاء بما سواه.

ويؤكد الإمام محمد بن عبد الوهاب أن زيارة القبور والتماس البركات من أصحابها ليس كما يدعى المضللون للتقدير والإحترام، لأنه إذا جاز هذا فى حق الأحياء فلا يجوز فى حق الأموات، وأن الموتى قد إنقطع ما بينهم وبين الحياة والأحياء، وليس ثمة فرق بين من يرجو البركة عند قبر ولى وبين من يعبد وثناً، كلاهما قد جعل بينه وبين الله شفيعاً يرجى، وما كان كفار قريش الذين حاربوا دعوة التوحيد إلا على هذه الصورة كانوا يعتقدون أن الله هو الخالق العظيم، ولكن هناك آلهة دون الله، يتصرفون وينفعون ويضرون، أن هذه الآلهة هى الطريق إلى الله(٦٥).

وآخر هذه المبادئ الإجتهاد بشرط عدم مخالفته لنصوص القرآن والسنة وآثار السلف الصالح وأنكر الإمام محمد ابن عبد الوهاب تقليد أحد غير الأئمة الأربعة لعدم ضبط المذاهب الأخرى مثل مذهب الشيعة وغيره. ولم يتبع السلفيون مذهب الإمام ابن حنبل فى كل الأحوال، بل أنهم فى بعض المسائل الفرعية التى يؤيدها نفى من القرآن والسنة ورأى أحد الأئمة الثلاثة الآخرين أخذوا به وتركوا رأى ابن حنبل ولقد شعرت الدولة العثمانية بخطورة تلك الحركة، لأن نجاحها يؤدى إلى فصل الحجاز وخروجه عن يدها، أو بمعنى آخر خروج الحرمين الشريفين مما يفقدها الزعامة التى تتمتع بها على العالم الإسلامى بحكم إشرافها على هذين الحرمين فى وقت كانت قد بدأت تسعى فيه إلى التغلب على عوامل الضعف الداخلية وتقوية الصلات بينها وبين أنحاء العالم الإسلامى بإعتبارها مركز الخلافة الإسلامية. ولذلك إستعانت بمحمد على الذى أرسل جيشه إلى الحجاز، وسافر إلى هناك بنفسه وظل جيشه يقاوم الوهابيين إلى أن إنتصر عليهم. ومن ناحية أخرى، نشطت الدعوة العثمانية فى جميع أنحاء العالم الإسلامى ضد هذه الحركة، وإتهمت الوهابيين بالكفر والخروج على طاعة الخليفة، وشارك علماء المسلمين فى هذه الدعوة التشهيرية، وشارك الإنجليز كذلك فى التشهير بالدعوة الوهابية وتشويه مبادئها، لأن أى إضطراب يصيب بلاد العرب يهدد طريق تجارتهم إلى الهند، ولأن بعض مسلمى الهند قد إتصلوا بالحركة فى مواسم الحج وبدأوا عند عودتهم إلى وطنهم يدعون دعوات إصلاحية مشابهة، وهكذا إجتمعت قوى كثيرة على محاربة الدعوة الوهابية، ولذلك فشلت الحركة فى أو الامر فشلاً ظاهرياً، فلم تلق الأفكار الوهابية قبولاً فى المجتمع الإسلامى خارج بلاد العرب.

كما أثارت الحركة الوهابية معارضة نفر آخر من المسلمين وخاصة رجال الدولة والعلماء، لأنها إصطنعت أسلوب القوة والعنف لتنفيذ تعاليمها، فإعتبرت البلاد الإسلامية التى لا تؤمن بمبادئها والتى تنتشر فيها البدع دار حرب وجهاد، وكان الوهابيون إذا دخلوا بلداً إستعملوا العنف لإجبار أهلها على إعتناق مبادئهم، فهم عند دخولهم مكة مثلاً هدموا كثيراً من القباب الأثرية. ولما دخلوا المدينة نزعوا بعض الزينة والمعادن الثمينة والحلى التى كانت تزين قبر الرسول ﷺ مما أثار شعور المسلمين وأسفهم، ولكن الوهابيين لم يريدوا أن يلتزموا أضعف الإيمان فيعملوا على إنكار المنكر بالقلب ولا حتى باللسان، بل أرادوا أن يستعملوا أقوى الإيمان فإستعانوا بالأيدى لتغيير هذا المنكر(٦٦).

ثالثاً:الحملة الإنجليزية على مصر

إن لكل أمة من الأمم أيام لا تنسى، وخاصة التى تتعلق بالكفاح، والمقاومة الشعبية، وقد ظهر ذلك بوضوح عندما شارك المصريون فى مقاومة الحملة الفرنسية (١٧٩٨ - ١٨٠١) وظهر بصورة أوضح عندما تصدى شعب رشيد للحملة الإنجليزية التى كان يقودها الجنرال فريزر Fraser عام (١٨٠٧)، وضرب مثالاً رائعًا فى البطولة والفدائية، هو ما سنتعرض له فى الصفحات التالية، وذلك من خلال الحديث عن الموقف الدولى الذى أدى لإرسال الحملة، ثم سيطرة الحملة على الإسكندرية، وتوجهها بعد ذلك لرشيد وهزيمتها هناك، علاوة على الهزيمة فى الحماد، وعلى أثر ذلك دارت المفاوضات بين محمد على والإنجليز للجلاء عن مصر.

أولاً: الموقف الدولى

عقب خروج الحملة الفرنسية من مصر عام ١٨٠١، حدثت اضطرابات سياسية؛ أدت فى نهاية الأمر إلى تولى محمد على حكم مصر برأى العلماء، وقد وافق السلطان العثمانى على ذلك(٦٧)، فى هذه الأثناء زاد التقارب العثمانى الفرنسى بين السلطان سليم الثالث، والإمبراطور نابليون بونابرت خاصة بعد انتصار فرنسا على النمسا وروسيا فى موقعة أوسترليتز فى ٢٠ ديسمبر ١٨٠٥؛ مما أدى إلى تراجع القيصر الروسى إلى بلاده، وأجبر إمبراطور النمسا على توقيع معاهدة برسبورج وتنازل بموجبها لفرنسا عن أقاليم أوربية مهمة وهى البندقية، ودالماشيا، وأوستريا، والتيرول، وبموجب ذلك أطلقت يد فرنسا فى إيطاليا، وجنوب ألمانيا(٦٨).

وكان لانتصارات نابليون العسكرية والسياسية أصداؤها فى استانبول، فقد أصبح النفوذ الفرنسى قويًا هناك على نفوذ سائر الدول الكبرى، وتضاءل نفوذ الروسيا لدرجة أنه لم يعد لاتصالات ايتالينسكى Italinsky السفير الروسى فى دوائر الباب العالى وزن كبير، وأخذت هذه الدوائر تناقش حق الروسيا فى مرور قواتها فى البوسفور والدردنيل، وقد ذهب الباب العالى فى موقفه العدائى من الروسيا لأبعد من ذلك؛ فقد ألغى فى شهر يونيو ١٨٠٦ جميع الامتيازات التى كانت ممنوحة للبحارة الروس، وتدخل شارل أربثنوت Charles Arbuthnot السفير البريطانى لتأييد السفير الروسى، ولكن النفوذ

البريطانى فى استانبول قد تضاءل هو الآخر، وطلب السفير البريطانى من حكومته إرسال قوات بحرية إلى منطقة المضايق تسانده فى اتصالاته مع دوائر الباب العالى. فى ظل هذه الأحداث وصل سباستيانى Sebastiani السفير الفرنسى لاستانبول فى أغسطس ١٨٠٦، وظهر للسفير البريطانى المكانة العالمية التى تبوأها السفير الفرنسى فى استانبول، فكتب إلى حكومته طالبًا منها أن تحرك أساطيلها لأن الفرنسيين سيقومون بتعزيز الاستحكامات العسكرية فى المضايق، وعليه فهذا العمل موجهًا ضد بريطانيا[٦٩].

ولم تمض سوى فترة بسيطة حتى قدم السفير الفرنسى مذكرة فى سبتمبر ١٨٠٦ إلى الباب العالى يطلب فيها إغلاق البوسفور والدردنيل فى وجه السفن الحربية الروسية، وذكر فيها أن عدم الاستجابة لهذا الطلب يعد عملاً عدائيًا ضد فرنسا، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فقد وصل النفوذ الفرنسى فى استانبول إلى أبعد من ذلك حين أقدمت الحكومة العثمانية بتشجيع من فرنسا فى ١٤ نوفمبر ١٨٠٦ على إلغاء معاهدتى التحالف الدفاعى بينها وبين الروسيا وبريطانيا؛ لشعورها بأن أحكام هاتين المعاهدتين تتعارضان مع سياستها العليا فى بسط سيادتها الكاملة على المضايق والبحر الأسود، وكان هذا الإجراء من جانب الدولة العثمانية مقدمة لقطع العلاقات بينها وبين الروسيا وبريطانيا، وقيام الحرب، وفعلاً نجحت دبلوماسية نابليون فى جر الدولة العثمانية فى حرب ضد روسيا عام ١٨٠٦، وضد بريطانيا عام ١٨٠٧[٧٠].

وكرد فعل من إنجلترا قررت إرسال جزء من قواتها البحرية بقيادة جون دكورث John Ducworth للمرابطة في البوسفور والدردنيل، وعهد لذلك الأسطول بإلقاء مراسيه في مياه البوسفور تجاه العاصمة كتأييد للسفير البريطاني في استانبول، وتم تكليف دكورث بإرسال مذكرة للباب العالي يطلب فيها أن تقطع الدولة العثمانية كل علاقاتها بفرنسا، وتعود العلاقات العثمانية البريطانية مرة أخرى، وإذا رفضت يعتبر ذلك عملاً عدائيًا ضد إنجلترا. وفي هذه الحالة سيقوم دكورث بإبلاغ فوكس Fox القائد العام للقوات البريطانية في صقلية ليرسل بعض من تلك القوات لاحتلال الإسكندرية، على أن يتم اتخاذها كنقطة ارتكاز في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ضد الدولة العثمانية وفرنسا. ولما عرضت المذكرة على الباب العالي كان في موقف حرج، وانتهى به الأمر إلى الميل لفرنسا على أساس أنها أشد خطرًا عليه من إنجلترا، ولما رأى قائد الأسطول أن الحكومة العثمانية لا ترد عليه، وأن أعمال التحصينات العسكرية في البوسفور والدردنيل تسير بقوة بإرشاد من السفير الفرنسي والمهندسين الفرنسيين اضطر إلى سحب قواته، وعندئذ شرع دكورث في إبلاغ فوكس بموقف الدولة العثمانية برفضها للمطالب الإنجليزية، لذا عليه أن يبادر بإرسال حملة إلى مصر تحتل مدينة الإسكندرية(٧١).

وقد شجع تلك الفكرة ميست Misst قنصل بريطانيا في الإسكندرية، فقد كان يردد في رسائله لحكومته أن مصر أصبحت صيدًا سهلاً للمشروع الفرنسي، لذا قررت الحكومة البريطانية إرسال

حملة إلى مصر بقيادة الجنرال فريزر، وقامت الحملة من جزيرة صقلية متجهة إلى الإسكندرية[٧٢]، وعليه فالموقف الدولى والعلاقات بين الدولة العثمانية، وبين كل من فرنسا، وإنجلترا والروسيا هى السبب المباشر فى إرسال حملة الجنرال فريزر إلى مصر

ثانيًا: سيطرة الحملة الإنجليزية على الإسكندرية.

تم تكليف الجنرال فريزر لقيادة الحملة، يساعده فى ذلك الجنرال ووشوب Wauchope، فى حين تولى القيادة البحرية للحملة هالوويل Hallowell [٧٣]، وقد بلغ عدد أفرادها ستة آلاف، واستعدت للتوجه من صقلية إلى مصر فى ٦ مارس ١٨٠٧، بعد أن تأكدت القطيعة بين الدولة العثمانية وبريطانيا [٧٤].

توجهت الحملة إلى الإسكندرية وتمكنت من احتلالها فى ٢١ مارس ١٨٠٧؛ على الرغم مما لاقاه الإنجليز من صعوبات أثناء ذلك، وفقدانهم لبعض جنودهم[٧٥]؛ فى ذلك الوقت كان محمد على منشغلاً بالحرب ضد المماليك فى الصعيد، وأخذ ميست القنصل الإنجليزي يراسل الأمراء المماليك موضحًا لهم أنه قد حانت الفرصة لاستعادة سلطانهم، ولما كان الإنجليز يعتمدون على صديقهم محمد بك الألفى الذى توفى قبل وصول الحملة، فاتصلوا بخليفته شاهين بك يؤكدون له أن الحملة جاءت لتأييد جماعة الألفى لإنشاء حكومة مملوكية صديقة

لبريطانيا، خاصة وأن الأخيرة كانت تعتقد أن محمد على يعمل على فتح باب للنفوذ الفرنسي في مصر[٧٦].

فى ذلك الوقت صدرت الأوامر من استانبول إلى محمد على لوضع حد لعملياته الحربية ضد المماليك للتصدى للخطر الإنجليزى، وقد رأى محمد على بعد سلسلة من المعارك - والتى لم تسفر عن نتيجة حاسمة - أن يشرع فى مفاوضات الصلح مع البكوات المماليك حتى يتسنى له العودة للقاهرة، ووعدهم إذا ساعدوه فى التخلص من الخطر الإنجليزى أن يجتمع بهم، ويقرروا شكل الحكومة المقبلة للبلاد، وقد رفضت جماعة الألفى العرض البريطانى للانضمام إليهم وأكدوا أنهم لن يستخدموا المسيحيين لمحاربة المسلمين، وانتظر باقى المماليك ليروا نتيجة الصراع الجديد[٧٧].

ثالثًا: توجه الحملة الإنجليزية إلى رشيد وهزيمتها فى ٢١ محرم ١٢٢٢هـ/ ٣١ مارس ١٨٠٧م.

بعد احتلال الإسكندرية لم ينتظر ميست رد البكوات المماليك على رسالته، وحاول إقناع فريزر بضرورة احتلال رشيد، ولكن فريزر تردد فى بداية الأمر؛ لأن ذلك يتعارض مع التعليمات الصادرة، والتى اقتصرت على احتلال الإسكندرية فقط، وسرعان ما غير رأيه بسبب إلحاح ميست المستمر، وأرسل إلى لندن طالبًا منها المساعدات، وبرر اتجاه الحملة إلى رشيد بأن جنود الحملة بالإسكندرية يحتاجون

إلى المواد الغذائية؛ والتى لا يمكن توافرها إلا بعد السيطرة على رشيد والرحمانية، علاوة على انشغال محمد على بنزاعه مع المماليك، وعدم توقع مساندة الشعب إذا حاول الدفاع عن رشيد، بالإضافة إلى اعتقاده بأن نجاح الحملة سيحمّل البكوات المماليك على التوجه من الصعيد لمؤازرة جيش الاحتلال، وبدأ تحرك القوات الإنجليزية من الإسكندرية، وكانت تبلغ ما يقرب من ١٤٠٠ جندى بقيادة الجنرال ووشوب، والجنرال ميد Meade [٧٨].

وتزعم المقاومة فى رشيد على بك السلانيكلى، وقد تمكن من جمع عدد كبير من الأهالى للمشاركة فى الدفاع عن مدينتهم، بالإضافة إلى حامية المدينة[٧٩]. فى ذلك الوقت تجلى تحرك الحركة الوطنية فى القاهرة بزعامة السيد عمر مكرم بالتنظيم وتعطيل الدراسة فى الأزهر كى يتفرع المشايخ والطلاب للجهاد، فمنهم من تطوع لحفر الخنادق حول القاهرة، ومنهم من تطوع بالسفر إلى رشيد، فى الوقت الذى كان فيه محمد على لا يزال فئ الصعيد تلكأ فى العودة إلى القاهرة دون أن يكون له أثر فى توجيه الشعب، واستنفاره للقتال[٨٠]. بعد ذلك وصلت الفرقة الإنجليزية أمام رشيد، وقرر القائد الإنجليزى ووشوب دخولها وقسم قواته إلى ثلاث وحدات تتجه كل منها إلى منطقة معينة فى المدينة، ومع تقدم القوات الإنجليزية وتقهقر جنود الحامية كانت إحدى الوحدات الإنجليزية تسير إلى جوار النيل، وفجأة فتح رجال الحامية النيران على الإنجليز، فاضطروا لترك مدافعهم التى كانوا يجرونها. أما الفرقة الثانية – والتى كانت تعمل فى القطاع الأوسط – فكانت

تسير قرب المنازل، وتمكنت من إسكات نيـران العثمـانيين ورجـال الحامية، ثم تمكنت من فتح ثغرات فى أسوار المدينة، ثم بدأت بقيـادة الجنرال دخولها فى ذلك الوقت علم الأخير أن الوحدة الثالثـة كانـت تواجهها بعض الصعوبات، ولا تتمكن من دخول المدينة فأسرع للحاق بها، ووجد قائدها ميد جريحًا، وبعد إعادة الانضباط قامت هذه الفرقـة من جديد وتمكنت من دخول المدينة، بعدها عاد الجنرال ووشوب إلـى فرقته، والتى كانت قد استولت تقريبًا على الأحياء الرئيسية فى رشيد، وكان قد جرح فى كتفه، ثم أمر بعدها بمواصلة الهجوم، وجـرح مـن جديد ومات بعدها، وتمت عملية احتلال المدينة، وقام الإنجليز بقتل من وجدوه من القوات العثمانية(٨١).

كان ذلك فى ٢١ محرم ١٢٢٢هـ/ ٣١ مارس ١٨٠٧م، وعليه قرر محافظ رشيد على بك السلانيكلى مقاومة الإنجليز معتمـدًا علـى الشعب وحامية المدينة، وأمر رجال الحامية والأهالى بالاعتصام داخل المنازل، وأمر ألا يبادر أحد بإطلاق النار إلا عند صـدور الإشـارة بالضرب، كما أمر بإبعاد السفن التى يستخدمها الأهالى فى عبور النيل إلى الضفة الشرقية حتى لا يفكر أحد من الجنود والأهالى بالانسـحاب من رشيد، وأدرك سكان رشيد أن نهر النيل مـن خلفهـم والإنجليـز أمامهم فلا سبيل إلا الاستبسال فى القتال(٨٢).

تقدم الإنجليز دون أدنى مقاومة؛ ودخلوا المدينة واعتقدوا أنهـا سقطت فى أيديهم، وانتشروا فى طرقاتها وأزقتهـا يرتـادون أمـاكن

يلجئون إليها ويستريحون فيها، وجلسوا على المقاهى يأكلون ويشربون، ثم تجردوا من سلاحهم، عندها أصدر على بك السلانيكلى أوامره بالتصدى للإنجليز، وتحولت المدينة كلها إلى بركان قذف حممه ضد الإنجليز الذين امتلأت شوارع رشيد بقتلاهم، ومن بقى حيًا لاذ بالفرار، وقد حاول قائد الأسطول الإنجليزى الراسى فى البحر عند مدخل رشيد إنقاذ القوة المهزومة عن طريق اقتحام النهر بزوارق صغيرة، ولكن قلعة رشيد، وثلاث سفن مزودة بالمدفعية التحمت بالأسطول الإنجليزى وتمكنت من صده(٨٣).

وعن ذلك يقول الجبرتى *(وردت أخبار من ثغر رشيد يذكرون بأن طائفة من الإنكليز وصلت إلى رشيد فى صبح يوم الثلاثاء حادى عشرينه(٨٤)، ودخلوا إلى البلد، وكان أهل البلدة ومن معهم من العساكر متنبهين ومستعدين بالأزقة والعطف وطيقان البيوت، فلما حصلوا بداخل البلدة ضربوا عليهم من كل ناحية، فألقوا ما بأيديهم من الأسلحة وطلبوا الأمان، فلم يلتفتوا لذلك، وقبضوا عليهم، وذبحوا منهم جملة كثيرة، وأسروا الباقين، وفر طائفة إلى ناحية دمنهور، وكان كاشفها عندما بلغه ما حصل برشيد اطمأن خاطره، ورجع إلى ناحية ديبى، ومحلة الأمير، وطلع بمن معه إلى البر فصادف تلك الشرزمة فقتل بعضهم، وأخذ ما بقى منهم أسرى، وأرسلوا السعاة إلى مصر بالبشارة، فضربوا مدافع وعملوا شنكًا، وخلع كتخدا بيك على السعاة الواصلين، وأسرعت المبشرون من أتباع العثمانيين، وهم*

القواسة الأتراك بالسعى إلى بيوت الأعيان يبشرونهم، ويأخذون منهم البقاشيش والخلع، وصار الناس من بين مصدق ومكذب[٨٥].

وبلغت خسائر الإنجليز فى تلك المعركة حوالى ١٧٠ قتيلاً، و٢٥٠ جريحًا، و١٢٠ أسيرًا سيقوا إلى القاهرة، وكان لهذه الهزيمة وقع كبير على نفوس أهالى القاهرة، فخرجوا لمشاهدة الأسرى الإنجليز عند وصولهم يوم ٥ أبريل ١٨٠٧، فى حين بلغت خسائر المصريين ٤٠ رجلاً، وحوالى ١٠٠ جريح[٨٦].

رابعًا: هزيمة الإنجليز فى الحماد ٢١ أبريل ١٨٠٧.

بعد ذلك قرر فريزر أن يمحو آثار هزيمة رشيد فأرسل حملة ثانية تتألف من أربع كتائب وبعض وحدات من المدفعية، والفرسان ومشاة الأسطول، وصل عددها إلى ٢٥٠٠ رجل بقيادة الجنرال وليم ستيوارت William Stewart ، يعاونه الكولونيل أوزوالد Oswald، وتحركت تلك الحملة فاحتلت قرية الحماد جنوبى رشيد، وكان الغرض من احتلالها تطويق رشيد ومنع وصول المدد إليها، ولحماية مؤخرة الجيش الإنجليزى والمحافظة على مواصلاته مع المخازن التى أقيمت على ساحل بحيرة إدكو[٨٧]، كما قام الإنجليز باحتلال ربوة أبى مندور، ونصبوا عليها المدافع لدك مدينة رشيد وللقضاء على أية مقاومة لأهل المدينة[٨٨].

وقد اعتقد الإنجليز أن ضرب رشيد بالمدافع سيلقى الرعب فى نفوس الحامية والأهالى ويضطروهم للتسليم، وقد أنذروهم أكثر من مرة أن يسلموا المدينة؛ لكنهم رفضوا، وأرسل السيد حسن كريت نقيب الأشراف فى رشيد خطابًا إلى السيد عمر مكرم فى القاهرة يطلب منه إمداد المدينة بالرجال والعتاد ويقول الجبرتى عن ذلك *ورد مكتوب السيد حسن كريت نقيب الأشراف برشيد، يذكر فيه أن الإنجليز لما وقع لهم ما وقع برشيد، ورجعوا فى هزيمتهم إلى الإسكندرية، استعدوا وحضروا إلى ناحية الحماد، قبلى رشيد، ومعهم المدافع الهائلة والعدد ونصبوا متاريسهم من ساحل البحر إلى الجبل عرضًا.... فهذا ما حصل أخبرناكم، ونرجو الإسعاف والإمداد بالرجال والعدة والعدد وعدم التأنى والإهمال*"[٨٩].

ولما وصلت هذه الرسالة للسيد عمر مكرم قرأها على الناس، وحثهم على التأهب والخروج للقتال؛ فامتثلوا لذلك، وجمع إليهم طائفة من المغاربة وأتراك خان الخليلى وغيرهم، ثم سافروا إلى رشيد[٩٠].

ثم يأتى دور محمد على الذى أرسل حملة تتألف من أربعة آلاف من المشاة، وألف وخمسمائة من الفرسان تحت قيادة نائبه، ودارت بين المصريين والإنجليز معركة فى الحماد يوم ٢١ أبريل ١٨٠٧م.، استمرت ثلاث ساعات، وانتهت بهزيمة الجيش الإنجليزى الذى حاول الانسحاب ففشل وتعرض للإبادة[٩١]. وبعد هزيمة الإنجليز فى الحماد قرر الجنرال ستيوارت رفع حصاره عن رشيد، والانسحاب

إلى أبى قير، حيث انتقل منها منسحبًا إلى الإسكندرية عن طريق البحر[٩٢].

خامسًا: محمد على يفاوض الإنجليز للجلاء عن مصر.

فكر محمد على فى الزحف على الإسكندرية وتخليصها من الإنجليز، ولكن قبل أن يبدأ زحفه وصلته فى ١٠ أغسطس ١٨٠٧ رسائل من الجنرال فريزر من أجل المفاوضة والجلاء عن البلاد، وسبب ذلك حسن معاملة محمد على للأسرى الإنجليز، كما رأت إنجلترا أن وسائل ضغطها العسكرى على استانبول باءت بالفشل نتيجة تحصين قلاع الدردنيل بمساعدة بعض الفنيين الفرنسيين، وعليه رأت بريطانيا ضرورة الانسحاب من مصر، وفى ١٤ سبتمبر ١٨٠٧م. وصل المندوب الإنجليزى وتم التوقيع على الاتفاق، ووقعه محمد على كطرف، ووقعه عن الجانب الإنجليزى الجنرال شربوروك Sherburok ، والكابتن فيلوز Veluze ونص على وقف القتال بين الجانبين والجلاء عن الإسكندرية، وإطلاق سراح الأسرى الإنجليز فى مصر، علاوة على بقاء وكيل بريطانى بالإسكندرية بعد إخلائها لاستلام كل من يعثر عليه من الأسرى الإنجليز[٩٣]. وفى ١٦ سبتمبر كانت بداية مغادرة الإنجليز من ميناء الإسكندرية[٩٤]، وتم جلاء الإنجليز عن الإسكندرية بالكامل يوم ١٩ سبتمبر ١٨٠٧م[٩٥].

نخرج من العرض السابق بنتيجة مهمة وهى أن انتصار المقاومة الشعبية على الحملة الإنجليزية فى رشيد، كان ضربة قوية

موجهة ضد الإنجليز، وعن هزيمة رشيد يقول الجنرال فريزر في تقريره إلى وزارة الحرب البريطانية *"إن الهزيمة أمام الأهالي في رشيد كانت ضربة قاسية غير متوقعة أصابت الإنجليز"* وقال ميست: *"إن انتصار المصريين في معركة رشيد سوف يبعث الدهشة البالغة في العالم حين يسمع أن مدينة مثل رشيد قد استعصت على جيش أوربي حديث"*(٩٦).

وعلى الرغم من انتصار المقاومة في الحماد بمساعدة قوات أرسلها محمد على إلا أنها كانت تحصيل حاصل، ونتيجة حتمية لهزيمة رشيد، لأن الإنجليز كانوا يريدون أن يثأروا لما حدث لهم في رشيد، فتقدموا نحو الحماد دون إعداد محكم فكانت الهزيمة، وقد كشفت الحملة الإنجليزية على رشيد مدى تماسك المجتمع المصري، وقوته وصلابته في مقاومة المحتل، وهي صفحة من صفحات تاريخ مصر الحديث تثبت مدي ما يتمتع به المصريون من إيمان وقوة، وهو ما ظهر بوضوح فيما بعد بداية من الاحتلال الإنجليزي لمصر عام ١٨٨٢، وحتى عام ١٩٥٢.

حواشى الفصل الخامس

(١) ولد نابليون بونابرت فى مدينة أجاكسيو **Ajaccio** عاصمة مدينة فرشقة (كورسكا) فى ١٥ أغسطس سنة ١٧٦٩ واسم أبيه كارلو ماريا دى بونابارته **Carlo Maria di Bunaparte** وهو من أسرة أصلها إيطالى وكانت جزيرة كورسكا تابعة لجمهورية جنوى واستولت عليها فرنسا سنة ١٧٦٨ أى قبل ولادة نابليون بسنة فهو إيطالى الأصل فرنسى المولد، والجبرتى يسميه (بونابرته) وهذه التسمية تنطق كما ترى على النطق الإيطالى لاسمه واسم والده، وقد عرف فى مصر بهذا الاسم، ولم يذكره الجبرتى باسم نابليون قط لأنه إلى ذلك العهد كان يعرف بالجنرال بونابرت، ولم يغلب عليه اسم نابليون إلا من يوم أن نودى به إمبراطورًا سنة ١٨٠٤م ثم صار هذا لاسم علمًا له فى التاريخ. تلقى نابليون دروسه الأولى فى مدرسة أجاكسيو ثم التحق بمدرسة بريين **Brienne** الحربية بفرنسا، وكانت مخايل الذكاء والنبوغ تبدو عليه فى صباه ثم دخل مدرسة باريس الحربية سنة ١٧٨٤ وانتظم فى سلك المدفعية، وجاز الامتحان سنة ١٧٨٥م والتحق بالجيش، ولما شبت الثورة الفرنسية انضم إليها وبعد أن أعلنت فرنسا الحرب على النمسا ثم على إنجلترا، وهولنده، وأسبانيا تحرج مركز فرنسا وأحاط بها الأعداد من كل جانب، واحتل الإنجليز سنة ١٧٩٣ طولون ميناء فرنسا البحرية على البحر المتوسط فظهر نبوغ نابليون الحربى فى حصار طولون، وكان له الفضل فى استرجاعها، وعهدت إليه الحكومة بمهمة الدفاع عن الجمعية الوطنية، أو إخماد فتنة

الخارجين عليها سنة ١٧٩٥ فأخمد الفتنة، وأنقذ الجمعية الوطنية ثم عينته الحكومة قائدًا للجيش الفرنسى فى حرب إيطاليا سنة ١٧٩٦ فظهرت فيه عبقريته الحربية، وبعد انتهاء الحملة على إيطاليا أعقبتها الحملة على مصر كما ترى فى سياق الكلام، وبعد أن عاد نابليون من مصر سنة ١٧٩٩م قلب نظام الحكم فى فرنسا، ونودى به قنصلاً أول ثم إمبراطورًا سنة ١٨٠٤، وساق جيوشه على أوروبا فغلبها على أمرها إلى أن أخذ نجمه فى الأفول، وانتهت حروبه بهزيمته فى واقعة واترلو سنة ١٨١٥ ووقوعه أسيرًا فى يد الإنجليز، فنفوه إلى سنت هيلين وبقى فى هذه الجزيرة النائية بالأقيانوس يعانى غصص النفى وإدبار الدهر إلى أن مات سنة ١٨٢١ (انظر: عبدالرحمن الرافعى، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر،مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،١٩٩٨، ص٦٦، هامش١).

(٢) عبدالرحمن الرافعى، المرجع السابق، ص٦٥- ٦٨.

(٣) نفسه ص٦٨- ٧٥؛

Arthur E. P. Bromeweigall., A History of events in Egypt From 1798 to 1914, London, 1915, pp.23- 25.

(٤) عبدالرحمن الرافعى: المرجع السابق، ص٧٩.

(٥) نفسه، ص٧٩.

(٦) محمد عبدالرحمن حسين: نضال شعب مصر ١٧٩٨- ١٩٥٦، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٧٠، ص١١.

(٧) كانت تسمية الواقعة باسم واقعة إمبابة أقرب إلى الحقيقة لأنها وقعت حول قرية إمبابة، ولكن الفرنسيين أسموها واقعة الأهرام تفخيمًا لها

وتخليدًا لاسمها فى التاريخ، وقد ورد اسمها فى يوميات الجنرال كليبر بأنها واقعة إمبابة أو الأهرام، ولكن الاسم الثانى صار علمًا لها فى التاريخ هو معركة الأهرام ولذلك سميناها باسمها التاريخى (انظر: عبدالرحمن الرافعى، المرجع السابق، ص٨٢، هامش١).

(٨) عبدالرحمن الجبرتى: عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، جـ٣، ص١١.

(٩) روجيه ريجيس: بونابرت فى مصر، ترجمة حبيب جاماتى، القاهرة، ١٩٦٢، ص٥؛ وجيه أبوحمزة: القاهرة فى عهد الحملة الفرنسية، القاهرة، ١٩٩٧، ص١٢١.

(١٠) عبدالرحمن الرافعى: المرجع السابق، ص٨١، ٨٢؛ محمد فؤاد شكرى: عبدالله جاك منو وخروج الفرنسيين من مصر، القاهرة ١٩٥٢، ص٨٧، ٨٨.

(١١) محمد فؤاد شكرى: عبدالله جاك منو وخروج الفرنسيين من مصر، ص٩٠.

(١٢) نبيل السيد الطوخى: صعيد مصر فى عهد الحملة الفرنسية ١٧٩٨-١٨٠١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٧، ص١١٩.

(١٣) عبدالرحمن الرافعى: المرجع السابق، ص٣٥١.

(١٤) نفسه، ص١٥١؛ عبدالعزيز رفاعى: الكفاح الشعبى فى مصر الحديثة صفحات تاريخية من البطولات الشعبية، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٦، ص٣٠.

(١٥) عبدالرحمن الرافعى: المرجع السابق، ص٣٥١.

(١٦) نقولا ترك: مذكرات نقولا ترك: نشرها وترجمها وعلق عليها جاستون فييت، مطبعة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٥٠، ص١٨؛ نبيل الطوخى: المرجع السابق، ص١٢٢.

(١٧) كرستوفر هيرولد: بونابرت في مصر، ترجمة فؤاد أندراوس، مراجعة محمد أحمد أنيس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦، ص١٥٧.

(١٨) عبدالرحمن الجبرتى: مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس، تحقيق وشرح حسن محمد جوهر، وعمر الدسوقى، لجنة البيان العربى، الطبعة الأولى، ١٩٦٩، ص٥٣.

(١٩) محمد عبدالرحمن حسين: المرجع السابق، ص١٤.

(٢٠) عبدالرحمن الرافعى: المرجع السابق، ص٤١٤.

(٢١) نبيل الطوخى: المرجع السابق، ص٢١٧، ٢١٨.

(٢٢) محمد فؤاد شكرى: عبدالله جاك منو وخروج الفرنسيين، ص٢٩٩-٣٠٢.

(٢٣) عمر عبدالعزيز عمر: دراسات فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر(١٥١٧ -١٩١٩) دار المعرفة الجامعية،الاسكندرية،١٩٩٦، ص٥٠.

(٢٤) نفسه: ص٥١.

(٢٥) هنرى لورانس وآخرون: الحملة الفرنسية فى مصر، بونابرت والإسلام، ترجمة بشير السباعى، القاهرة ١٩٩٥، ص٢٣٨- ٢٤٠.

(٢٦) عمر عبدالعزيز عمر: دراسات فى تاريخ مصر، ص٥٤.

---

(٢٧) جلال يحيى: مصر الحديثة (١٥١٧-١٨٠٥) الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،١٩٨٢، ص٤١٥، ٤١٦.

(٢٨) محمد فؤاد شكرى: عبدالله جاك منو وخروج الفرنسيين من مصر، ص١٢٦.

(٢٩) نفسه، ص١٢٧.

(٣٠) جلال يحيى: المرجع السابق، ص٤٢٢.

(٣١) هنرى لورانس وآخرون: المرجع السابق، ص٢٤٦.

(٣٢) عمر عبدالعزيز عمر: دراسات فى تاريخ مصر الحديث، ص٥٦.

(٣٣) جلال يحيى: المرجع السابق، ص٤٣٧- ٤٣٩.

(٣٤) نفسه، ص٤٤١- ٤٤٢.

(٣٥) نفسه، ص٤٤٢، ٤٤٣.

(٣٦) نفسه، ص٤٤٤- ٤٤٦.

(٣٧) حسن عثمان، محمد توفيق: تاريخ مصر فى العهد العثمانى ١٥١٧- ١٧٩٨ نشر فى كتاب المجمل فى التاريخ المصرى ضمن أعضاء هيئة التدريس وإشراف الدكتور حسن إبراهيم، القاهرة، ١٩٤٢، ص٢٩٤، ٢٩٥.

(٣٨) نفسه، ص٢٩٥.

(٣٩) محمد عبدالرحمن حسين: المرجع السابق، ص١٧- ١٩.

(٤٠) عبدالرحمن الجبرتى: عجائب الآثار، جـ٣، ص١٦٢، ١٦٣

(٤١) جلال يحيى: المرجع السابق، ص٤٨٩- ٤٩٠.

(٤٢) عبدالرحمن الرافعى: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم، الجزء الثانى، القاهرة، ١٩٢٩، ص٢١٥، ٢١٦.

(٤٣) محمد فؤاد شكرى: الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر، دار الفكر العربى، القاهرة، د.ت، ص٢٤١.

(٤٤) حسن عثمان: المرجع السابق، ص٢٩٨.

(٤٥) محمد صبرى: تاريخ مصر من محمد على إلى العصر الحديث، صفحات من تاريخ مصر، العدد (١٣)، مكتبة مدبولى، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٦، ص٢٥- ٢٦.

(٤٦) جلال يحيى: المرجع السابق، ص٥٢٨، ٥٢٩.

(٤٧) نفسه، ص٥٣٧- ٥٤١.

(٤٨) محمد صبرى: المرجع السابق، ص٢٦.

(٤٩) عبدالرحمن الرافعى: المرجع السابق، ص٩٣- ١٠٨؛ زين العابدين شمس الدين نجم: إدارة الأقاليم فى مصر ١٨٠٥- ١٨٨٢م، القاهرة، ١٩٨٨، ص١٧، ١٨.

(٥٠) جلال يحيى: المرجع السابق، ص٥٢٩- ٥٣٢.

(٥١) نفسه: ص٥٣٣؛ محمد فؤاد شكرى: عبدالله جاك منو وخروج الفرنسيين من مصر، ص٥٥٥.

(٥٢) جلال يحيى: المرجع السابق، ص٥٣٣.

(٥٣) محمد فؤاد شكرى: عبدالله جاك منو وخروج الفرنسيين من مصر، ص٥٥٥.

(٥٤) جلال يحيى: المرجع السابق، ص٥٣٥، ٥٣٦.

(٥٥) محمد فؤاد شكرى: عبدالله جاك منو وخروج الفرنسيين، ص٥٧١- ٥٧٣.

(٥٦) جلال يحيى: المرجع السابق، ص٥٤١، ٥٤٢.

(٥٧) هنرى لورانس وآخرون: المرجع السابق، ص١٩٨، ١٩٩.

(٥٨) أحمد عزت عبدالكريم: تاريخ التعليم فى عهد محمد على، القاهرة، ١٩٣٨، ص٢٢، ٢٣.

(٥٩) نفسه: ص٢٥، ٢٦.

(٦٠) جلال يحيى: المرجع السابق، ص٥٥٣.

(٦١) محمد عبدالرحمن حسين: المرجع السابق، ص٢١، ٢٢.

(٦٢) ليلى الصباغ : معالم الحياة الفكرية فى الولايات العربية فى العصر العثمانى، ضمن كتاب الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، جـ٢، إشراف وتقدير، أكمل الدين إحسان أوغلى، نقله للعربية/ صالح سعداوى، أستانبول ١٩٩٩، صـ٣٧٠ – ٣٧٢.

(٦٣) عمر عبد العزيز عمر : تاريخ المشرق، صـ٢١٢.

(٦٤) صلاح أحمد هريدى : المرجع السابق، صـ٤٥٨ – ٤٥٩.

(٦٥) نفسه : صـ٤٦٠.

(٦٦) عمر عبد العزيز : تاريخ المشرق، صـ٢١٦، ٢١٧.

(٦٧) عمر العزيز عمر، وآخرون: دراسات فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٣، ص٢٤٥-٢٥٢.

(٦٨) هـ. فشر: تاريخ أوربا فى العصر الحديث (١٧٨٩ – ١٩٥٠) تعريب/ أحمد نجيب هاشم، وديع الضبع، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٤، ص٨٠، ٨١؛ صلاح أحمد هريدى: أوربا من الثورة الفرنسية حتى الحرب العالمية الأولى، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ٢٠٠٧، ص١٠٢.

(٦٩) عبدالعزيز محمد الشناوى: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، الجزء الأول، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٠، ص٢٠٤، ٢٠٥.

(٧٠) نفسه، الجزء الأول، ص٢٠٦، ٢٠٧.

(٧١) عبدالعزيز محمد الشناوى: المرجع السابق، الجزء الأول، ، ص٢٠٨- ٢١١.

(٧٢) عبدالحميد البطريق: عصر محمد على ونهضة مصر فى القرن التاسع عشر (١٨٠٥ – ١٨٨٣) سلسلة تاريخ المصريين، العدد (١٥٥) الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩، ص١٧.

(٧٣) وثائق الخارجية البريطانية عن الحملة الإنجليزية على مصر عام ١٨٠٧ بعنوان:

F. O. Notices of an Expedition to Egypt in the Year 1807, p.3.

(٧٤) جلال يحيى: مصر الحديثة (١٨٠٥ – ١٨٤٠) الهيئة المصرية العامة للكتاب، فرع الإسكندرية، ١٩٨٣، ص١٣٥.

(٧٥) **F. O. Notices of an Expedition to Egypt in the Year 1807, p.5.**

(٧٦) عبدالحميد البطريق: المرجع السابق، ص١٧، ١٨؛ جى فارجيت: محمد على مؤسس مصر الحديثة، ترجمة/ محمد رفعت عواد، المجلس الأعلى للثقافة، العدد (٤٩٢)، القاهرة، ٢٠٠٣، ص٤٠.

(٧٧) صلاح أحمد هريدى: دراسات فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر (١٢٢٠ – ١٣٠٠هـ/ ١٨٠٥ – ١٨٨٢) دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠٦، ص٢١، ٢٢.

(٧٨) سيد رجب حراز: المدخل إلى تاريخ مصر الحديث من الفتح العثمانى إلى الاحتلال البريطانى (١٥١٧ - ١٨٨٢) دار النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٠، ص١٩٠، جلال يحيى: المرجع السابق، ص١٤١.

(٧٩) جلال يحيى: المرجع السابق، ص١٤١.

(٨٠) صلاح أحمد هريدى: دراسات فى تاريخ مصر، ص٢٣.

(٨١) جلال يحيى: المرجع السابق، ص١٤١- ١٤٣؛ محمد محمود زيتون: إقليم البحيرة، صفحات مجيدة من الحضارة والثقافة والكفاح، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٢، ص٤٢٢، ٤٣٢.

(٨٢) صلاح أحمد هريدى: دراسات فى تاريخ مصر، ص٢٣؛ سيد رجب حراز: المرجع السابق، ص١٩١.

(٨٣) صلاح أحمد هريدى: دراسات فى تاريخ مصر، ص٢٤؛ عصام محمد شبارو: المقاومة الشعبية المصرية للاحتلال الفرنسى والغزو البريطانى، دار التضامن، بيروت، ١٩٩٢، ص١١٧؛ محمد صبرى: تاريخ مصر من محمد على إلى العصر الحديث، الطبعة الثانية، مكتبة مدبولى، القاهرة ١٩٩٦، ص٣٤؛ ولمزيد من التفاصيل حول هزيمة الإنجليز فى رشيد (انظر: **F. O. Notices of an Expedition to Egypt in the Year 1807, pp.6 – 12.**)

(٨٤) ٢١ محرم ١٢٢٢هـ/ ٣١ مارس ١٨٠٧، لمعرفة التاريخ الهجرى بما يوافقه بالميلادى انظر:

www. 6abib.com/ conv.htm ؛ وأيضًا ف. ويستنفلد: جدول السنين الهجرية بلياليها وشهورها بما يوافقها من السنين الميلادية بأيامها

وشهورها ترجمة/ عبدالمنعم ماجد، عبدالمحسن رمضان، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٠، ص١٠٦، ١٠٧).

(٨٥) عبدالرحمن بن حسن الجبرتى: عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، الجزء الرابع، تحقيق عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٨، ص٧٨.

(٨٦) صلاح أحمد هريدى: دراسات فى تاريخ مصر، ص٢٤.

(٨٧) عصام محمد شبارو: المرجع السابق، ص١١٨؛ جلال يحيى: المرجع السابق، ص١٤٥، ١٤٧.

(٨٨) **F. O. Notices of an Expedition to Egypt in the Year 1807, p.18.**

(٨٩) عبدالرحمن الجبرتى: المصدر السابق، الجزء الرابع، ص٨٢، ٨٣.

(٩٠) محمد مورو: صفحات من كفاح الشعب المسلم فى مصر (١٧٩٨ – ١٨٠٧م) الزهراء للإعلام العربى، القاهرة، ١٩٩٢، ص٢٦٨؛ عصام محمد شبارو: المرجع السابق، ص١١٨.

(٩١) صلاح أحمد هريدى: دراسات فى تاريخ مصر، ص٢٥؛ جلال يحيى: المرجع السابق، ص ؛ محمد محمود زيتون: المرجع السابق، ص٤٣٦.

(٩٢) عصام محمد شبارو: المرجع السابق، ص١١٩.

(٩٣) جلال يحيى: المرجع السابق، ص١٥٧– ١٦٣.

(٩٤) عبدالرحمن الجبرتى: المصدر السابق، الجزء الرابع، ص١٠٩.

(٩٥) جلال يحيى: المرجع السابق، ص١٦٣؛ عصام محمد شبارو، المرجع السابق، ص ١٢٠، محمد مورو، المرجع السابق، ص ٢٧٠.

(٩٦) عبدالحميد البطريق: المرجع السابق، ص١٩، ٢٠.

الفصل السادس

العالم العربى خلال الربع الأول من القرن العشرين

أولاً : مراسلات الحسين مكماهون .

ثانيًا : إتفاقية سايكس بيكو .

ثالثاً : العرب والصهيونية .

الفصل السادس

العالم العربى خلال الربع الأول من القرن العشرين

أولاً : مراسلات الحسين مكماهون

قلب إحتلال كل من قبرص ومصر الأوضاع رأساً على عقب، فمنذ ذلك الوقت أخذت بريطانيا تثبت مركزها فى الشرق العربى وتفكر جدياً فى تقسيم الدولة العثمانية. وساءت العلاقات بين الدولة العثمانية وبريطانيا إثر إحتلال الأخيرة لمصر ووضوح سياستها الحقيقية. ولذلك شهدت السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر حلول ألمانيا محل بريطانيا وتوثق علاقاتها مع الباب العالى. وأحدثت سياسة القيصر الألمانى غليوم الثانى، التى كانت تعرف بسياسة ((الزحف شرقاً))، أحدثت تغيراً واضحاً فى السياسة الألمانية بالنسبة للدولة العثمانية بعد أن ظل بسمارك سنوات بجانب التدخل فى المسألة الشرقية. وأخذ الغلغل الألمانى أشكالاً متعددة عسكرية وإقتصادية وثقافية ونفسية. وأوجست بريطانيا خيفة من المشروعات الألمانية التى أبدتها فى أول الأمر، كخط سكة حديد بغداد وتوسع الرأسمالية الجرمانية فى الدولة العثمانية، وإهتمام الحكومة الألمانية بتقوية أسطولها التجارى والحربى حتى أصبحت بريطانيا تخشى على سيادتها البحرية. والواقع أن النفوذ الألمانى والتغلغل الإقتصادى فى الدولة العثمانية كانا نقطة تحول هامة فى تاريخ المسألة الشرقية فى العصر الحديث. فزيارة القيصر الألمانى للأماكن المقدسة فى فلسطين عام ١٨٩٨، كانت مظاهرة سياسية لإظهار النفوذ الألمانى فى الشرق العربى والتقرب إلى العرب وإستمالتهم. وأثارت سياسة ألمانيا فى الشرق مخاوف بريطانيا وفرنسا وروسيا، فأدى ذلك إلى التوفيق بين المصالح المتضاربة والمنافسات العنيفة بين الدول الكبرى بطريق التحالف. وكان من نتائج ذلك توقيع الإتفاقيات الودية بين بريطانيا

وفرنسا فى عام ١٩٠٤، وبين بريطانيا وروسيا عام ١٩٠٧ للإنصراف إلى مجابهة الخطر الألمانى[١].

ومن ناحية أخرى، أدى الإستياء من إستبداد السلطان عبد الحميد وتفتت الإمبراطورية العثمانية إلى ظهور ((تركيا الفتاة)) وجمعيتها القوية ((جمعية الإتحاد والترقى)). وفى يوليو عام ١٩٠٨ إستسلم عبد الحميد للثوار وأعلن إعادة دستور عام ١٨٧٦، ولكنه كان يبيت النية على التخلص من تركيا الفتاة، ومن الدستور، ومن البرلمان، ولم يتحقق أمل عبد الحميد إذ خلع فى العام التالى ونفى إلى سالونيكا. ومنذ ذلك الوقت حتى قيام الحرب العالمية الأولى، كان الإتحاديون مسيطرين على الحكم فى تركيا بزعامة أنور باشا، ثم دخلوا الحرب فى جانب ألمانيا. وحتى عشية قيام الحرب العالمية الأولى لم يبد أن بريطانيا قد رسمت خططاً خاصة فيما يتعلق بمستقبل العالم العربى. ففى عام ١٩١٣ أرسل إدوارد جراى، وزير خارجية بريطانيا، إلى سفيره فى إستانبول يقول : ((هناك مسألة على جانب من الخطورة تنطوى عليها سياستنا، إذ أن سياستنا الوحيدة التى يمكن لنا أن نشترك فيها هى السياسة التى من شأنها أن تمنع إنهيار تركيا الآسيوية وتقسيمها. وإذا إتبعنا سياسة معاكسة لهذه السياسة فإن أثرها فى مسلمى الهند سيخلق لنا حالة تنذر بكارثة، هذا عدا التعقيدات التى ستخلقها هذه السياسة فى علاقات الدولة الأوروبية)). وفى العام التالى، كان جراى يرى تشجيع وتأييد العرب للسيطرة على بلادهم والأماكن المقدسة بها إذا ما أعلنت تركيا الحرب فى جانب ألمانيا وأن " وزارة الهند أدرى بتنفيذ هذه السياسة وإدارتها سواء من عدن أو أي مكان آخر وبالطرق التي تستخدم لنجاحها " [٢].

وعندما دخلت الإمبراطورية العثمانية الحرب بجانب دول الوسط (ألمانيا والنمسا والمجر)، اتخذت الحكومة البريطانية الإجراءات اللازمة

لحماية المصالح البريطانية التي تهددت بسبب هذا التطور في موقف الدولة العثمانية . وكان من الطبيعي أن تهاجم بريطانيا الدولة العثمانية بواسطة راعاياها من العرب ففي ٤ سبتمبر ١٩١٤، وقبل دخول الدولة العثمانية للحرب، كتب السفير البريطاني في استانبول معلنًا موافقته على "خطة تأييد وتنظيم حركة عربية ضد تركيا إذا ما اتخذت الأخيرة موقفًا عدائيًا واضحًا وأصبح حربها أمر لا مفر منه سواء أكان هذا التأييد للعرب مباشرًا أم غير مباشر" . وفي ٧ نوفمبر ١٩١٤، أصدر خيري بن عوني الأركوبي، شيخ الإسلام في استانبول، فتوى يعلن فيها أن الواجب المفروض على جميع المسلمين (وفيهم الخاضعون لحكم بريطانيا وفرنسا وروسيا) هو الاتحاد ضد هذه الدول أعداء الإسلام وأن يرفضوا مساعدة الحلفاء في هجومهم على الدولة العثمانية . وأصدر العثمانيون كذلك كتيبات حوت الدعوة إلى الجهاد وحثت المسلمين على أن يتحدوا ضد أعداء الإسلام وأن يمتنعوا عن تقديم أية مساعدات لهم . وكان هدف العثمانيين من ذلك أن يتأثر العالم العربي بدعوة الجهاد فينحاز أمير مكة والعرب مختارين إلى صفوفهم ضد الحلفاء . ولقد أيقن الحلفاء عامة والبريطانيون بوجه خاص إزاء دعوة الجهاد وإزاء الدعاية العثمانية بضرورة البحث عن رئيس صوري للمسلمين لمقاومة نفوذ السلطان العثماني (٣).

وكان الشخص المرشح للقيام بهذا الدور هو الشريف حسين بن علي الهاشمي، أمير مكة، وأخذ الإنجليز يمنونه بمستقبل باهر ويلوحون له بمنصب الخلافة . وتوقع الحسين، نتيجة لذلك، أن يؤسس دولة عربية إسلامية كبيرة " تضم تحت نفوذه الأجزاء العربية من الهلال الخصيب وفي الجزيرة العربية " . ولقد حاول الحسين قبل ذلك أن يوقف كل تدخل من جانب حكومة الإتحاديين قد يؤثر على مركز حكومته الذاتية فى مكة، ولكن

ذلك آثار غضبهم عليه. ومن ناحية أخرى، شعر الشريف حسين أنـه لـن يستطيع مقاومة الدولة العثمانية بمفرده، وأنه من الضرورى الحصول على مساعدة دولة كبرى لتحقيق ذلك، وإعتقد أن بريطانيا تستطيع أن تقوم بمثل هذه الدور. ولقد تمت الإتصالات بين الشريف حسين والبريطانيين فى عام ١٩١٢ عندما تمت أول مقابلة بين عبد الله، الإبن الثانى للشـريف حسـين (ملك المملكة الأردنية الهاشمية فيها بعد)، وبين اللورد كتشـنر، المعتمـد البريطانى فى مصر. ولقد كان للشريف حسين ثلاثة أبناء هم علي، وكـان الحسين يطمع فى تعيينه ولياً للعهد، وفيصل، وكان أكثر الأبناء نشاطاً وتعلقاً بفنون الحرب، أما عبد الله، وهو الإبن الأوسط، فكان ماكراً ومحباً للخطابة والسياسة. وعهد إليه الحسين بمعالجة الأمور الدقيقة فى الإدارة السياسـية، ووقع إختياره عليه عندما إحتاج الأمر إلى نائب يمثل مكـة فـى مجلـس المبعوثان.

وأثناء مروره بمصر فى طريقه إلى الآستانة أو العكس، تبادل عبد الله الزيارات مع المندوب السامى البريطانى وبعض الموظفين البريطـانيين لا سيما السير رونالد ستورز السكرتير الشرقى بدار المنـدوب السـامى فـى مصر. وفى أول الأمر، اطلع عبد الله كتشنر، وكان ذلـك فـى حضـور ستورز، على توتر العلاقات بين العثمانيين ووالده. وكان الحـديث شـيق بالنسبة للبريطانيين الذين حاولوا جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات حول إمكانية قيام العرب بالثورة ضد الحكم العثمانى. وتوالت إتصالات سـتورز بعبد الله الذى تحدث معه بصراحة تامة عن خطورة الحالـة فـى الحجـاز والإستعدادات التى يقوم بها والده لمواجهة الإنفصال النهائى بيـنهم وبـين الأتراك. ولقد وجد ذلك التفكير هوى فى نفس كتشنر الذى كان يحلم بفصل الجزء الممتد من حيفا وعكا على البحر المتوسط وينتهى فى خليج العقبـة

على البحر الأحمر عن الدولة العثمانية ووضعه تحت الحماية البريطانية لكى يؤمن إمتداد النفوذ البريطانى بدون إنقطاع من مصر إلى الخليج العربى. وهكذا نجد أن كتشنر قد تخيل نفس الإحتمالات التى فكر فيها الزعماء العرب(٤).

وعليه فالعوامل المتعلقة بقيام الثورة العربية متعددة إذن. هناك مشاعر القومية العربية النامية حينئذ تغذيها وتلهبها الجمعيات العربية من ناحية وموقف الأتراك من ناحية أخرى، وهناك الشريف حسين بآماله ومطامحه. فحسين كان يحكم مكة والمدينة ويحقد فى نفس الوقت على السيادة العثمانية التى تجعله تابعاً لتركيا من الناحية الإسمية. وهو لذلك يميل إلى الإستعانة بالنفوذ البريطانى القابع فى مصر لحمايته من بطش الأتراك وللإستقلال عنهم. وهو يمارس نشاطه بكل حيطة وحذر متبعاً وسائل دبلوماسية ملتوية. والإنجليز من جانبهم يتبعون نفس طريق الحذر فى إتصالهم بالحسين، وهو إتصال كان مستتراً من فبراير ١٩١٤، طالما بقى العثمانيون على الحياد فى هذه المعمعة التى وجدت أوروبا نفسها منساقة إليها فى صيف عام ١٩١٤. والبريطانيون كانوا حينئذ يبذلون قصارى جهدهم لإبقاء تركيا على الحياد، ويعرضون فى سبيل ذلك ضماناً بإستقلال ووحدة الإمبراطورية العثمانية، كما يعرضون أموراً أخرى لصالح العثمانيين وخاصة بالإمتيازات الأوروبية فى الإمبراطورية. ولكن بخروج تركيا عن حيادها وضربها الموانئ الروسية فى البحر الأسود بالإشتراك مع الأسطول الألمانى فى أكتوبر ١٩١٤، وإعلان إنجلترا وفرنسا الحرب على تركيا فى نوفمبر ١٩١٤ إنضم البريطانيون تماماً إلى الجانب العربى، على تحرير العرب من قيودهم. وكانت خدعة بريطانية موفقة(٥).

والحسين من جانبه يتصل فى نفس الوقت بالجمعية العربية الفتاه فى أوائل عام ١٩١٥ حول إمكان تدبير ثورة عربية، ويرسل إبنه فيصل للإتصال بالزعماء السوريين، ومنه يعلم أعضاء جمعيتى ((العربية الفتاه)) و((العهد)) أن الحسين على إتصال بالإنجليز. ورغم موقف كل من الجمعيتين من كل من التدخل الأوروبى والسيطرة التركية فى العالم العربى، فقد حدث التجاوب بين دعوة الحسين وبين الجمعيتين فيما يتعلق بالثورة – أو بالأحرى بالمؤامرة ضد الدولة العثمانية التى تبنتها وغذتها وتابعت تنفيذها إنجلترا. فلدى نشوب الحرب العالمية الأولى وقبل دخول تركيا الحرب إتخذت اللجنة العليا للجمعية العربية الفتاه قراراً لصالح قضية الإستقلال. ولكنها فى نفس الوقت تقرر العمل إلى جانب تركيا وإذا ما إستدعى الأمر منع التدخل الأوروبى على أية صورة. كذلك يحذر عزيز المصرى – من مصر – قادة ((العهد)) من القيام بعمل عدائى ضد الدولة العثمانية. ونلحظ أن كلا من ((الفتاه)) و((العهد)) ظلت تجهل وجود الأخرى، فكل منهما كان له مجاله المتباين فى العمل؛ الأولى كمنظمة مدنية والأخرى عسكرية. ولكن الإتصال بينهما يحدث فى دمشق عام ١٩١٥ ويسخران مواردهما سوياً لإثارة الثورة العربية. وعلى ذلك تعد كل من ((الفتاه)) و((العهد)) بروتوكولاً مشتركاً (مايو ١٩١٥) حول إحتمال قيام ثورة عربية ضد تركيا بشرط أن تعترف إنجلترا بقيام دولة عربية مستقلة تشمل بلاد العرب – فيما عدا عدن – وسورية والعراق، وحدد البروتوكول حدود هذه الدولة شمالاً بالخط الواصل من مرسين إلى أدنه ثم أورفا وماردين حتى حدود فارس. أما الحد الشرقى فهو الحدود الفارسية حتى الخليج العربى، ثم المحيط الهندى جنوباً، والبحر الأحمر ثم البحر المتوسط غرباً حتى مرسين. كذلك عرض البروتوكول إلغاء الإمتيازات الأجنبية،

على أن تعقد معاهدة دفاعية بين بريطانيا والدولة العربية المقترحة وتمنح بريطانيا حق الدولة الأكثر رعاية فيما يتعلق بالأمور الإقتصادية. ونقل فيصل هذا البيان إلى والده.

وهكذا يرسل الشريف حسين (يوليو ١٩١٥) مذكرته الأولى إلى السير هنرى مكماهون، المندوب السامى البريطانى فى مصر، متضمنة المطالب التى وردت فى البروتوكول المشترك للفتاة والعهد، مضيفاً إليها طلب الموافقة على خلافة عربية للمسلمين. وهذه المذكرة هى بداية هذه المراسلات الشهيرة التى عرفت بإسم ((مراسلات حسين – مكماهون)) والتى إستمرت حتى شهر يناير ١٩١٦. وهذه المراسلات هى واحدة من إتفاقيات وتصريحات حول مصير الشرق الأدنى العربى يناقض بعضها البعض[٦].

وقد سوفت إنجلترا أول الأمر فى الموافقة على ذلك العرض، ومع ذلك ظلت مفاوضات الحسين – مكماهون مستمرة، وفى إبان ذلك يشجع الإنجليز العرب بما يبعدهم عن تركيا ويرضى بعض مطالبهم، ولا يخسر الإنجليز بذلك شيئاً فى نفس الوقت. فهم يسرعون بإبداء موافقتهم على إرجاع الخلافة الإسلامية إلى عربى من نسل الرسول الشريف ويبدون رغبتهم فى ((إستقلال البلاد العربية وسكانها)) (أعسطس ١٩١٥). ولكن عندما تحرج موقف إنجلترا الحربى وشعرت بحاجتها إلى مساعدة العرب أرسل المندوب السامى فى مصر مذكرة إلى الحسين (٢٤ تشرين الأول – أكتوبر ١٩١٥) يجيب فيها على عروض الحسين بشأن الدولة العربية المقترحة على شكل تصريحات من الحكومة البريطانية يبلغها – بتكليف منه – إلى الحسين. وأهم ما جاء فى تلك التصريحات خاصاً بالامانى العربية[٧] :

أولاً : تعتبر الحكومة البريطانية أن مناطق مارسين والإسكندرونة (والأولى كانت تابعة لولاية أدنه والثانية لولاية حلب) وكذلك أجزاء من سورية واقعة إلى الغرب من دمشق وحمص وحماه (وهذه كانت تابعة لولاية سورية التى كانت دمشق عاصمتها)، وأجزاء أخرى واقعة غرب حلب – تعتبر الحكومة البريطانية أن هذه المناطق ليست عربية خالصة ويجب إستبعادها من الحدود المطلوبة. وفيما عدا ذلك من حدود – وبشرط ألا يتعارض ذلك مع إتفاقات الإنجليز مع بعض زعماء العرب أو مصالح حليفتها فرنسا – تبدى الحكومة البريطانية إستعدادها لقبول إستقلال العرب فى كل المناطق التى ذكرها شريف مكة.

ثانياً : تتعهد الحكومة البريطانية ((بضمان الأماكن المقدسة ضد كل عدوان خارجى)) كما تتعهد بالإعتراف ((بإلتزامها بحفظهم من كل عدوان)).

ثالثاً : تتعهد الحكومة البيريطانية – حينما تسمح الظروف – بمساعدة العرب بالنصح والمشورة كما تساعدهم على تأسيس حكومات تناسب المناطق المختلفة. على أن يكون مفهوماً أن العرب فى ذلك سوف لا يستعينون بغير الإنجليز.

رابعاً : على العرب أن يعترفوا – فيما يتعلق بولايتى بغداد والبصرة – بأن مركز بريطانيا ومصالحها هناك سوف يستدعيان إقامة ((تدابير إدارية خاصة)) لحماية هذه المناطق من العدوان الخارجى، والعمل على تقدم سكانها.

خامساً : نتيجة لكل ذلك يمنى الإنجليز النفس بتحالف قوى وأزلى مع العرب، وهو تحالف يرى الإنجليز أن من أولى نتائجه المباشرة طرد الأتراك من البلاد العربية وتحرير العرب من النير التركى.

وتعددت المراسلات بين الحسين ومكماهون، وهى مراسلات تحمل فى طياتها وعوداً وإتفاقات أكثر مما تحمل من إختلاف فى وجهات النظر. ففى ٥ نوفمبر ١٩١٥ يرسل الشريف حسين إلى مكماهون يعترض على إخراج ولاية حلب وبيروت والسواحل المواجهة لهما من الدولة المقترحة. فهذه مناطق عربية خالصة ولا فرق بين العربى المسلم والعربى المسيحى، ولكنه فى نفس الوقت لا يعارض فى إستبعاد ولاية أدنه ومارسين. وفيما يتعلق بالعراق - وكانت القوات البريطانية تحتل البصرة ومنطقتها بالفعل - فالحسين يذكر الإنجليز بأنها كانت مركز الدولة الإسلامية ومهد الحضارة الإسلامية. ويبدو أن الحسين كان يبغى قيام ثورة عربية تحرر البلاد العربية مستعينة بالإمكانيات البريطانية، بينما كان الإنجليز يهدفون إلى طرد الأتراك من المنطقة العربية ووراثة هذا الجزء من الإمبراطورية العثمانية، مستعينين بثورة عربية لتحقيق هذا الهدف. وهم لهذا يتعجلونه البدء بالعمليات، وهو يمهلهم خشية أن يسئ العرب فهم الثورة، ويعتقدون أنه - أى الحسين - بهذا إنما يحطم الإسلام، فيناشدونه الإسراع ((بتجميع الشعوب العربية حول قضيتنا المشتركة وحثهم على الإمتناع عن مساعدة أعدائنا - أى الأتراك - على أى صورة من الصور)). وفيما يتعلق بمسألة حلب ومنطقة بيروت يحاول مكماهون تجنب الدخول فى مناقشات حولها ويرجئ البت فى مصيرهما لحين الوصول إلى إتفاق مع فرنسا بشأنها. وهو أيضاً يؤكد - بتفويض من الحكومة البريطانية - أن بريطانيا لا تنوى إبرام أى

صلح إلا إذا كان يتضمن شروطاً أساسية تتناول حرية ((الشعوب العربية)) وتحريرهم من السيادة التركية والألمانية.

والشريف حسين، مع إصراره على المطالبة بالمناطق الشمالية من سورية وسواحلها، فهو يوافق على تحفظات مكماهون هناك والخاصة بمصالح الفرنسيين، وذلك على إعتبار أنها ضرورة مؤقتة من ضرورات الحرب يتجنب بها ما قد يمس التحالف بين إنجلترا وفرنسا أو الإتفاق بينهما إبان الحرب. ولكنه يلفت نظر مكماهون فى نفس الوقت إلى انه سوف يطالب – فى أول فرصة بعد الحرب – بما يتنازل عنه الحسين مؤقتاً لفرنسا فى بيروت العون فى الحركة.

من ذلك نلحظ، أولاً : حاجة بريطانيا الشديدة لضم العرب إلى جانبها ضد الأتراك، وهى فى سبيل ذلك تبدوا كريمة فى منح وعودها للعرب. ثانياً : هناك أمور كان لابد أن تكون موضع خلاف بين الحسين والإنجليز مثل العراق التى كانت إنجلترا تحتل بالفعل أجزاء منها، وشمال سوريا وسواحلها التى لم تكن إنجلترا تملك منح وعود بشأنها. فلجأت إنجلترا إلى التقليل من شأن هذه الأمور، وتجنب الدخول فى مناقشات حولها، وإرجاء الأمر إلى ما بعد النصر، والتركيز على ((القضية المشتركة)) لكل من العرب والإنجليز أى طرد الأتراك. ثالثاً : كانت إنجلترا بذلك تعمل على تجنب إغضاب فرنسا على حساب العرب. رابعاً : لم تكن هناك أية إشارة إلى فلسطين أو وجود أى تحفظ بشأنها، إذ كان من المفهوم ضمناً أنها تدخل فى نطاق المناطق العربية التى وافقت إنجلترا على تحريرها والإعتراف بها عربية مستقلة[٨].

ثانياً : إتفاقية سايكس بيكو

هى جزء من إتفاقيات سرية بين إنجلترا وفرنسا وروسيا تمت على شكل خطابات متبادلة بين هذه الدول حول ما يخص كل دولة من غنيمة من أملاك الدولة العثمانية. وفيما يتعلق بالجانب الفرنسى الإنجليزى فقد تم الإتفاق عليه في ١٦ مايو ١٩١٦. وهذا يهدف إلى تحديد مناطق النفوذ لكل من فرنسا وإنجلترا فى الشرق العربى. وتعمل هذه الإتفاقية على تقسيم الهلال الخصيب إلى مناطق نفوذ : الشريط الساحلى للبنان وسيلسيا يؤول إلى فرنسا – على أن تكون الإسكندرونة ميناء حراً بالنسبة لتجارة الإمبراطورية البريطانية – ويستقل ما عدا ذلك إلى الشرق ولكنه يبقى فى منطقة النفوذ الفرنسية. أما بغداد والبصرة فتكون من نصيب بريطانيا، بينما تستقل هذه المنطقة التى عرفت فيما بعد باسم شرق الاردن وكذلك جزء من ولاية الموصل. وتمارس بريطانيا فى هذه المنطقة نفس الحقوق التى تمارسها فرنسا فى سورية. أما فلسطين، فتقام فيها إدارة دولية يتفق على صورتها بعد التشاور مع الروسيا وموافقة باقى الحلفاء وممثلى شريف مكة، ولكن مع بقاء مينائى حيفا وعكا فى أيدى الإنجليز، وتكون حيفا ميناء حراً بالنسبة لتجارة فرنسا وإنجلترا – فى منطقة نفوذ كل – حق الأولوية فى تقديم القروض، والقيام بالمشروعات، وتقديم المستشارين الأجانب والموظفين، وذلك بناء على طلب الدولة العربية أو إتحاد الدول العربية المزمع قيامه والإعتراف به بعد الحرب(٩).

ونلحظ أن هذا الإتفاق يمنح الإستقلال لمناطق فى العالم العربى أقل تعليماً وإستعداداً لقبول الإستقلال من هذه المناطق التى تحصل عليها بريطانيا وفرنسا – كبغداد وبيروت. من ناحية أخرى تتضح وهمية هذا الإستقلال بدخول المناطق المستقلة فى مناطق النفوذ. ثالثاً : هذا

((الإستقلال)) يحطم وحدة المنطقة ويحولها إلى أجزاء ممزقة بالإستقلال الوهمى أو بمناطق النفوذ. رابعاً : بهذا الإتفاق تتحقق مخاوف السلطان العثمانى القديمة (١٨٨٨) حينما كان يشك ويخشى إتفاق فرنسا وإنجلترا بخصوص مصر وسورية.

وأما ما جاء خاصاً بفلسطين فى هذه الصفقات، فقد رأته إنجلترا أفضل حل لهذه المشكلة حينئذ. فالمفاوضات كانت قد تعثرت حيناً لأن كلاً من الدول الثلاث كانت ترغب فى الإحتفاظ بفلسطين لها. فرأت إنجلترا ألا تتمسك بفلسطين حتى لا تثير عناد الروسيا وفرنسا وأن تقنع فرنسا والروسيا عوضاً من ذلك بقبول إقامة إدارة دولية فى فلسطين يتفق على شكلها بعد الحرب.

ومثل هذا الإجراء كان من المفروض أن يخدم القضية الصهيونية، فلن يكون من العسير على اليهود حينئذ التسلل إلى فلسطين فى ظل الإدارة الدولية. فالصهيونيون كانوا يعارضون بشدة محاولات فرنسا لإمتلاك فلسطين.

وقد ظل الإتفاق سارياً حتى قيام الثورة البلشفية فى الرويسا (نوفمبر ١٩١٧) فنشرته الحكومة الجديدة فى الروسيا. وأسرعت السلطات التركية بإبلاغ الشريف حسين بفحوى ذلك الإتفاق مبينة له أن العرب قد خدعوا بوعود كاذبة، ومقدمة له عروض الصلح ... ولكن حسين رفض الصلح مع الأتراك، ودل بذلك على إخلاصه فى إرتباطه بقضية الحلفاء. وهو كذلك يرسل بالمراسلات التركية إلى المندوب السامى البريطانى فى مصر يطلب تفسيراً لما جاء بها.

وأرسلت الحكومة البريطانية إلى الشريف حسين – وقد إعترفت به الآن ملكاً وصارت تخاطبه بصاحب الجلالة – معبرة عن شكرها وإمتنانها لإخلاصه وإرساله المراسلات التركية إلى مندوبها السامي في مصر. وأرسل الممثل البريطاني في جده (٨ فبراير ١٩١٨) – مكلفاً من قبل المندوب السامي البريطاني في مصر ونجت – بنص برقية وزارة الخارجية البريطانية إلى الملك حسين. وفي البرقية تندد الحكومة البريطانية بسياسة تركيا التي تدعو إلى التفرقة بين العرب، وتؤكد أن بريطانيا وحلفاءها ((سوف تقف بثبات بجوار كل قضية تهدف إلى تحرير الشعوب المناهضة، وهي مصممة على الوقوف إلى جانب الشعوب العربية في كفاحهم من أجل إنشاء عالم عربي يحل فيه القانون محل الفوضى العثمانية، وتسود فيه الوحدة فتقضي على المنافسات المصطنعة التي كانت تثيرها سياسة السلطات العثمانية)).

ونلحظ في رد ونجت على الشريف حسين – في برقيته إلى حسين التي سبقت رد حكومته – مزيجاً من الكذب والمغالطة وإغفال جوانب من الحقيقة. فهو يقول أن هذه الوثائق التي وجدت بالخارجية الروسية ونشرت لا تتضمن إتفاقاً بين الدول الثلاثة. من ناحية أخرى يشير ونجت إلى أن هذه الوثائق لا تعدو تسجيلاً لوجهات نظر ومحادثات بين الدول الثلاث حدثت في الأيام الأولى للحرب وقبل قيام الثورة العربية بقصد تجنب المصاعب بين الدول الثلاث إبان تكتلهم في خوض غمار الحرب ضد تركيا[١٠].

ثالثاً : العرب والصهيونية

يقول ثيودور هرتزل هل نختار فلسطين ام الأرجنتين؟ إننا سنأخذ ما يعطى لنا، وما يختاره الرأى العام اليهودى، وسوف تقرر الجمعية كلا

الأمرين، إن الأرجنتين من أكثر بلاد العالم خصوبة، وهـي تمتـد علـى مساحات شاسعة وفيها عدد قليل من السكان، ومناخها معتدل. وجمهوريـة الأرجنتين سوف تحصل على مكاسب كبيرة إذا تنازلت لنا عن قطعة مـن أراضيها. ولعل التسلل الحالي لليهود أثمر بعض الإستياء، ومن الضروري أن نوضح للجمهورية أن الحركة الجديدة تختلف إختلافـاً جوهريـاً، أمـا فلسطين فإنها وطننا التاريخي الذي لا تمحي ذكراه، إن اسم فلسطين في حد ذاته سيجتذب شعبنا بقوة ذات فعالية رائعة. فإذا منحنـا جلالـة السلطان فلسطين سنأخذ على عاتقنا بالمقابل تنظيم مالية تركيا. ومن هنا سوف نشكل جزءاً من إستحكامات أوروبا في مواجهة آسيا كموقع أمامي للحضارة فـي مواجهة البربرية. وعلينا – كدولة طبيعية – أن نبقى علـى إتصـال بكـل أوروبا التي سيكون من واجبها أن تضمن وجودنـا، إن مـلاذات العـالم المسيحي يجب صيانتها بتحديد مكانة إقليمية إضافية لها مما هو معروف في قانون الأمم. وعلينا أن نشكل حرس شرف حول هذه المـلاذات بغـرض تحقيق هذا الواجب فيما يختص بوجودنا. وسيكون حرس الشرف هذا هـو الرمز العظيم لحل المشكلة اليهودية بعد ثمانية عشـر قرنـاً مـن معانـاة اليهود[١١].

وعلى الرغم من الحظر الذي فرضه السلطان عبد الحميد الثاني علـى هجرة اليهود إلى فلسطين إستطاع عشرون شاباً من يهود الروسيا الوصول إليها عام ١٨٨٢ كانوا رواداً في ميدان التوطين والإستغلال. وكانـت أول مستعمرة تدعى ((ريشون لوزيون)) أي الأولى في صهيون، ثم تعاقب إنشاء مستعمرات مشابهة بجوار يافا، ثم قام يهـود روسـيون آخـرون بإقامـة مستعمرة ((بتاح تكفا)) أي باب الأمل في ذات المنطقة، وفي الوقـت ذاتـه أسس يهود من رومانيا مستعمرين زراعيتين إحداهما في ((ريـش بتـاح))

(الحجر الأساسى) بالقرب من صفد، والأخرى فى سامارين علـى طريـق حيفا، وقام بعض يهود من بولندا بإنشاء مستعمرة بيسود حمـالاه (أسـاس الصعود) بالقرب من الحولة. وعلى هذا النحو إستقر اليهود فى وقت قصير فى أربع مناطق : يهوداً، والسامرة، وشمالى الجليل، وجنوبيه حيث تجمعت فيها أغلب المستعمرات اليهودية. ولم يكن أمراً سهلاً إنشاء هذه المستعمرات وبقاؤها لأن هؤلاء اليهود وغالبيتهم من دول أوروبية لم يعتـادوا الجهـد البدنى الذى تتطلبه فلاحة الأرض وموالاة العناية بها، كما كان الجو الحـار نسبياً عائقاً لهم، وكانوا يتعرضون لهجمات العرب من وقت لآخر كـإجراء مضاد للنشاط اليهودى[١٢].

وكان من المحتمل أن يفشل مشروع المستعمرات اليهودية فى فلسطين فى أواخر القرن التاسع عشر. لأنه بجانب هـذه العوامـل المعوقـة كـان المشروع فى حاجة ماسة إلى جهات مالية تقوم بتمويله. وقد وجـد أولئـك اليهود مساعدات مالية من ثرى يهودى فرنسى هـو البـارون إدمونـد دى روتشيلد (١٨٤٥ – ١٩٣٤) ظل يوالى هذه المستعمرات بتقديم منح سـخية طيلة خمسين عاماً، كما أسس مستعمرة تدعى عكرون فى الضفة الغربيـة لنهر الأردن أسكن فيها بعضاً من اليهود الذين تسللوا من جنوبى الروسـيا. وقد أظهر هؤلاء اليهود وفاءهم لكرم هذا الثرى فغيروا اسم مستعمرتهم إلى زكرون يعقوب تخليداً لذكرى والد البارون إدموند. وفى ذات الوقـت قـام تسعة من أعضاء ريثون لوزيون بإنشاء مستعمرة جديدة سـميت قطـرة أو جدارة فى يهودا وجعلوها ذات إكتفاء ذاتى.

ومضى البارون إدموند دى روتشيلد فى تمويل عمليات التسلل اليهودى إلى فلسطين إبتغاء توطين اليهود فيها على الرغم من الحظر الـذى أقامـه الباب العالى على دخول اليهود إلى فلسطين. وفى الفترة مـن ١٨٩٠ إلـى

١٨٩٥ تم إنشاء خمس مستعمرات أخرى. وكانت مستعمرة حبديرا هى أهم هذه المستعمرات. وكانت المنطقة التى أنشئت فيها فى السامرة مليئة بالمستنقعات ومات كثيرون من اليهود بسبب الملاريا. وقام المهاجرون بتجفيف المستنقعات وغرسوا فيها عدداً كبيراً من شجر الكافور، وأصبحت صالحة للزراعة وإستغلت الأراضى فى زراعة القمح وأنتجت محاصيل وفيرة منه، كما زرع عنب النبيذ الفرنسى بإشراف خبراء. وفى الجليل زرعت البساتين وأشجار توت دودة القز وأقيمت عدة مخابئ كثيرة للنبيذ لتعتيقه فى مستعمرة ريشون لوزيون. وكان البارون إدموند دى روتشيلد يشترى فى معظم الأحوال النبيذ كله لحسابه. وأنشأت جماعة من محبى صهيون شركة نبيذ الكرمل سنة ١٨٩٦ ونجحت نجاحاً بعيداً فى تسويقه فى أوروبا وأمريكا وبلاد الشرق. والواقع أن معظم المستعمرات كانت تركز نشاطها الزراعى فى إنتاج الكروم. ولم تكن المعونات المالية التى كان يقدمها البارون إدموند دى روتشيلد مقصورة على الإسكان؛ بل شملت أيضاً بناء المعابد والمدارس والمستشفيات والملاجئ للطاعنين فى السن(١٣).

وكان مما ألهب قلوب اليهود حماساً لقضيتهم وتصميماً على الهجرة إلى فلسطين نداء بعنوان التحرر الذاتى وجهه سنة ١٨٨٢ ليون بنسكر وهو طبيب روسى من أودسا صور فيه الإذلال والبؤس واليأس الذى تعرض له يهود الروسيا عقب مقتل إسكندر الثانى قيصر الروسيا عام ١٨٨١، وقال فى ندائه إن حالة الإنحطاط التى تدهور إليها اليهود إنما ترجع إلى أن الشعب اليهودى لم يعد شعباً حياً، بل أصبح اليهود أجانب أينما حلوا، مشتتين فى كل مكان حتى أنهم عدوا محتقرين. ورأى أن العلاج الصحيح الوحيد هو إنشاء قومية يهودية فى أرضها الخاصة بها. وهذا هو التحرر الذاتى لليهود، تحررهم كافة بين الأمم وذلك بتجميع لليهود فى دولة خاصة

بهم. وإشترط – لكى يظلوا فى دولتهم الجديدة أبد الآبدين وحتى لا يضطروا إلى الإنتقال من مهجر إلى مهجر – أن تكون الدولة المرتجاة من الإتساع وتعدد الموارد الطبيعية والإقتصادية فيها بحيث تكفى جموع اليهود. وفى هذه الدولة يتعاون رجال العلم والمال والسياسة على النهوض بها قدما. وكان بنسكر مشدوداً بعقله وعاطفته إلى فلسطين كى تكون الدولة القومية المنشودة. وإقترح تكوين شركة يهودية تجمع بين أعضاء مجلس الإدارة وأثرياء اليهود تشترى مساحات شاسعة من الأراضى فى فلسطين ثم تقسم قطعاً صغيرة وتباع بثمن أغلى من ثمنها الأصلى بقدر قليل تشجيعاً لليهود على شرائها وتقديم تسهيلات لهم، وتستخدم المبالغ المتحصلة من بيع الأرض مضافاً إليها التبرعات المالية التى يقدمها أثرياء اليهود، ويتكون من حصيلة هذه وتلك صندوق لاسكان المهاجرين الفقراء. وبجانب هذه الوسائل العملية، إتجه التفكير السياسى لدى بنسكر إلى إيجاد نوع من الحصانة السياسية للدولة اليهودية المرتجاة عن طريق موافقة الحكومات الأوروبية وغير الأوروبية على إنشاء الدولة اليهودية فى فلسطين ثم قيام هذه الحكومات بتقديم المساعدات فى شتى صورها وأشكالها إلى الدولة اليهودية فى فلسطين. وكان هذا النداء بما تضمنه من حلول عملية وآراء سياسية خطة عمل لزعماء الصهيونية وحافزاً ليهود العالم على تركيز الهجرة اليهودية إلى فلسطين على الرغم من وقوف السلطان عبد الحميد الثانى فى وجهها، كما أن هذا النداء يفسر قيام المستعمرات الصهيونية الأولى فى فلسطين بما عرف عن اليهود من تعدد الوسائل والحيل والموارد والأنصار والتحايل على القانون لتحقيق أهدافهم.

على هذا النحو عاصرت الدولة العثمانية مولد ثم نشأة الحركة الصهيونية. وقد إشتد ساعد هذه الحركة بعقد المؤتمر الصهيونى الأول فى

مدينة بال بسويسرا الذى تنادى إلى عقدة تيودور هرتزل الصحفى النمساوى اليهودى(١٤).

وإستمرت جلسات المؤتمر ثلاثة أيام هـى ٢٩، ٣٠، ٣١ مـن شـهر أغسطس عام ١٨٩٧، وحضره ما يقرب من مائة وخمسـين منـدوباً مـن اليهود جاءوا من مختلف أنحاء العالم. وإتخذ المؤتمر عدة قـرارات هامـة يطلق عليها برنامج بال، ويتضمن إنشاء دولة يهودية فى فلسـطين تجمـع شتات اليهود من أنحاء العالم، وإنشاء المنظمة الصهيونية العالمية وتقويـة الروح القومية اليهودية، والإهتمام بتدريس ونشر اللغة العبرية فـى جميـع يهود العالم، وإنشاء معهد عال للدراسات العبرية فى بيت المقـدس أو يافـا يهتم بدراسة الأدب العبرى والتاريخ العبرى. وفى هذا المؤتمر وضع شعار العلم الرسمى للدولة اليهودية المرتجاة ونشيد قومى لها، كما تقرر أن يـدفع كل يهودى يعتنق مبادئ الحركة الصهيونية مبلغاً زهيداً كل سـنة حـددت قيمته بشيكل واحد. وبعد عقـد المـؤتمر الصـهيونى الأول تـوالى عقـد المؤتمرات الصهيونية بصفة رتيبة سنوياً أول الأمر ثم مرة كـل سـنتين. وسرعان ما إتسع نطاق الحركة الصهيونية وإشتد ساعدها ودخل زعماؤها وأقطابها فى إتصالات مختلفة الصور والأشكال مع الحكومات الأوروبيـة لمساندتها فى تنفيذ برنامج بال. وهكذا تطورت أطماع اليهـود : فبعـد أن كانوا يتطلعون إلى الإقامة فى فلسطين والإستقرار تحت الحكـم العثمـانى قفزت أطماعهم إلى الإستيلاء على فلسطين وإقامة دولة عنصـرية فيهـا. وجاء مؤتمر بال الأول فرفع آخر حجاب عن وجه اليهود.

كان من نتائج المؤتمر الصهيونى الأول أن وجد هرتزل نفسه يـزعم قولاً وعملاً حركة سياسية عنصرية هى الحركة الصهيونية. وقد نصبه هذا المؤتمر رئيساً للمنظمة الصهيونية العالمية وكان على السلطان عبد الحميـد

أن يواجه فى خلال الثلاث عشرة سنة التى تبقت له فى الحكم منذ عقد مؤتمر بال الأول حتى تم عزله (١٨٩٧ - ١٩٠٩) المؤامرات الصهيونية والمنظمات الصهيونية لتهويد فلسطين كخطوة أولى لإقامة الدولة اليهودية فيها. ولذلك فإن دراسة موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية تتصل إتصالاً وثيقاً بتاريخ هذا السلطان الذى تصدى بها بكل ما أوتى من عزيمة ودبلوماسية مما أضاف إلى أعبائه فى الحكم وفى مواجهة الزحف الإستعمارى الأوروبى على ممتلكات الدولة أعباء ثقالاً جديدة فى مواجهة الصهيونية العالمية.

كان هرتزل من أخطر زعماء الصهيونية فى العالم. تميز تفكيره السياسى بالمرونة والحصافة وتعدد الجوانب فضلاً عن حذقه التضليل والخداع والنفاق. كان إذا سد فى وجهه طريق سلك طريقاً آخر. وإذا تخلت عنه دولة أوروبية كبرى كان يعلق عليها آمالاً كباراً فى مساعدة الحركة الصهيونية إتجه إلى دولة أخرى من الدول العظمى. وكان يسعى سعياً حثيثاً لحشد أكبر عدد ممكن من الدول لمناصرة حركته أو العطف عليها أو عدم الوقوف منها موقفاً سلبياً. وفوق هذا كله وضع فى مخططه الإتصال بالسلطان عبد الحميد الثانى. وكان يظهر فى تفكيره السياسى أخلاق اليهودى فهو يتخذ من المال وسيلة لإغراء السلطان على الإذن فى إنشاء الدولة اليهودية المرتجاة فى فلسطين زاعماً له أن الحركة الصهيونية هى دعوة إنسانية سلمية لا تنطوى على أى أخطار تهدد الدولة العثمانية. وأكد له كذباً وزوراً أن الصهيونيين يكنون ولاء للدولة العثمانية ولسطانها، وأن المنظمة الصهيونية إعترضت على كل تسلل يهودى مهما كان ضئيل الحجم إلى فلسطين دون موافقة السلطة صاحبة السيادة على البلاد وهى الدولة العثمانية. وأكد له أن فوائد جمة ستجنها الدولة العثمانية إذا أذنت لليهود فى

إقامة دولة ذات حكم ذاتى فى فلسطين، لأن اليهود عنصر نشيط دءوب على العمل يحترم القانون، له خبرات واسعة وعميقة فى شتى ميادين العلم ومجالات العمل. كما أن أثرياء اليهود على إستعداد لسحب رؤوس أموالهم من البلاد التى يقيمون فيها ونقلها إلى فلسطين لإستخدامها فى إستغلال موارد البلاد الإقتصادية. وفى ثنايا الحديث عرض على السلطان تقديم معونات مالية ضخمة تساعد على تدعيم المركز المالى للحكومة العثمانية فى وقت كانت موازنة الدولة تعانى عجزاً يعكس أزمات مالية عنيفة تهدد بإنهيار الإقتصاد العثمانى(١٥).

إتسع نطاق الحركة الصهيونية فى خلال سنة واحدة – وهى الفترة التى إنقضت منذ عقد مؤتمر بال الأول إلى إجتماع مؤتمر بال الثانى : أغسطس ١٨٩٧ وأغسطس ١٨٩٨ – وكانت سكرتارية المؤتمر الأول قد نشرت كتيبات باللغات الأوروبية توضح أهداف الحركة الصهيونية، كما نشرت نسخاً منها باللغات العربية والعبرية والفرنسية لتوزيعها على يهود الشرق. وسرعان ما أسست فى هذه الفترة جمعيات صهيونية جديدة بلغ عددها سبعمائة وثمان وثلاثين جمعية فى الدول الأوروبية. وأسس يهود مصر جمعيتين ويهود أمريكا خمسين جمعية. وكان يهود الروسيا أكثر يهود أوروبا تقبلاً للحركة الصهيونية. وكا يليهم يهود النمسا ثم يهود رومانيا. أما فى أمريكا فكانت نيويورك معقلاً للحركة الصهيونية منذ هذا الوقت المبكر، إذ تأسست فى هذه المدينة وحدها ست وعشرون جمعية صهيونية، كما تكونت فى شيكاجو ثمانى جمعيات وتوزعت باقى الجمعيات على سائر المدن الأمريكية.

ومن أهم المؤتمرات الصهيونية المؤتمر الصهيونى الخامس فى مدينة بال، عقد فى الفتر من ٢٦ إلى ٣٠ ديسمبر عام ١٩٠١. وتم فيه إقرار

قانون النظام الأساسى للمنظمة الصهيونية، وبمقتضى هذا القانون أصبح عقد المؤتمرات الصهيونية يتم مرة كل سنتين بدلاً من إجتماعها السنوى، علـــى أن تستمر إجتماعات اللجان المنبثقة عن المؤتمرات الصهيونية، كما تقــرر جواز إنشاء جمعيات صهيونية فى أى منظمة إذا طلب ذلــك خمســة آلاف صهيونى ممن يدفع كل منهم شيكلاً واحداً وهو الإشتراك السنوى. وقرر هذا المؤتمر تقديم إعانة مالية لدار الكتب القومية اليهودية فى بيت المقدس. وقد زخرت هذه المكتبة بعديد المصادر والمراجع والدوريات وأصبحت فيما بعد نواة المكتبة العامة للجامعة العبرية فى بيت المقدس والتى شيد لهــا مبنــى خاص عند إنشاء مبانى الجامعة. كما قرر المؤتمر الشروع فى وضع دائرة معارف يهودية وإنشاء مكتب لشئون الإحصاء. وقرر المــؤتمر أيضــاً أن تعليم الشعب اليهودى على أسس قومية هو أحد العناصــر الرئيســية فــى البرنامج الصهيونى. وأهاب المؤتمر بجميع الصهيونيين أن يعمل كل منهم فى دائرته لتحقيق هذه الغاية[١٦].

وقد وصل إلى علم السلطان عبد الحميد أن أفواجاً من اليهود لا تــزال تتعاقب على فلسطين، إذ كان قناصل بعض الدول الأوروبية فــى فلســطين يتدخلون لصالح اليهود مستغلين قيام نظام الإمتيازات الأجنبية. لأن اليهــود كانوا يصطنعون بعض الوسائل للتحايل على القانون. ورأى السلطان منــع هذا التدفق اليهودى على فلسطين، فأصدر فى نوفمبر عــام ١٩٠٠ فرمانــاً يحدد إقامة الزائرين اليهود لفلسطين بمدة لا تتجاوز ثلاثة شــهور. وعلــى الرغم من أن السلطان كان قد أصدر فرماناً على غراره سنة ١٨٨٧، ثارت ثائرة اليهود على فرمان عام ١٩٠٠ ودفعوا بعض الحكومــات الأوروبيــة وغيرها إلى الإحتجاج عليه لدى السلطان. فأبلغت الحكومة الإيطالية البــاب العالى أنها لا تميز بين رعاياها المسيحيين ورعاياها اليهود. ومن ثم فهــى

تحتج على صدور هذا الفرمان. وتلاها السفير الأمريكى الذى قدم فى اليوم الثامن عشر والعشرين من شهر فبراير عام ١٩٠١ إحتجاجاً مماثلاً باسم حكومته، وكذلك نهجت الحكومة البريطانية هذا النهج. وكان رد الباب العالى أن فرمان سنة ١٩٠٠ ليس أمراً جديداً فهو تجديد لفرمان سابق مماثل. ورأى عبد الحميد كى يخفف من حدة هذه الإحتجاجات أن يقابل فى قصره هرتزل زعيم الحركة الصهيونية. وتمت المقابلة فى اليوم السابع عشر من شهر مايو عام ١٩٠١ وكان معه إثنان من أقطاب الحركة الصهيونية ثم قابله السلطان مرتين أخريين، وعرض هرتزل على السلطان مشروعاً صهيونياً خطيراً. ويلاحظ أنه كان يتلاعب بالألفاظ ليخفى حقيقة أغراضه. إتبع السياسة المرنة فكان يتكلم تارة عن الدولة اليهودية فى فلسطين، وتارة أخرى عن الوطن القومى اليهودى فى فلسطين، وتارة ثالثة يتكلم عن الكيان اليهودى فى فلسطين مما يدل على أنه كان كاذباً مخادعاً منافقاً يتبع الإزدواجية فى أسلوب العمل.

وقد وصلت المباحثات بين السلطان عبد الحميد الثانى وهرتزل إلى جوهر الموضوع. فعرض الأخير أن يصدر السلطان فرماناً بالسماح لليهود الأجانب بالهجرة إلى فلسطين والتوطن فيها ومنحهم قسطاً وافراً من الحكم الذاتى، وأن يدفع اليهود. عند صدور الفرمان مبلغاً كبيراً من المال قدر بثلاثة ملايين من الجنيهات. وقدرته بعض المراجع بمليونى جنيه. ثم يقومون بعد ذلك بدفع جزية سنوية للدولة. وكان المشروع الصهيونى يقوم فى خطوطه الأساسية وفق النظام المعمول به فى جزيرة ساموس. وهى جزيرة يونانية من جزر بحر إيجة كان قد أسهم عدد كبير من سكانها فى الكفاح المسلح الذى خاضه اليونانيون من أجل إستقلال بلادهم عن الدولة العثمانية فى العشرينيات من القرن التاسع عشر. ولما قررت بريطانيا

وفرنسا والروسيا فى سبتمبر – عام ١٨٣١ منح اليونان الإستقلال التام وأن تمتد حدود المملكة اليونانية من خليج آرتا إلى فولا، ظلت جزيرة ساموس خارجة عن نطاق المملكة اليونانية المستقلة الوليدة. وبناء على تدخل بريطانيا وفرنسا والروسيا أصدر السلطان محمود الثانى فرماناً فى اليوم الحادى عشر من شهر ديسمبر عام ١٨٣٢ قرر فيه منح سكان جزيرة ساموس الحكم الذاتى، ونص الفرمان على أن يتولى حكمها أمير مسيحى له جيشه الخاص وعلمه الخاص ومجلس الإدارة المحلية، على أن يدفع هذا الحاكم اليونانى للدولة العثمانية جزية سنوية قدرها ثلاثمائة ألف قرش(١٧).

كان السلطان عبد الحميد الثانى أدهى من أن يستجيب لهرتزل. وكان فى خلال مقابلاته مع هرتزل مستمعاً أكثر منه متكلماً. وكان يرخى لهرتزل فى حيال الكلام ليجعله يصرح بكل ما فى جعبته من آراء ومشروعات ومطالب، ويتظاهر العاهل العثمانى بمسايرته مما جعل هرتزل يعتقد أنه على وشك النجاح فى مهمته، ثم يتبين له فى نهاية الأمر أنه فى جهوده مع السلطان عبد الحميد يسير فى طريق مسدود وبعد أن إستقبل السلطان ثلاث مرات هرتزل رفض أن يقابله بعد ذلك وأنعم عليه بالنيشان المجيدى. واعترف هرتزل بأنه هو الذى إلتمس من السلطان أن يمنحه وساماً من رتبة رفيعة. وكان هدفه من هذا الإلتماس هو خداع الذين يتصلون به.

ومع ذلك فإن للصبر حدوداً. وضاق السلطان عبد الحميد ذرعاً بالضغط المتواصل الذى مارسه هرتزل على الحكومة العثمانية من أجل فتح أبواب فلسطين للهجرة اليهودية. وكان هرتزل قد عهد إلى أحد عملائه واسمه نفلنسكى بأن يعرض على السلطان رشوة بمبلغ مليونى جنيه مقابل الحصول على فلسطين. فأراد الساطان أن يحسم الموقف بصفة قطعية. فأدلى إلى هذا الوسيط بتصريح كان من القوة والصد والخطورة ما جعل هرتزل يدونه فى

مذكراته. وكان مما جاء على لسان السلطان ((إنصحوا هرتزل بألا يتخذ خطوات جدية فى هذا الموضوع. إنى لا أستطيع أن أتخلى عن شبراً واحداً من الأرض. فهى ليست ملك يمينى، بل ملك شعبى، لقد ناضل شعبى فى سبيل هذه الأرض، ورواها بدمه، فليحتفظ اليهود بملايينهم. وإذا مزقت إمبراطوريتى يوماً فإنهم يستطيعون آنذاك أن يأخذوا فلسطين بلا ثمن. أما وأنا حى فإن عمل المبضع فى بدنى لأهون على من أن أرى فلسطين قد بترت من إمبراطوريتى. وهذا أمر لا يكون. إنى لا أستطيع الموافقة على تشريح أجسادنا ونحن على قيد الحياة)) (١٨).

لقد كان فى حكم الإستحالة أن يستجيب السلطان عبد الحميد لإغراءات الصهيونيين المالية، لأن مثل هذه الإستجابة تتعارض تعارضاً جذرياً مع سياسة الجامعة الإسلامية التى تنادى إليها وإحتضنها وغدت تشكل ركناً أساسياً فى سياسته الإسلامية وإستهدف منها إستقطاب العالم الإسلامى للوقوف إلى جانبه فى وجه الزحف الإستعمارى الأوروبى على الدولة. فإن خضوعه للإغراءات المالية التى يلوح بها الصهيونيون له كان يعد إنتحاراً سياسياً لعبد الحميد وتناقضاً صارخاً لسياسة الجامعة الإسلامية.

أما وعد بلفور فقد جاء نتيجة تبادل وجهات النظر بين قادة الصهاينة والحكومة البريطانية، وذلك فى أعقاب مذكرة رفعتها (المنظمة الصهيونية) إلى الحكومة البريطانية فى ١٨ يوليو ١٩١٧. كذلك جاء هذا التصريح بعد مشاورة كل من الحكومتين الفرنسية والأمريكية وموافقة الرئيس ولسون على ذلك. وكان على شكل خطاب من بلفور وزير الخارجية البريطانية إلى لورد روتشيلد كزعيم ممثل للجالية اليهودية.

ونصه كالآتى :

((إن حكومة جلالة الملك توافق على إنشاء وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين؛ وسوف تبذل أكبر الجهد لتسهيل تحقيق هذا الأمر. على أنه يفهم بوضوح أنه لن يعمل شئ يضر الحقوق المدنية والدينية لغير اليهود من سكان فلسطين، أو حقوق اليهود ووضعهم السياسى فى أية دولة أخرى)).

والتصريح فى حد ذاته يمثل مرحلة مهمة فى طريق ((المؤامرة))، سواء كان بالنسبة للحركة الصهيونية أو النشاط الإستعمارى الغربى فى المنطقة العربية. فهو فى الواقع كان دفعة كبيرة للحركة الصهيونية ووثبة لها نحو تحقيق أهدافها، كما كان بمثابة بدء لمرحلة جديدة فى التاريخ اليهودى. وفى تلك المرحلة كان على الصهيونيين أن يتحولوا من مجرد دعاة إلى قيام الدولة اليهودية إلى بناة لها. وذلك العمل بدأوه بعزم وإصرار. ومع ذلك فالوعد كما جاء لم يعجب الصهيونيين كثيراً فقد كانوا يودون أن يشمل العبارة ((الإعتراف بفلسطين كوطن قومى للشعب اليهودى)).

وهو – أى التصريح – يتفق فى حد ذاته تماماً وسياسة إنجلترا إزاء هذه المنطقة. فنراه يكمل سياستها إبان المفاوضات التى دارت بينها وبين فرنسا والروسيا بشأن مصير الممتلكات العثمانية وتقسيمها بعد الحرب، ولكنه يتعارض تماماً مع ما جاء بإتفاقية سيكس – بيكو خاصاً بفلسطين كما رأينا. فإنجلترا – فضلاً عن أنها كانت تود أولاً وقبل كل شئ كسب الحرب عامة والإنتصار فى الميدان الشرقى بسورية الذى فتحه اللنبى بحملته على الشام – ترحب بفكرة إقامة دولة يهودية حليفة لها على حدود مصر الشرقية.

ووجد لويد جورج فى وعد بلفور وفى الصهيونيين أداة لإبعاد فرنسا عن الأراضى المقدسة وعن حدود مصر وزيادة سلامة قناة السويس بالتالى. من ناحية أخرى فإن وجود دولة يهودية تعتمد فى بنائها على التحالف مع إنجلترا وتتكون من إخلاط من أجناس العالم فى قلب العالم العربى – فهذا كفيل بشطر العالم العربى وتمزيقه والحيلولة دون تقدمه وإستعادته لمجده السابق، وضمان بإستمرار سيطرة إنجلترا على المنطقة(١٩).

والإنجليز يبررون هذا التصريح بالرغبة فى كسب تأييد الدوائر اليهودية فى ألمانيا والنمسا إلى جانب الحلفاء. وقد يكون هناك بعض الأساس فى ذلك الأمر، فقد حدث أن عرض كل من الألمان والأتراك بعدئذ على الصهيونيين (١٩١٨) براءة لإنشاء شركة فى فلسطين تختص بأمور الإستيطان اليهودى.

وظروف منح هذا التصريح تدعو إلى التأمل. فالحرب العالمية الأولى تكون فرصة لزعماء الصهيونية فى كل البلاد لتحقيق أغراضهم. ولكن الصهيونيين إنقسموا إلى قسمين، البعض يرى أن يتجه نحو ألمانيا والآخر يرى أن يستعين بإنجلترا وحلفائها. لكن عروض اليهود، إنهالت على أية حال على الفريقين المتحاربين، فكل كان له مزاياه ومساوئه فى نفس الوقت. فإنجلترا كانت حليفة للروسيا التى يكرهها اليهود كما كانت المانيا حليفة لتركيا التى وقفت للحركة الصهيونية بالمرصاد. واليهود فى مساوماتهم للطرفين فى وقت واحد كانوا يعلمون تماماً حاجة كل من المعسكرين إلى كسب التأييد المادى والأدبى للصهيونية العالمية. ولذلك تلجأ المانيا وحليفتها النمسا إلى الضغط على تركيا لمنح الصهيونيين وعداً يسمح لهم بإنشاء شركة كبيرة تتمتع بإمتيازات واسعة وتكون مهمتها تيسير الهجرة اليهودية إلى فلسطين(٢٠).

ورغم أن الجو لم يكن ممهداً تماماً للصهيونية فى إنجلترا، فقد مالت الصهيونية بكل ثقلها إلى جانب الحلفاء، وإستطاعت أن تجذب إليها عدداً من كبار الشخصيات فى عالم السياسة والمال. فعند بدء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤) كانت الجهود الصهيونية مركزة فى المانيا. وعند إنقسام أوروبا إلى معسكرين إبان الحرب ظهر مركز صهيونى آخر فى لندن، وكان حاييم فايتزمان هو زعيم الصهيونية فى لندن. وهناك فى لندن، جابهت الصهيونية معارضة من شخصيات يهودية مرموقة، بعضهم ينتمى إلى عائلات يهودية معروفة، أو أعضاء فى الأرستقراطية الإنجليزية. هؤلاء رفضوا ربط أنفسهم بقضية القومية اليهودية، ومنهم كان منتفيورى والكسندر رئيساً (الجمعية الإنجليزية - اليهودية) و(هيئة الممثلين لليهود الإنجليز). منهم أيضاً شخصيات مثل سير فيليب ساسون السكرتير الخاص للويد جورج، وسير هربرت صمويل وزير الداخلية وأفراد من عائلة روتشيلد ورغم أن المنظمتين اليهوديتين فى إنجلترا قد عارضتا فايتزمان وهو يحاول الحصول على تصريح بريطانى رسمى لصالح الصهيونية، ونشر المنظمتين لإحتجاج ضد البرنامج الصهيونى فى صحيفة The Times (مايو ١٩١٧) والصهيونية عرفت كيف تشق طريقها وسط هذا الحصار وتنفذ إلى هدفها. فقد وجدت الصهيونية مساعدة من الصحافة مثل ما أبدته صحيفة Manchester Guardian، ومن بعض الشخصيات التى تحولت وإنقلبت فصارت صهيونية قلباً وقالباً مثل عائلة روتشيلد وهربرت صمويل وفيليب ساسون ثم لويد جورج نفسه. وبمساعدة هؤلاء كسب فايتزمان لورد بلفور إلى صفه.

وبمساعدة اللجنة الصهيونية التى تكونت للتعاون فى الولايات المتحدة، بالإضافة إلى الشخصيات التى كسبتها الصهيونية إلى جانبها فى إنجلترا،

إجتهد الصهيونيون فى الحصول من الحلفاء على تأييد لإنشاء ((كومنولث)) يهودى فى فلسطين بعد إنهيار الإمبراطورية العثمانية. وإستخدموا فى ذلك الضغط السياسى، والصحافة العالمية، والضغط الفردى على الشخصيات وعلى الإتجاهات السياسية. وبالتدريج ظهرت مجموعة - من اليهود وغير اليهود - تؤيد إنشاء مثل هذه الدولة، ولا سيما حينما بين الصهيونيون أن هذه الدولة - وهى تمثل مكاناً إستراتيجياً بالنسبة لقناة السويس - سوف تكون فى منطقة النفوذ البريطانية. ولكن معارضة الروسيا فى ذلك الأمر أرجأت القيام بأى إجراء من جانب الإنجليز فى ذلك المجال. وظل الأمر كذلك حتى قيام الثورة البلشيفية فى الروسيا - التى وضحت معالمها فى صيف ١٩١٧ ثم وصلت إلى الذروة بنجاح الإنقلاب البلشيفى فى ٧ نوفمبر ١٩١٧م.

وبينما كانت الدولة العثمانية على وشك إصدار وعدها للصهيونيين - بخصوص الهجرة إلى فلسطين - بدأ اللنبى فى غزو فلسطين. ومن المعروف أن جيش اللنبى كان يحتوى على وحدات محاربة يهودية خالصة تحارب بصفتها اليهودية لأول مرة منذ حوالى الألفى عام. وهؤلاء كانوا يحاربون فى الواقع من أجل ما كانوا يطمحون إليه وهو إقامة وطن قومى لهم فى فلسطين. أما من بقى من اليهود فى المستعمرات فى فلسطين - بعد هجرة الآلاف منهم إلى مصر إبان الحرب - فقد خدموا قضية الحلفاء بطرق مختلفة، وتفانوا فى تقديم هذه الخدمات، فقضية الحلفاء بالنسبة إليهم كانت قضية مصير.

وأخيراً يصدر تصريح بلفور يوم ٢ نوفمبر من نفس العام، وذلك حينما كانت معركة غزة الثالثة والحاسمة على أشدها، وهى المعركة التى فتحت الطريق فى سورية لجيش اللنبى.

وبينما كان الإنجليز يدركون تماماً خطورة هــذا التصــريح وفداحتــه بالنسبة للقضية العربية، لم يفطن إلا القليلون جداً لهذه الخطــورة فشـكوك الملك حسين إزاء نوايا الحلفاء لم تزلها فقط بسمات الإنجليز وإشارتهم إلى المستقبل المشرق للعرب فى ظل صداقتهم، بل نجـدهم يحـاولون إقناعــه بالإتفاق مع فايتزمان على ((المشكلة)) الفلسطينية. كذلك أثار هذا التصريح مخاوف بعض قادة العرب بالقاهرة ولكن بريطانيا طمأنتهم بتصريح أكـدت فيه وعودها للعرب.

فعلى أثر صدور التصريح ونشره وظهور مخاوف الملك حسـين إزاء نوايا إنجلترا أرسل أحد الضباط من المكتب العربى، وكـان أسـتاذاً مـن أكسفورد متخصصاً فى الدراسات العربية، ليؤكد له بأنه له يسمح للإستقرار اليهودى فى فلسطين بأن يتعارض مطلقاً مع ((الحرية السياسية والإقتصادية للعالم العربى)) وعلى ذلك يسكت حسين معتمداً على الكلمة البريطانية، بعد أن يؤكد للإنجليز أنه لن يقبل دولة يهودية مستقلة فى فلسطين، ويطمئن إلى تأكيدات الإنجليز بأن إقامة اليهود فى فلسـطين سـوف لا يتعـارض مـع إستقلال العرب هناك، ويرسل إلى أتباعه بمصر وإلى قوات الثورة بـذلك، ويحثهم على مواصلة الثقة بإنجلترا[٢١]. أما اليهود فقد بدأوا العمـل عقـب صدور التصريح مباشرة. فإستطاع فايتزمان الحصول على موافقة الحكومة البريطانية على إرسال لجنة إلى فلسطين لتخطيط أمر إقامـة اليهـود فـى فلسطين وتوسعهم الإستعمارى هناك حالما تنتهى الأعمال الحربية. فى نفس الوقت يبذل فايتزمان كل ما فى وسعه ليصل إلى إتفاق مـع العـرب عـن طريق الأمير فيصل. ولكن فايتزمان لم ينجح فى ذلك تماماً وذلـك بسـبب موقف الحكومة الإنجليزية من جانب وموقف العرب عموماً من وعد بلفور الذى لم يقبله أحد فى العالم العربى.

فبناء على إقتراح من اللنبى قابل فيصل فايتزمان (٤ يونيو ١٩١٨) فى مقر قيادة فيصل فيما بين معان والعقبة. وهناك – كما يقول فايتزمان فى كتابه ((التجربة والخطأ)) حدث تبادل مُرضِى فى وجهات النظر بين الرجلين. كذلك أعد إجتماع آخر بين الإثنين فى لندن، وهو إجتماع حضره لورنس وقام فيه بدور المترجم. وفى هذا الإجتماع إهتم فيصل بإظهار الخطر بالنسبة إلى المصالح العربية واليهودية على السواء من جراء إتفاقية سيكس – بيكو، وهذه ملحوظة لا تسر إنجلترا الذى كانت تود إبعاد فرنسا عن فلسطين، كذلك يحضر فيصل مأدبة أقامها لورد روتشيلد على شرف الضيف العربى، وفيها قابل فيصل كثيراً من زعماء اليهود.

وهكذا يصل كل من فيصل وفايتزمان إلى مشروع إتفاق (٣ يناير ١٩١٩م) بعد أن وعد الصهيونيون فيصل بدعم المطالب العربية بإستقلال سورية والعراق لو قبل فيصل بسياسة الوطن القومى اليهودى فى فلسطين. وفى هذا المشروع يتعهد الطرفان بالتعاون ((لترقية الدولة العربية وفلسطين))، وتقتطع فلسطين من الدولة العربية عن طريق تخطيط حدود بينهما بواسطة لجنة يتفق عليها الطرفان، ويكون لكل من العرب واليهود مفوضون فى كل من فلسطين والدولة العربية. وفى هذا الإتفاق أيضاً يقبل العرب الخبرات الصهيونية ((فى إعداد الوسائل وتحسين الموارد الطبيعية والقابلية الإقتصادية)) فى بلاد الحكومة العربية. وأخيراً تكون المقدسات الإسلامية تحت إشراف إسلامى.

ولكن هذا الإتفاق لم ينفذ، لأن تنفيذه كان رهناً بقبول مطالب العرب بشأن الدولة العربية، الأمر الذى – أباه الإنجليز على العرب بعد النصر. ولعل بسبب هذا المشروع يدعى بعض الصهيونيين بأن العرب لا حق لهم

في الشكوى من إنشاء إسرائيل، فالإعتراف بوطن قومى لليهود كان جــزءاً من إتفاق خرجت بمقتضاه الدول العبرية إلى الوجود ! [٢٢].

حواشى الفصل السادس

(١) عمر عبد العزيز عمر : تاريخ المشرق، صـ٤٤٦ – ٤٤٧.

(٢) نفسه، صـ٤٤٧ – ٤٤٨.

(٣) نفسه، صـ ٤٤٨.

(٤) نفسه : صـ٤٤٩.

(٥) حسن صبحى : التآمر الصهيونى ضد الأمة العربية، (١٨٨٢ – ١٩٦٧) دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٦٨، صـ٤٦، ٤٧.

(٦) نفسه : صـ٤٧، ٤٨.

(٧) نفسه : صـ٤٩، ٥٠.

(٨) نفسه صـ٥٠ – ٥٢.

(٩) نفسه : صـ٦٤، ٦٥.

(١٠) نفسه : صـ٦٦، ٦٧.

(١١) ثيودور هرتسل ك الدولة اليهودية، ترجمة محمد يوسف عمروسى، مراجعة / عادل حسن غنيم، مركز نصوص للنشر، القاهرة، ٢٠٠٦، صـ٨٤، ٨٥.

(١٢) عبد العزيز محمد الشناوى : المرجع السابق، جـ٢، صـ٩٨٠، ٩٨١.

(١٣) نفسه : جـ٢، صـ٩٨٢.

(١٤) نفسه : جـ٢، صـ٩٨٣، ٩٨٤.

(١٥) نفسه : جـ٢، صـ٩٨٥، ٩٨٦.

(١٦) نفسه : جـ٢، صـ٩٨٦، ٩٨٧.

(١٧) نفسه : جـ٢، صـ٩٨٨، ٩٨٩.

(١٨) نفسه : جـ٢، صـ٩٩٠، ٩٩١.

(١٩) حسنى صبحى : المرجع السابق، صـ٦٩.

(٢٠) نفسه : صـ٧٠.

---

(٢١) نفسه : صـ٧٢، ٧٣.

(٢٢) نفسه : صـ٧٥، ٧٦.

المصادر والمراجع العربية

- أحمد عبد الرحيم مصطفى : فى أصول التاريخ العثمانى، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٣.

- إبراهيم بن أبى بكر الصوالحى العوفى الحنبلى: تراجم الصواعق فى واقعة الصناجق، تحقيق، عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم، المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٨٦.

- تشارلز بيلاڤيتش ــ بربارا بيلافيتش : تفكيك أوربا العثمانية (إنشاء دول البلقان القومية ١٨٠٤ ــ ١٩٢٠) ترجمة / عاصم الدسوقى، دار العالم الثالث، القاهرة، ٢٠٠٧.

- جب، وبوون : المجتمع الإسلامى والغرب جــ١، ترجمة / أحمد عبد الرحيم مصطفى، مراجعة / أحمد عزت عبد الكريم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٠.

- صلاح أحمدهريدى : دراسات فى تاريخ العرب الحديث، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠٨.

- عبدالله الشرقاوى: تحة الناظرين فيمن تولى مصر من الولاة والسلاطين، تحقيق، رحاب عبدالحميد القارى، مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٩٦

- عمر عبد العزيز عمر : تاريخ المشرق العربى (١٥١٦ ــ ١٩٢٢) دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، ١٩٩٦.

- فريدون أمجن : التاريخ السياسى للدولة العثمانية منذ قيام الدولة حتى معاهدة قبنارجه الصغرى، ضمن كتاب الدولة العثمانية تاريخ

وحضارة، المجلد الأول، إشراف وتقديم / أكمل الدين إحسان أوغلى، نقله للعربية صالح سعداوى، استانبول، ١٩٩٩.

- ليلى عبداللطيف: الإدارة فى مصر فـى العصر العثمانى،مطبعة جامعة عين شمس، القاهرة، ١٩٧٨.

- محمد ايشيرلى : نظم الدولة العثمانية، ضمن كتاب الدولةالعثمانية تاريخ وحضارته، جـ١، إشراف وتقديم / أكمل الدين إحسان أوغلى، نقله للعربية صالح سعداوى، استانبول، ١٩٩٩.

- محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربى (١٥١٤- ١٩١٤) مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٣.

- يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة / عدنان محمود سلمان، مراجعة محمود الأنصارى، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، تركيا، إستانبول، ١٩٨٧٨.

- يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابى، دار البصائر، دمشق، ١٩٨٥.

- ابن إياس، بدائع الزهور فى وقائع الدهور،الجزء الخامس، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة،١٩٦١.

- أحمد الدمرداشى كتخدا عزبان: كتاب الدرة المصانة فى أخبار الكنانة فى أخبار ما وقع بمصر فى دولة المماليك من الصناجق والكشاف والسبعة أوجاقات والدولة وعوايدهم والباشا إلى أخر سنة ثمان وستين ومائة وألف، تحقيق عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم، المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٨٩.

- أحمد الرشيدى: حسن الصفا والابتهاج بذكر من ولى امارة الحاج،تحقيق ليلى عبد اللطيف أحمد،القاهرة،١٩٨٠.

- أحمد السعيد سليمان، تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل،دار المعارف، القاهرة،١٩٧٨.

- أحمد بن زنبل الرمال، تاريخ غزوة السلطان سليم خان ابن السلطان بايزيد خان مع السلطان قانصوه الغورى سلطان مصر، تحقيق، عبدالمنعم عامر، تحت عنوان "آخرة المماليك" إشراف، عبدالرحمن الشيخ، الألف كتاب الثانى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨.

- أحمد جودت: تاريخ جودت، المجلد الأول، ترجمة عبدالقادر الدنا، بيروت، ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م.

- أحمد شلبى عبدالغنى، أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات، تحقيق، عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم، مكتبة الخانجى، القاهرة ١٩٧٨.

- أحمد عزت عبدالكريم: تاريخ التعليم فى عهد محمد على، القاهرة، ١٩٣٨.

- أحمد فؤاد متولى، الفتح العثمانى للشام ومصر ومقدماته من واقع المصادر التركية والمصرية المعاصرة له، الزهراء للإعلام العربى، القاهرة، ١٩٩٥.

- إبراهيم على طرخان، مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة،القاهرة ١٩٥٤.

- إلهام محمد على ذهنى، مصر فى كتابات الرحالة الفرنسيين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر، سلسلة مصر النهضة، العدد (٢)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩١.

- ثيودور هرتسل ك الدولة اليهودية، ترجمة محمد يوسف عمروسى، مراجعة / عادل حسن غنيم، مركز نصوص للنشر، القاهرة، ٢٠٠٦.

- جلال يحيى: مصر الحديثة (١٥١٧-١٨٠٥) الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،١٩٨٢.

- حسن صبحى : التآمر الصهيونى ضد الأمة العربية، (١٨٨٢ – ١٩٦٧) دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٦٨.

- حسن عثمان: تاريخ مصر فى العهد العثمانى (١٥١٧– ١٧٩٨) من كتاب المجمل فى التاريخ المصرى، نشره حسن إبراهيم حسن، القاهرة، ١٩٤٢.

- حسن عثمان، محمد توفيق: تاريخ مصر فى العهد العثمانى ١٥١٧– ١٧٩٨ نشر فى كتاب المجمل فى التاريخ المصرى ضمن أعضاء هيئة التدريس وإشراف الدكتور حسن إبراهيم، القاهرة، ١٩٤٢.

- سميرة فهمى على عمر:إمارة الحج فى مصر العثمانية ٩٢٣– ١٢١٣/١٥١٧-١٧٩٨، رسالة ماجستير غير منشورة،آداب الاسكندرية،قسم التاريخ،١٩٨٣.

- سميرة فهمى عمر: دور عربان الوجه البحرى فى تاريخ مصر العثمانية (٩٢٣– ١٢١٣هـ/ ١٥١٧– ١٧٩٨م) رسالة دكتوراه غير منشورة، آداب إسكندرية، قسم التاريخ، ١٩٩٢.

- سيد رجب حراز: المدخل إلى تاريخ مصر الحديث والمعاصر من الفتح العثمانى إلى الاحتلال البريطانى (١٥١٧- ١٨٨٢) دار النهضة المصرية، القاهرة ١٩٧٠.

- سيد محمد السيد: مصر فى العصر العثمانى فى القرن السادس عشر، دراسة وثائقية فى النظم الإدارية والقضائية والمالية والعسكرية، مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٩٧.

- صلاح أحمد هريدى، دراسات فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر، الجزء الأول (٩٢٣- ١٢١٣هـ/ ١٥١٧- ١٧٩٨م)، دار عين، القاهرة، ٢٠٠٠.

- عبد العزيز محمد الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، الجزء الاول، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٠.

- عبد الكريم رافق : بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني حتى حملة نابليون بونابرت (١٥١٦ - ١٧٩٨) دمشق، ١٩٦٧.

- عبدالجواد صابر إسماعيل، مصر تحت الحكم العثمانى، مطبعة الحسين الإسلامية، القاهرة، ١٩٨٩.

- عبدالرحمن الجبرتى: عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، جـ١، بولاق، ١٢٩٧هـ/ ١٨٧٩- ١٨٨٠م.

- عبدالرحمن الجبرتى: مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس، تحقيق وشرح حسن محمد جوهر، وعمر الدسوقى، لجنة البيان العربى، الطبعة الأولى، ١٩٦٩.

- عبدالرحمن الرافعى: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم، الجزء الثانى، القاهرة، ١٩٢٩.

- عبدالرحمن الرافعى، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر ،مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،١٩٩٨.

- عبدالرحمن فهمى، النقود المتداولة أيام الجبرتى، بحث منشور ضمن كتاب "دراسات وبحوث عن عبدالرحمن الجبرتى" بإشراف الدكتور/ أحمد عزت عبدالكريم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦.

- عبدالعزيز رفاعى: الكفاح الشعبى فى مصر الحديثة صفحات تاريخية من البطولات الشعبية، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٦.

- عبدالكريم رافق: بلاد الشام ومصر من الفتح العثمانى إلى حملة نابليون بونابرت(١٥١٦-١٧٩٨) دمشق، ١٩٦٨.

- عراقى يوسف محمد: الوجود العثمانى المملوكى فى مصر فى القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥.

- عمر عبدالعزيز عمر: دراسات فى تاريخ مصرالحديث والمعاصر (١٥١٧ -١٩١٩) دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٩٦.

- كرستوفر هيرولد: بونابرت فى مصر، ترجمة فؤاد أندراوس، مراجعة محمد أحمد أنيس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦.

- ليلى الصباغ : معالم الحياة الفكرية فى الولايات العربية فى العصر العثمانى، ضمن كتاب الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، جـ٢، إشراف وتقدير، أكمل الدين إحسان أوغلى، نقله للعربية/ صالح سعداوى، أستانبول ١٩٩٩.

- ليلى عبداللطيف أحمد: الصعيد فى عهد شيخ العرب همام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،١٩٨٧.

- محمد بن أبى السرور البكرى: الكواكب السائرة فى أخبار مصر والقاهرة، نسخة ميكروفيلمية بدار الكتب بالقاهرة، تحت رقم ٣٤١٩٣، ورقة ٢١ب.

- محمد بن أبى السرور البكرى: المنح الرحمانية فى الدولة العثمانية، نسخة مصورة بمكتبة جامعة الأزهر تحت رقم (١١٠٥) ورقة ١٩أ.

- محمد بن أبى السرور البكرى، النزهة الزهية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية، تحقيق، عبدالرازق إبراهيم عيسى، العربى للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٨.

- محمد بن عبدالمعطى الإسحاقى: لطائف أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول، القاهرة، ١٣١١هـ/ ١٨٩٣- ١٨٩٤م.

- محمد بن على اللخمى الإشبيلى، الدر المصان فى سيرة المظفر سليم خان، تحقيق هانس أرنست، دار البستانى، القاهرة، ١٩٦٢.

- محمد صبرى: تاريخ مصر من محمد على إلى العصر الحديث، صفحات من تاريخ مصر، العدد (١٣)، مكتبة مدبولى، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٦.

- محمد عبدالرحمن حسين: نضال شعب مصر ١٧٩٨- ١٩٥٦، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٧٠.

- محمد عبدالمنعم السيد الراقد، الغزوّ العثمانى لمصر ونتائجه على الوطن العربى، الإسكندرية، ١٩٦٨.

- محمد فؤاد شكرى: الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر، دار الفكر العربى، القاهرة، د.ت.

- محمد فؤاد شكرى: عبدالله جاك منو وخروج الفرنسيين من مصر، القاهرة ١٩٥٢.

- محمد فؤاد كوبريلى : قيام الدولة العثمانية، ترجمة / أحمد السعيد سليمان، الألف كتاب الثانى (١١٩) الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣.

- مصطفى بن الحاج إبراهيم تابع الأمير حسن كتخدا عزبان الدمرداشى، تاريخ وقائع مصر القاهرة المحروسة كنانة الله فى أرضه، تحقيق، صلاح أحمد هريدى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٩.

- نبيل السيد الطوخى: صعيد مصر فى عهد الحملة الفرنسية ١٧٩٨-١٨٠١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٧.

- نقولا ترك: مذكرات نقولا ترك: نشرها وترجمها وعلق عليها جاستون فييت، مطبعة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٥٠.

- هنرى لورانس وآخرون: الحملة الفرنسية في مصر، بونابرت والإسلام، ترجمة بشير السباعى، القاهرة ١٩٩٥.

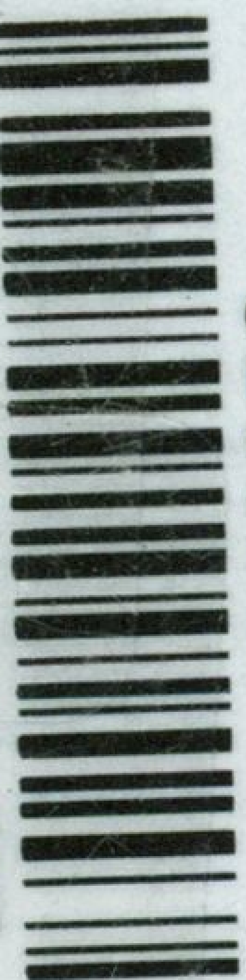
المراجع الأجنبية

- **Arthur E. P. Bromeweigall., A History of events in Egypt From 1798 to 1914, London, 1915.**

- **Combe Etienne., L' Egypte Ottoman de la Conquete par Selim (1517) a l'arrivee .de Bonaparte (1798) en Precis de Egypte, T3, Le Caire, 1933.**
- **Creay. M. A., History of the Ottoman Turks, From the Beginning of their Empire to the Present Time, Vol. I, London, 1854.**
- **Holt, P. M., Egypt and the fertile Crescent,London,1968.**
- **Holt. P. M., the Beylicate in Ottoman Egypt during the Seventeenth Century (BSOAS). XXIV. London, 1961.**
- **Holt. P. M., The Exalted Lineage of Ridwan Bey Some Observations on a Seventeenth Century Mamluk Genealogy (BSOAS) XXIV, p.2, London, 1969.**
- **Holt. P. M., Egypt. p.89; Idem, The Pattern of Egyptian Political History from (1517- 1798) in Political and Social Change in Modern Egypt, London, 1968.**
- **Shaw., Ottoman Egypt in the age of the French revolution, Cambridge,Mass,1964.**

الفهرس





Bibliotheca Alexandrina
12240350



مكتبة
بستان المعرفة